

من أجل بناء دولة الإمارات العربية المتحدة

# تبسيط التداولية



د. بهاء الدين محمد مرشد

مدير مركز البحوث والدراسات  
مركز البحوث والدراسات  
مركز البحوث والدراسات

من أعمال النُفَّة إلى بلاغة الخطاب السياسي

## تبسيط التداولية

د. بهاء الدين محمد مزيد

الكتاب : تبسيط التداولية

المؤلف : د. بهاء الدين محمد مزهد

الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠١٠

رقم الإيداع : ٢٠١٠/١٣٧١٦

التقييم الدولي : 3 - 042 - 493 - 977 - 978 - I.S.B.N

الناشر

شمس للنشر والتوزيع

٨٠٥٢ ش ٤٤ هضبة الوسطى - المنظم - القاهرة

تالفاكس : ٢٧٢٧٠٠٠٤ (٠٢) - ١٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)

[www.shams-group.net](http://www.shams-group.net)

تصميم الغلاف : إسلام الشماخ

حقوق الطبع والنشر محفوظة

لا يسمح بطبع أو نسخ أو تصوير أو تسجيل

أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة كانت

إلا بعد الحصول على موافقة كتابية من الناشر

من أفعال اللغة إلى بلاغة الخطاب السياسي

# تبسيط التداولية

د. بهاء الدين محمد مزيد

قسم دراسات الترجمة

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

جامعة الإمارات العربية المتحدة

قسم اللغة الإنجليزية، كلية الآداب، جامعة سوهاج





إلى ميرال و مريم و مروة،

اعتذاراً عن الانشغال والتقصير

وإلى أساتذتي،

عرفاناً وتقديراً ..

بهاء



## المحتويات

١١	§ أما قبل: طرائق الترجمة ودرجاتها
١٤	- هذا الكتاب
١٨	§ ما هي التداولية؟
٢٠	- كيف تطوّرت؟
٢١	§ السياق
٢٤	- فإن دايد: مقدمة عن السياق
٣٥	- من ضرورات التلقي
٣٧	§ النحو الوظيفي
٤٠	§ المبدأ التعاوني
٤٧	§ التضمن
٥٠	§ ماذا نفعل بالكلمات؟
٥٧	§ التأدب والكمياسة
٦٨	- كمياسة أون لاين
٧٠	§ الإشارة
٧٥	- اللغة، إنن، تشير
٧٨	§ التداولية العامة
٨٠	§ التداولية المقارنة
٨٥	§ تحليل الخطاب ولغويات النص
٩٩	- التناص وما إليه
١٠١	- علاقات بين نصية
١٠٣	- بين المعتم والمتعلم



١٠٥	§ التحليل النقدي للخطاب
١١٥	- عن لغة الإعلام واستعارات شئى
١١٦	- حمامة وصقر
١١٦	- الإسلام فضاء وصراط
١١٧	- استعارات منها ما ورد في القرآن الكريم
١١٨	- استعارات معاصرة
١٢١	§ تحليل الخطاب السياسي
١٢٦	- خصائص الخطاب السياسي
١٣٠	§ في العالم العربي
١٣٢	§ نصوص وتطبيقات
١٣٣	- دعاء
١٣٥	- بلاغة إسلامية
١٣٥	- خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع
١٣٩	- عن الإقناع في البلاغة الإسلامية
١٤٠	- خطابة سياسية إسلامية
١٤٢	- الدعاية في التراث الإسلامي
١٤٣	- من أصداء السيرة الذاتية
١٤٥	- خطاب الكرة
١٤٩	- عن خطاب الكرة
١٥٣	- نافذة علي النافذة
١٥٩	- هوامش وتعقيب علي مقتطفات من خطاب سياسي
١٦٧	- نصوص بصرية
١٦٩	§ المراجع
١٨٠	§ المؤلف في سطور
١٨٢	§ شمس للنشر والإعلام

## ثبت الاستطرادات

١١	١. وللتراجمة في النقل طريقان
١٤	٢. وهذا كتاب
١٦	٣. أيها القارئ
٢١	٤. ما البلاغة؟
٣٧	٥. عن اللغويات النقدية
٤٢	٦. تخلص
٤٤	٧. العلم والأدب
٥٠	٨. إن لصاحب الحق مقالاً
٥٠	٩. دعائم الكلام أربع
٥١	١٠. اللغة والبيسبول
٥٣	١١. الإنشاء: بذور نظرية أفعال اللغة في البلاغة العربية (١)
٥٥	١٢. الإنشاء: بذور نظرية أفعال اللغة في البلاغة العربية (٢)
٥٦	١٣. صدق الخبر وكذبه
٥٦	١٤. أفعال لغوية سياسية
٥٩	١٥. فوائد قل ما يجمعها كتاب
٦٦	١٦. الكلمة الطيبة
٦٩	١٧. بلاغة الصمت
٧٠	١٨. عن الالتفات في القرآن الكريم
٨٥	١٩. مثل: أوباما في القاهرة
٨٦	٢٠. مصطلح تحليل الخطاب
٨٦	٢١. والنص
٩١	٢٢. مزلق ومحاذير
٩٦	٢٣. الجنس الخطابي، لا الأدبي
٩٨	٢٤. مصطلح وترجمة
١٠٩	٢٥. في نقد التحليل النقدي للخطاب
١١٤	٢٦. ترجمة المربع الأيديولوجي
١٢٦	٢٧. تحسين القبيح وتقبيح الحسن
١٢٧	٢٨. إضفاء الشرعية وتجريد الآخرين منها



## أما قبل : طرائق الترجمة ودرجاتها

### وللتراجمة في النقل طريقتان

قال الصلاح الصفدي: وللتراجمة في النقل طريقتان: أحدهما طريق يوحنا بن البطريق وابن الناعمة الحمصي وغيرهما، وهو أن ينظر إلى كل كلمة مفردة من الكلمات اليونانية، وما تدل عليه من المعنى، فيأتي بلفظة مفردة من الكلمات العربية ترادفها في الدلالة على ذلك المعنى فيثبتها وينقل إلى الأخرى كذلك حتى يأتي على جملة ما يريد تعريبه، وهذه الطريقة رديئة بوجهين: أحدهما أنه لا يوجد في الكلمات العربية كلمات تقابل جميع الكلمات اليونانية، ولهذا وقع في خلال هذا التعريب كثير من الألفاظ اليونانية على حالها. الثاني أن خواص التركيب والنسب الإسنادية لا تطابق نظيرها من لغة أخرى دالماً، وإيضاً يقع الخلل من جهة استعمال المجازات وهي كثيرة في جميع اللغات. الطريق الثاني في التعريب طريق حنين بن إسحق والجوهري وغيرهما، وهو أن يأتي الجملة فيحصل معناها في ذهنه ويعبر عنها من اللغة الأخرى بجملة تطابقها، سواء سوت اللفاظها أم خالفها، وهذا الطريق لاجود ولهذا لم تحتاج كتب حنين بن إسحق إلى تهذيب إلا في العلوم الرياضية لأنه لم يكن فيما بها، بخلاف كتب الطب والمنطق والطبيعي والإلهي فإن الذي عربه منها لم يحتاج إلى الإصلاح، فلما إكتسب لقد هذه ثابت بن قرة الحراسي وكذلك المجسطي والمتوسطات بينهما" (البهاء العاملي: الكشكول). وقد قوبل هذا التصنيف بكثير من النقد لما فيه من تبسيط ولأن كثيراً من المحدثين يستشهدون به دليلاً على سبق العرب إلى التمييز بين الترجمة الحرفية والترجمة الوظيفية. ولهذا مقام غير ما نحاول هنا من تبسيط.

من الراسخ في دراسات الترجمة التفريق بين ترجمة حرفية **literal**، وترجمة حرة، أو وظيفية **functional**. في هذه القسمة ما فيها من تبسيط، لأن الترجمة الحرفية والوظيفية قد تجتمعان في نص مترجم واحد، وليس هناك ما يبرز الانحياز المنطوق إلى أي منهما، كما أن طرائق الترجمة تتجاوز هاتين الطريقتين. فيما يلي تفصيل هذه الطرائق تأسيساً على تصنيف روبنسون **Robinson** (٢٠٠٣، ص ١٢):

### ١. ترجمة حرفية

**literalism**، وتعني نقل النص الأصلي إلى اللغة المترجم إليها حرفياً مع التضحية - التي تنشأ عن عدم الكفاءة أو عن الضرورة - بجمالياته وخصائصه الوظيفية. لهذه الطريقة وجاهتها في النصوص العلمية وبعض

النصوص القانونية والدينية والوثائق والأوراق الرسمية.

٢. ترجمة تغريبية **foreignism**، وفيها يحتفظ النص المترجم بعناصر الغربة في النص الأصلي. على سبيل التمثيل: هل تبقى "boyfriend" و"girlfriend" "صديق" و"صديقة"، أم تتحول إلى "زوج" و"زوجة" أو "زميل" و"زميلة" - من منطلق أن المفهوم الذي تعبر عنه المفردتان الإنجليزيتان لا يتمشى مع الثقافة العربية الإسلامية؟ يحدث هذا كذلك من العربية إلى الإنجليزية، فنجد من يترجم "الحج" مثلا إلى "Hajj"، ومن يترجمها إلى "pilgrimage". والدوافع متشابهة، فمن يبقى على المفردة الإسلامية ويكتفي بتغيير الأبجدية ربما يقبل دخولها الثقافة الغربية، ومن يستبدل بها مفردة إنجليزية ربما يسعى إلى إضفاء روح ثقافته على المفردة العربية. هذا على سبيل التبسيط، لأن التغريب والتقريب لا يمكن لغيرهما إلى أرقام، كما لا ينبغي الإصرار على الاتهام، لأن الاختيار ربما يحدث لمجرد الجهل بالبديل. سوف يجد التغريب من يدافع عنه من خلال الحديث عن ضرورة الأمانة في الترجمة، والارتباط الذي لا ينبغي أن ينقسم بين اللغة وثقافتها ونهايت الرقابة في زمن السماوات المفتوحة، وسوف يجد التقريب من يدافع عنه كذلك من خلال الحديث عن نسبية مفهوم الأمانة، وعن ضرورة الحفاظ على الهوية والقومية.

٣. ترجمة رشيقة **fluency** تحتفظ قدر استطاعتها بجماليات النص الأصلي، وتراعى أساليب اللغة المترجم إليها وتركيبها، ولو على حساب المعنى أحيانا. هذه التضحية - التي ربما تكون اضطرارية أو قسرية - تبرز استعارة "الجميلة الخائفة" **les belles infideles** في الحديث عن الترجمة (ومفادها أن الترجمة لا بد أن تنتهك النص الأصلي لكي تكون ترجمة جميلة). في الاستعارة بعض الحقيقة، لكن فيها كثيرا من التجني على الجميلات الفضليات، وعلى الترجمات التي تجتمع فيها الأمانة العلمية مع رشاقة الأسلوب وجمال الصياغة.

٤. ترجمة تلخيصية **summary**، وفيها تلخيص أفكار النص الأصلي، دون تشغيل بلغته، أو تراكيبه، أو أساليبه البلاغية. والخطر الداهم هنا هو ما تعين من سرقة أفكار الآخرين دون الرجوع إلى مصادرها. لا عيب في التلخيص، إلا ما يشتمل أحياناً من إقحام، أو حذف بشوّه الأصل، أو يجمعه لحاجات في نفوس المترجمين، أو من يستخدمهم - إضافة إلى رد الفضل إلى غير أهله.

٥. تعقيب على النص الأصلي **commentary**، لا يترجمه، ولا يترجم أفكاره، إلا للاستدلال أو إقامة الحجّة. ولا عيب في التعقيب إذا لم يحاسب النص الأصلي على ما لم يرد فيه، ولا قل به مؤلفه. حتى عند التعقيب تبقى الأمانة ضرورية لازمة.

٦. تلخيص وتعقيب **summary and commentary**، حيث يجتمع تلخيص الأفكار مع مناقشتها والتعقيب عليها، وهو ما يحدث عادة في الدراسات العليا ورسائل الماجستير والدكتوراه. ولا حاجة إلى تكرار الحديث عن المزايق والمخاطر، لأن ما يجرّم التلخيص أو التعقيب منفردين يجرّمهما مجتمعين.

٧. اقتباس ومعالجة **adaptation**، ويعني وضع فكرة أو أفكار النص الأصلي في قالب أو جنس خطابي مغاير، ومن ذلك ترجمة قصيدة إلى قصّة قصيرة، أو ترجمة لوحة إلى مقالة، أو ترجمة مسرحية إلى قصيدة. ومن ذلك ما ألفنا في الثقافة العربية من وضع قواعد النحو وأحكام التلاوة في قالب شعري حتى يتيسر حفظها واسترجاعها.

٨. تشفير **encryption**، ويعني ترجمة النص إلى شفرة سرية لا يفهمها إلا نخبة يجمعها السن أو التخصص، أو الميول والاهتمامات.

## هذا الكتاب

### وهذا كتاب

"وهذا كتاب موعظة وتعريف وتلقح وتبويه، وأراك قد عبته قبل أن تلق على حدوده، وتتفكر في فصوله، وتعتبر آخره بأوله، ومصاحبه بموارده، وقد غلطك فيه بعض ما رأيت في أثناءه من مزح لا تعرف معناه، ومن بظالة لم تطلع على غورها، ولم تدلم اجثليت، ولا لأي علة تكلفت، وأي شيء أريد بها، ولأي جد لعل ذلك الهزل، ولأي رياضة تجشمت تلك البطالة، ولم تدرك أن المزاح جد إذا اجتب ليكون علة للجد، وأن البطالة وقار ورزاة، إذا تكلفت لتلك العافية، ولما قال الخليل بن أحمد: لا يصل أحد من علم النحو إلى ما يحتاج إليه، حتى يتعلم ما لا يحتاج إليه، قال أبو شمر: إذا كان لا يتوصل إلى ما يحتاج إليه إلا بما لا يحتاج إليه، فقد صار ما لا يحتاج إليه يحتاج إليه، وذلك مثل كتابنا هذا؛ لأنه إن حملنا جميع من يتكلف قراءة هذا الكتاب على مر الحق، وصعوبة الجد، وثقل المنونة، وحلية الوقار، لم يصبر عليه مع طوله إلا من تجرد للعظم، وفهم معناه، وذاق من ثمرته، واستشعر قلبه من عزه، ونال سروره على حسب ما يورث الطول من الكد، والكثرة من السامة..." (الجاحظ: الحيوان، موقع الوراق، ص ١٢).

لعل من الملائم أن نسوق هذه المقدمة (ولها يشرح الجاحظ علة ما يحتويه كتابه من مزح) في مقام التبرير، تبرير الكلام عن الترجمة في مقدمة تبسيط التداولية. في مقدمة الجاحظ جملة لعلها ذهبت مثلا، وإن لم تكن قد فعلت فهي جدية أن تفعل، ألا وهي "لا يصل أحد من علم النحو إلى ما يحتاج إليه حتى يتعلم ما لا يحتاج إليه". أما تبرير الكلام عن الترجمة في مقامنا الراهن فهو بيان أن الترجمة في معناها الرحب تشمل ما يجد القارئ في هذا التبسيط من تلخيص وتعقيب ومعالجة، هذا إلى ما فيه من ترجمة بالمعنى الضيق للمصطلح.

ما علاقة كل ما سبق بما نحن بصدده في هذا التبسيط؟ إذا كانت الغاية هي تقديم التداولية للقارئ العربي، دون ادعاء سبق، لأن المقاربة ليست الأولى، فلماذا لا نترجم نصًا من النصوص المؤسسة في التداولية - كتاب لجون سيرل أو لجون أوستن أو لجيفري ليتش، على سبيل المثال؟ الإجابة بسيرة وحاضرة: لأن أيا من هذه النصوص لا يحتوي كل أطروحات التداولية ومفاهيمها وأدواتها، ولأن ما في كل نص على حدة ربما لا يفيد القارئ في السياق العربي - من تفاصيل، واستطرادات، وإحالات إلى سياقات غريبة، وهوامش مرهقة، وغير ذلك. على أن هذا لا ينبغي أن يكون مبرراً

لسرقة أفكار الآخرين. من هنا، تؤثر المقاربة الراهنة ترجمة الأفكار الأساسية والمصطلحات وتعريفاتها وبعض الأمثلة، على سبيل التلخيص، مع تطويع تلك المصطلحات والتعريفات بما يناسب اللغة العربية، بما يضمن حداً أدنى من القبول، وإضافة أمثلة وتوضيحات قريبة من العقل العربي وتعقيبات وإحالات إلى البلاغة العربية، على سبيل المعالجة والتأصيل، بما يناسب المقام والفكرة والمصطلح.

هذه التداولية، إذن، تبسيط مُخلٍ مهما طال، ينطلق من كتابات أوستن Austin (1962)، وجرايس Grice (1975)، وسيرل Searle (1975)، وليكوف Lakoff (1973)، وليتش Leech (1983)، وهاليداي Halliday (1985)، وغيرهم، ودراسات الخطاب عند دي بوجراند De Beaugrande، وفان ديك van Dijk، والتحليل النقدي للخطاب، وتحليل الخطاب السياسي عند الأخير وعند بول تشيلتون Chilton وشيفنر Schaffner، وغيرهم، لكنه لا يتوقف عندها. والغاية في كل ما يرد بعد هذه المقدمة هي التبسيط، وتقديم بعض المفاهيم والنماذج والقواعد والأنواع القابلة للممارسة والتطبيق. لا تثريب على هذا التبسيط إذا أغفل المنقشات الفلسفية، وتفاصيل التفاصيل، والانتقادات، والانتقادات المضادة، والتفريعات، وجدل المصطلحات، وقضايا الحدود بين التخصصات، والنظريات والاتجاهات اللغوية، لأن هذا له مقامات أخرى. ولا تثريب على هذا التبسيط إذا وجد فيه القارئ كثيراً من التصرف، لأن التصرف بما يضمن وصول الفكرة على حساب الترجمة الحرفية الكاملة هو بعض أدواته. غير أن التصرف لا يضي بحال من الأحوال أن ننسب إلى مؤلف ما لم يقل، إنما يعني أن نقر له بالفضل في ترسيخ الفكرة وتقديم المصطلح وتطوير النظرية أو النموذج، ثم ننطلق منه إلى التعريب والتوضيح والتعميل، وإلى ما يناسب ذلك من نصوص البلاغة العربية ومقولاتها.



## أيها القارئ

"أيها القارئ!

هذه مقالات مختلفة في مواضيع شتى كتبت في أوقات متفاوتة، وفي ظروف وأحوال لا علم لك بها ولا خبر على الأرجح. وقد جمعت الآن وطبعت وهي ثباغ المجموعة منها بعشرة قروش لا أكثر! ولست أدعي لنفسى فيها شيئاً من العمق أو الابتكار أو السداد، ولا أنا أزعجها ستحدث انقلاباً فكرياً في مصر أو فيما هو دونها، ولكنى أقسم أنك تشتري عصارة عقلى وإن كان فجاً، وثمرة إطلاعى وهو واسع، ومجهود أعصابى وهى سقيمة، بابخس الأثمان! وتعال نتحاسب! ... وفى الكتاب عيب هو الوضوح فأعرفه! وستقرؤه بلا نصب، وتلقه بلا عناء ثم يخيل إليك من أجل ذلك أنك كنت تعرف هذا من قبل وأنت لم تزد به علماً! فرجاني إليك أن توقن من الآن أن الأمر ليس كذلك وأن الحال على نقىض ذلك" (إبراهيم عبد القادر المازنى: حصاة الهشيم، المقدمة، ١٩٢٤، القاهرة: طبعة مكتبة الأسرة، ٢٠٠١، ص ٣-٤). هذه مقدمة أخرى طريفة لكن طرفاتها ليست تيريراً شافياً لوجودها هنا. السياقتان مختلفتان - سياق هذا الكتاب وسياق حصاة الهشيم - وكذا قيمة كل من الكتابين وأهدافهما وأسلوبهما. لكن من اللائق أن اعترف بمثل ما اعترف به المازنى في قوله "لست أدعي لنفسى فيها شيئاً من العمق أو الابتكار أو السداد، ولا أنا أزعجها ستحدث انقلاباً فكرياً في مصر أو فيما هو دونها".

أما أن الكتاب "عصارة عقلى... وثمره إطلاعى... ومجهود أعصابى..." فهذا مما لا أستطيع أن أذهب فيه إلى ما ذهب إليه المازنى. هذا التيسيط ثمرة سنوات من التعلم والقراءة والتعلیم. والحال هكذا، فلا بد أن ارد الفضل لأهله من أساتذة ألفت من علمهم تتلمذاً أو قراءة أو استماعاً أو مراسلة، ومن تحاورت معهم من زملاء وأصدقاء وطلاب، ومن لم أشرف بالتعرف إليهم من أساتذة قرأوا ما كتبت فأعانونى على إصلاح كثير مما فيه من عيوب. أما ما بقى بغير إصلاح، فلا تثريب فيه عليهم. ولا تثريب عليهم فيما يضم الكتاب من ترجمات، وكلها لكتابه ما لم يرد غير ذلك فى موضعه.

قد تبدو فصول هذا التيسيط غير مترابطة، لكنها ليست كذلك. إن الفصول التى يضمها هذا الكتاب هى الموضوعات الكبرى فى التداولية، وما يتصل بها من تحليل الخطاب على وجه العموم، وتحليل الخطاب السياسى على وجه الخصوص. يبدأ التيسيط بمسألين: "ما هى التداولية؟" و"كيف تطورت؟" وتشمل هذه البداية الموجزة تعريف التداولية، وترجمتها، ونبذة عن جذورها وخلفياتها. يتبع ذلك الكلام عن السياق، خصوصاً ذلك

التصور الذي قدمه دل هايمز، ثم النحو الوظيفي وأطروحات هاليداي، وتصنيفه وظائف اللغة وأفعالها، ثم المبدأ التعاوني لبول جرايس، وهو الأساس الذي قامت عليه نظريات الكياسة واللباقة، وأمثلة لتوظيفه توظيفاً ذكياً في النشر العربي، ثم التضمن وما يرتبط به من الافتراض المسبق والمعلوم من التلقظ أو الجملة بالضرورة، وجميعها تتصل اتصالاً وثيقاً بهذا المبدأ، وتفسر كثيراً من انتهاكاته لتحقيق غايات بلاغية، ثم نظرية أفعال اللغة في فصل "ماذا نفعل بالكلمات؟"، وهو فصل تأسيسي مهم تنطلق منه جملة مفاهيم تداولية، ثم التأدب والكياسة والنظريات المهمة في هذا الصدد لليكوف ولينش وبراون وليقتسون، ثم الإشارة التي تتجاوز ما نعرف من أسماء الإشارة إلى الإشارة الاجتماعية والخطابية والزمنية والوجدانية، تتبعها نبذة عن التداولية العامة التي طوّرها هايرمانس، وتسعى إلى التوفيق بين النظرية والتطبيق، ثم تحليل الخطاب ولغويات النص، وما يرتبط بهما من دراسة السبك والحبك وشروط النصية، ثم التحليل النقدي للخطاب ومفاهيمه، ومنظفاته، وأدواته، ثم تحليل الخطاب السياسي، وهو امتداد مهم لتحليل الخطاب التقليدي والنقدي. يلي ذلك تعريج على دراسات تحليل الخطاب (السياسي) في العالم العربي. وينتهي الكتاب بمجموعة من النصوص والتطبيقات لبعض ما ورد فيه من أدوات ومفاهيم.

وفي الكتاب عددٌ كبير من الاستطرادات ترد في نهاية كل فصل من فصوله، لعلها لا تبدو نادرة أو مقلّنة، بعضها استطرادات مهمة عن المفاهيم، أو الأدوات، أو الأطروحات التي يتناولها الكتاب، وبعضها أمثلة طريفة في مواضعها، وبعضها إشارات إلى البلاغة العربية بما يناسب المقام، وبعضها اقتباسات مهمة ذات صلة بموضوعات الكتاب، أو تعليقات على ما فيه من مصطلحات، أو على مشكلات ترجمة التداولية في الثقافة العربية.

## ما هي التداولية؟

التداولية لغة من التداول، والتداول تفاعل، وكلُّ تفاعل يلزمه طرفان على أقلّ تقدير: مرسل ومُستقبل، متكلّم وسماع، أو مستمع، كاتب وقرّئ، على معنى أن مدار اشتغال التداولية هو مقاصد وغايات متكلّم، وكيف تبلغ مستمعاً أو متلقياً. وكلُّ تداول تحكمه ظروف وأليات وعوامل تحيط به، لذا فالترجمة لها ما يُبرّرها، وينبؤ أنها قد استقرت بالفعل على حساب "البراجماتية" و"البراغماتيكية"، وهما، بالإضافة إلى "أعجميتهما"، ربما تؤيدان إلى خلط بين المفصود في هذا التبسيط والمدرسة الفلسفية المعروفة بالنتفعية أو الفرانغية Pragmatism (البراجماتية أو البراغمتية)..

أما اصطلاحاً، فالتداولية Pragmatics هي دراسة اللغة قيد الاستعمال أو الاستخدام language in use، بمعنى دراسة اللغة في سياقاتها الواقعية، لا في حدودها المعجمية، أو تراكيبها النحوية. هي دراسة الكلمات والعبارات والجمل كما نستعملها ونفهمها ونقصد بها، في ظروف ومواقف معينة، لا كما نجدها في القواميس والمعاجم، ولا كما تقترح كتب النحو التقليدية. خذ مثلاً كلمة "شكراً". في لسان العرب لابن منظور "الشكْرُ: عرفانُ الإحسان ونشره، وهو الشُّكُورُ أيضاً. قال ثعلب: الشُّكْرُ لا يكون إلا عن يدٍ، والحمدُ يكون عن يدٍ وعن غير يدٍ، فهذا الفرق بينهما. والشُّكْرُ من الله: المجازاة والثناء الجميل، شكره وشكر له يشكُرُ شكراً وشكوراً وشكراً".

وفي استصالاتنا اليومية، تتجاوز الكلمة مجرد العرفان بالإحسان ونشره، فتتأثر عنها معان جديدة، ودلالات تتجاوز حدودها المعجمية الضيقة مهما اتسعت، فربما أوحى بالرفض، أو التهكم، أو الضيق. مثل آخر: ماذا تقول معاجمنا العربية عن "الحرارة"، و"البرودة"، و"البينة"؟ لا بد أن ما يرد فيها (من نكر الحرّ بوصفه نقيص البرد، و"البينة" بوصفها ما يحيط بنا من كائنات وأشياء وظروف) يقصّر عن إبراز كل ما تعني تلك المفردات في سياقاتها الراهنة المتباينة (من قبيل الدماء الحارة، وحرارة

اللقاء، وبرودته، وبرودة المشاعر، والبيئة صفة لكل ما هو حقير في بعض اللهجات العربية المعاصرة) . يصدق هذا على العبارات والجمل والنصوص.

بهذا المعنى، تمثل التداولية، في نشغالها بعلاقة العلامات بمنتجها، ومستقبلها، وسياق إنتاجها، وتلقيها، الضلع الثالث من أضلاع مثلث علم العلامات وفق توصيف موريس Morris (١٩٣٨)، أما الضلعان الأول والثاني فهما النحو Grammar وعلم الدلالة Semantics. ينشغل النحو بعلاقة العلامات بعضها ببعض، أي علاقة المفردات، والأنوات، والروابط في العبارة، والجملة، والنص، أي ببناء الجملة والعبارة، والعلاقات التي تربط بين مكوناتها. أما علم المعنى أو الدلالة فيتناول علاقة العلامات بما تشير إليه، سواء كانت أشياء، أو كائنات، أو تصورات.

على سبيل التبسيط، نتوقف عند مثال واحد، وهو كلمة "عسل". من وجهة نظر نحوية يلتفتنا أفراد هذه الكلمة ودخولها في علاقات بنائية، كالصفة في علاقتها بالموصوف، والتعريف والإضافة، في عبارات وجمل من قبيل "عسل طيب"، و"عسل النحل"، و"العسل فيه شفاء للناس". من ناحية المعنى، تُحيل المفردة إلى مادة نعرفها، وإلى ما يرتبط بها من الصفاء والشفاء، أما من ناحية التداولية، فتكتسب المفردة دلالات متباينة، وربما متناقضة، في سياقات مختلفة، وإغراض شتى، كالمدح، والوصف، والغزل، وربما التهكم.

يصدق هذا - على ما فيه من تبسيط - على سائر المفردات والعلامات، وقد كان من أثر تطور علم العلامات - وهو يستحق تبسيطاً منفرداً ومعالجة وافية - أن تجاوزت أضلاع المثلث الثلاثة - النحو وعلم الدلالة والتداولية - حدود اللغة التقليدية الضيقة، إلى رحابة العلامات، على معنى أن للصورة أبعادها التركيبية والدلالية والتداولية، واللون، والحركة، والرائحة، وللإيماء، ولغير ذلك من صنوف العلامات، ولها ما للمفردات من معانٍ قريبة، وأخرى بعيدة، وفيها ما فيها من تشبيهات واستعارات. وسوف نجد طرفاً من ذلك في هذا التبسيط.

## كيف تطوّرت؟

تطوّرت التداوليّة ضمن مجموعة من المقاربات اللغوية، من بينها تحليل الحوار Conversation Analysis، وتحليل النص Text Analysis، وتحليل الكلام / الخطاب Discourse Analysis، بوصفها امتداداً طبيعياً لأطروحات النحو الوظيفي Functional Grammar التي طوّرها هاليداي (١٩٨٥)، كما ترد الإشارة إلى ذلك لاحقاً، ومنها أنّ المعنى ليس فيما يقول الثّاق، ولا ما تقول المعاجم، على ما لكليهما من أهمية، ولا في العمليات المعرفية المجردة من سياقاتها، لكن فيما يقصد من يستخدم اللغة وما يريد، وفيما يفهم من يتلقاها - استماعاً أو قراءة - وفيما ينتج من دلالات من خلال ظروف السياق.

وقد أصبح السياق، وهو موضوع الفصل التالي من هذا الكتاب، مفهوماً مركزياً في كل الاتجاهات الوظيفية، بما في ذلك التداوليّة، وكان لتصور دل هايمز عن عناصر السياق أصداؤه الواسعة التي نطلّ تتردّد حتى اليوم. ومن مقنّعات التداوليّة كذلك نظرية أفعال اللغة/ الكلام كما طوّرها جون أوستن وجون سيرل، والمبدأ التعاوني ومفهوم التضمين عند بول جرايس. حتى إذا استوت التداوليّة وتحليل الخطاب (مترافقين، أو متمايزين، أو متداخلين) على سوقهما، نشأت الحاجة إلى منظور نقدي سياسي، فكان التحليل النقدي للخطاب، وتحليل الخطاب السياسي.

## السياق

### ما البلاغة؟

"قيل للفارسي: ما البلاغة؟ قال: معرفة الفصل من الوصل، وقيل لليوناني: ما البلاغة؟ قال: تصحيح الأقسام، واختيار الكلام، وقيل للرومي: ما البلاغة؟ قال: حسن الانتصاب عند البداهة، والغزرة يوم الإطالة، وقيل للهندي: ما البلاغة؟ قال: وضوح الدلالة، وانتهاز الفرصة، وحسن الإشارة، وقال بعض أهل الهند: جماع البلاغة البصر بالخجة، والمعرفة بمواضع الفرصة، ثم قال: ومن البصر بالخجة، والمعرفة بمواضع الفرصة، أن تدع الإفصاح بها إلى الكناية عنها، إذا كان الإفصاح أوعز طريقة، وربما كان الإضراب عنها صلفاً أبلغ في الترك، وأحق بالظفر، قال: وقال مرة: جماع البلاغة التماس حسن الموقع، والمعرفة بساعات القول، وقلة الخرق بما التمس من المعنى أو غرض، وبما شرد عليك من اللفظ أو تعزراً (الجاحظ: البيان والتبيين، ص ٢٧. من موقع الوراق).

في مربع النص المرفق بعض ما ورد في البلاغة العربية عن "المقام" - وهو ما يقابل مفهوم **speech** **situation** في المقاربات الغربية - عند الجاحظ، من الكتابات تؤكد على تحسين الفرصة المتاحة والظروف المناسبة لإجاز المهام البلاغية التواصلية، ومن كلامه عن بلاغة الإقناع، وعند الجرجاني، في ربطه العبارة بالمقاصد في دراسته النظم والإعجاز، وغيرهما.

في الغرب، كان لمقولات دل هايمز Hymes (١٩٧٢) عن الكفاءة التواصلية **Communicative Competence** - التي تتجاوز مجرد الكفاءة النحوية والصرفية والصوتية وفهم المفردات المجردة،

إلى فهم الموقف والسياق، واختيار المفردة المناسبة في المكان المناسب، إذا جاز التعبير، وما إلى ذلك - تأثيرها البالغ في تطور التداولية اللغوية، ومن أطروحات هايمز المهمة كلامه عن السياق، وما يندرج تحته من عوامل ومتغيرات لخصها في كلمة **SPEAKING** (١٩٧٤، ص ٥٤-٥٧). فيما يلي بيان وتوضيح معناها،

مع استطرادات مُضافة، وسوف تتردّد هذه العناصر والمكونات في كل ما يلي من أجزاء هذا التبسيط:

§ المكان والزمان Setting - ما يُقال في البيت ربّما لا يجوز أن يُقال في المسجد أو الجامعة، وما يمكن أن نقبله في توقّيت بعينه ربّما لا نقبله في غيره.

§ المشاركون Participants - من يتحدث إلى من؟ وعن؟ وفي حضور من؟ وما العلاقة التي تربط أطراف الحوار أو الخطاب؟ بنوّة، أم صداقة، أم زمالة، أم زواج، أم عداوة، أم تتلمذ، أم غير ذلك - كلها متغيّرات مهمة تشكّل اللغة، وتؤثر في اختيارات من يستخدمها على مستوى المفردات، والتركييب، والصيغ. غير أن ما ينبغي أن يركّز عليه التناول هو علاقات التقارب والتباعد التي تصل أو تفصل بين المشاركين. وهذا جانب من التحليل وجد عناية خاصة من نقاد التداوليّة التقليدية فيما بعد.

§ الغايات والأهداف Ends - لماذا نتكلم، أو نتحاور، أو نكتب؟ ربّما يفرض الإقناع، أو الإخبار، أو الإيهام، أو الكذب، أو الخداع، أو الترغيب، أو الترهيب، أو النصح، أو التحذير، أو التعليم، أو التهذيب، أو التجميل، أو التشويه، أو المدح، أو الذم، أو غير ذلك. في البلاغة العربية فصول ناصعة عن الأغراض الشعرية، من وصف، وغزل، وتشبيب، ورثاء، وهجاء، وفخر، وهكذا، ولا بدّ أن من طالع بعض هذه الفصول قد وقف على تأثير الغرض الشعري في المفردات، والصياغة، والإقناع. على أن دراسة غرض الخطاب لا ينبغي أن تقتصر على النصوص الشعرية، ولا اللغوية، بل يجب أن تتجاوز ذلك إلى كلّ ما يُنتج دلالة، لآله ينتجها لتحقيق غاية.

§ تتابع وحدات النص / الخطاب، وترابطها Act Sequence - كلّ خطاب يقع بين خطابين: سابق ولاحق، ويرتبط بهما، فربّما تروي طرفة تعقيباً على بعض ما يقول محدثك، وربّما تذكره بأية من القرآن الكريم، أو حديث شريف، وربّما يعقب الاعتذار القبول، أو الإعراض، ويعقب التهنة الشكر. وفي الرسالة تحية، وسلام، فسؤال عن الحال والمال، ثم الوفاء بفرض الرسالة، فالأمنيات الطيبة، والسلام.

§ الجو النفسي ونغمة الحوار / النص Key. يتجاوز مفهوم النغمة في هذا السياق مجرد الحزن أو البهجة، إلى غير ذلك من سخرية، أو تهكم، أو جدية، أو وقار، أو فكاهة. ولا بُدُّ أننا لاحظنا أن الحدود التي تفصل بين الجو النفسي وغموض النص واهية، لا تكاد تبيّن في غالب الأحوال، فلا بُدُّ أن يشتمل الهجاء على شيء من التهكم، والبكاء على الأطلال على حزن وفجيرة.

§ آليات تحقيق الغايات البلاغية والخطابية Instrumentalities ووسائلها وأدواتها - من مفردات مختارة بعناية، وتركيب ملائمة، وصور وتعبير، وتوظيف لصنوف الاتصال غير اللفظي. لا حصر لما يمكن أن يستخدم المتكلم أو الكاتب من أدوات لتحقيق غاياته البلاغية والتواصلية.

§ القواعد التي تحكم إنتاج النص / الخطاب وتلقيه Norms من قواعد لغوية خطابية تتسجم مع جنس الخطاب وغاياته، وقواعد اجتماعية تنظم استخدام اللغة وإنتاج الخطاب عموماً، وقواعد تقنية تتسجم مع الوسيلة التي ينتقل من خلالها الخطاب.

§ الجنس/النوع الخطابي الذي ينتمي إليه النص / الخطاب Genre (من اللازم في هذه المرحلة من نضج التداولية وتحليل الخطاب أن نتخلى عن مفهوم الجنس الأدبي، ما نعنا لا نتحدث عن الأدب، لصالح المصطلح الأرحب، وهو الجنس أو النوع الخطابي). تفرض أجناس الخطاب المتباينة قيوداً مختلفة على إنتاجه. حين نقرأ تقريراً إخبارياً عن مباراة في كرة القدم، نتوقع أن نجد استعادة لما جرى في شوطيها، وما حفلت به، أو لم تحفل به، من أهداف، وأحداث أخرى مؤثرة، ونتوقع أن نعرف أسماء اللاعبين، وطاقم التحكيم، وزمان المباراة، ومكانها، وما إلى ذلك. نتوقع كذلك سرداً في صيغة الماضي، وأفعال حركة، وتحول، واستعارات "حربية"، وطرقات سبك وحبك تحيل إلى الزمان من بداية المباراة حتى نهايتها.

ومن الكلام عن السياق ما ورد عن مالبينوسكي ومن بعده روجر فولر Fowler (1986) من تصنيفه إلى سياق الجملة أو العبارة (السياق اللغوي) context of



utterance، وسياق الموقف context of situation، وسياق الثقافة context of culture، وهو تصنيف ينتقل من الضيق إلى السعة - من سياق الكلمات والتراكيب، إلى ما يحيط بها من ظروف الزمان والمكان، والظروف الاجتماعية، والعلاقات بين المشاركين في الخطاب، إلى الثقافة التي يُتخَّج فيها الخطاب، وما تشتمل عليه من قيم، ومعتقدات، وعادات وتقاليد، وطقوس وشعائر، وأساطير، وغير ذلك.

# 1

شان داك (٢٠٠٨)

مقدمة عن السياق

قبل ثلاثين عاماً، ألفت كتاباً بعنوان (النص والسياق) تناولت فيه مفهوم النص تناولاً شاملاً جداً مسهباً، لكن السياق - وبما له من أهمية بالغة في فهم الجذور الاجتماعية للخطاب - لم يحظ بنفس هذا التناول في الكتاب. فيما أعقب ذلك من دراسات في مجال التحليل النقدي للخطاب - على سبيل المثال في دراستي عن العنصرية والأيدولوجيا والخطاب - تناولت السياق بتوسع وإسهاب بوصفه خلفية اجتماعية للخطاب، غير أنني لم أتناوله من الناحية النظرية.

لقد درج تناول السياق في دراسة اللغة والخطاب بالنظر إلى عدد من المتغيرات الاجتماعية المستقلة، كالنوع والطبقة الاجتماعية والخلفية العرقية والسن والهوية، أو الظروف الاجتماعية التي تحيط بالخطاب نصاً كان أم كلاماً. في دراسات الإشارة indexicality سواء من جوانبها الشكلية التحوية أم من زاوية بيناتها الاجتماعية، يرد تعريف السياق دلالياً بمعنى ما يُشار إليه أو ما تحيل إليه التعبيرات

الإشارية. لكن يبقى هذا التعريف قاصراً ومحدوداً بالإشارة إلى الزمان والمكان. فسي نظرية أفعال الكلام (اللغة) **Speech Act Theory** تفصيل بعض سمات من يتكلم ومن يسمع أو يستمع - من خلفياتهما المعرفية ورغباتهما ومكاتب كل منهما الاجتماعية - تفصيل يسعى إلى صياغة أشراف المعالجة وضرورتها، لكن النظرية في نسخها المتعاقبة لم تسع إلى تحليل هذه الأشراف والضرورات السياقية تحليلاً منهجياً رصيناً.

في التحليل النقدي للخطاب **Critical Discourse Analysis**، تحظى الظروف الاجتماعية التي تحيط بالخطاب باهتمام كبير، خصوصاً ما يتصل منها بالقوة (أو السلطة) **Power** وسوء استخدامها، لكن هذا الاتجاه فشل أيضاً في تطوير نظريات واضحة المعالم للسياق تعينه على ترسيخ مشروع النقد. إن القوة لا تتبدى في بعض أبعاد "خطاب الأقوياء" فحسب، بل تبقى الحاجة إلى فهم سياقها الواسع المركب حتى تتجلى علاقتها بالخطاب نصاً كان أم كلاماً وحتى نلهم كيف يُعيد الخطاب إنتاج البنى والأساق والعلاقات الاجتماعية.

وقد تطورت الدراسات النفسية المعرفية للخطاب وكذا دراسات الذكاء الاصطناعي تطوراً ملموساً في العقود الأخيرة فيما يتصل بالتحرف على العمليات والتمثلات الذهنية التي يشتمل عليها إنتاج الخطاب وتلقيه. ألقى هذا التطور الكثير من الأضواء على الدور الجوهرى المهم للنماذج الذهنية والمعرفية فيما يتعلق بمعالجة الخطاب وتداوله. غير أن هذه النماذج ظلت دلالية في جملتها على حساب الجوانب التداولية. وبإستثناء عدد من الدراسات التجريبية التي تناولت الفروق الفردية والاختلاف المقاصد والأهداف، لم يحظ أثر السياق في معالجة الخطاب بما يستحق من دراسة عملية منهجية منتظمة.

لما علم النفس الاجتماعي فهو من بين فروع المعرفة القليلة التي طوّرت وقسمت أفكاراً عن بنية المواقف والوقائع والأحداث الاجتماعية من الممكن أن تكون أساس نظرية سياقية، غير أن هذه الأفكار لم يكن يقصد بها سياق الخطاب. في الحقيقة يبقى

الانشغال بدراسة الخطاب هامشياً في علم النفس الاجتماعي إجمالاً، إلا في التحليل النفسي للخطاب أو "علم نفس الخطاب" إذا جاز التعبير، Discursive Psychology و إذا كان لأي من فروع المعرفة أن يلقى الضوء على طبيعة السياق وأثره في الخطاب، فلعلم الاجتماع أن يفعل ذلك، لكن المفارقة هي أن التأثير المهم لعلم الاجتماع في دراسة وتحليل الخطاب قد ذهب إلى تحليل المحادثة أو الحوار conversation analysis الذي ظل - على الأكل في بداياته - مَجْتَمًا من سياقه أكثر من تحليل الخطاب، يركز على بنية التفاعلات اللغوية وتنظيمها على حساب زمتها ومكانها وسمات المشاركين فيها. غير أن علينا أن نتوقف هنا عند المحاولات المتناثرة في عقود سابقة لتحديد وتعريف المواقف الاجتماعية social situations في علم الاجتماع والتي بلغت نضجها في كتابات إرفنج جوفمان Goffman - ولعله أكثر علماء الاجتماع إسهاماً في إلقاء الضوء على أثر الموقف الاجتماعي في الكلام والتفاعلات اللغوية.

غير أن الأنثروبولوجيا، خصوصاً دراسة بينات الكلام ethnography of speaking والأنثروبولوجيا اللغوية، هي الوحيدة من بين الاتجاهات البحثية التي تشغل باللغة التي اهتمت اهتماماً واضحاً لعقود عدة بدراسة السياق بوصفه مكوناً جوهرياً من مكونات "الوقائع أو الأحداث التواصلية"، بداية من طرح دل هايمز Hymes تصوّره عن تلك المكونات والذي اختزله في كلمة SPEAKING في ستينيات القرن الماضي. يتصل بذلك ما قام به جون جومبيرز Gumperz من دراسات إثنوجرافية وما أجرى غيره من دراسات في علم اللغة الاجتماعي التفاعلي Interactional Sociolinguistics تتناول تحليل اللغة في سياقاتها الاجتماعية contextualization. وحتى يومنا هذا، يظلُّ هذان الفرعان من الأنثروبولوجيا منفردين فيما يُنشر من دراسات وكتب عن السياق ووضع اللغة في سياقاتها الاجتماعية.

من خلال ما سبق من عرض موجز، نستطيع أن نخلص إلى أن هناك اهتماماً متزايداً بدراسة السياق في كل فروع المعرفة في الإنسانيات والعلوم الاجتماعية، غير أن هذا الاهتمام ما زال يعوزه التركيز. هناك آلاف من الكتب في غير فرع من فروع المعرفة تجد في عناوينها كلمة "السياق" context لكن في جُلّ هذه الكتب تفتقد المفردة الصرامة الدلالية، فتشير إلى "البيئة" أو "الموقف" أو "الخلفية" أو "الظروف" الاجتماعية أو السياسية أو الجغرافية أو الاقتصادية، ويندر أن ترد بمعناها المحدد وهو "سياق النص أو الكلام".

وهناك عدد لا بأس به من الكتب في اللغويات ودراسات الخطاب والعلوم الاجتماعية يرد فيها السياق بوصفه مجموعة من القيود التي تحيط بالخطاب وتحدد نتائجه ونوابه، غير أن هذه الدراسات تركز في جملتها على الخطاب ذاته، لا على سياقاته المعقدة المتشابكة. ليس هذا بمستغرب لأن مفهوم السياق لا يمكن أن يتجلى إلا بالنسبة إلى النص، على معنى أن النص - أو الكلام - هو الظاهرة المحورية وبؤرة الاهتمام. أما السياق فتكمن أهميته في إلقاء مزيد من الضوء على الخطاب وتيسير تحليله وفهمه. وإذا لم يؤد السياق هذا الدور، فإن دراسته المجردة تنتمي إلى علم النفس أو علم الاجتماع أو الأنثروبولوجيا في دراستها الزمان والمكان والفاعلين في المجتمع وسماتهم المميزة وكذا مداركهم ونشاطاتهم وتفاعلاتهم وممارساتهم وتنظيماتهم الاجتماعية.

لقد أن الأوان لأخذ السياق مأخذ الجد ولصياغة نظريات واضحة المعالم عن السياق والطرائق التي يرتبط بها بالخطاب والتواصل. هذا الكتاب، وكذلك كتاب (المجتمع والخطاب) (van Dijk, 2008) الذي يتناول دراسة السياق في العلوم الاجتماعية، محاولة لصياغة نظرية يصدق عليها ما سبق من وصف. في سبيل هذه الغاية، يتناول هذا الكتاب بالدراسة مفهوم السياق واستخدامه وما يمكن أن يندرج تحته من عناصر في اللغويات وعلم اللغة الاجتماعي وعلم النفس المعرفي. أما كتاب (المجتمع والخطاب) فينتقل بهذا التناول النظري إلى علم النفس الاجتماعي وعلم الاجتماع

والأنثروبولوجيا، وسوف ترد إشارات إلى بعض الدراسات في هذه العلوم في غير موضع من هذا الكتاب. ورغم أن الكتابين متصلان لا سبيل إلى فصلهما، يظل كل منهما دراسة مستقلة بذاتها حيث يخاطب هذا الكتاب المهتمين باللغويات وعلم اللغة الاجتماعي وعلم النفس المعرفي، بينما يخاطب الآخر المهتمين بعلم النفس الاجتماعي وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا والعلوم السياسية. ولعني أرجو أن يتمكن من يقرأ كتابي هذا من قراءة قرينه الذي يتناول السياق في العلوم الاجتماعية لما بين الكتابين من وثيق الصلة ولما بين السياقات الاجتماعية للخطاب من ناحية ودراسة المواقف والتفاعلات التواصلية في العلوم الاجتماعية من الناحية الأخرى من علق وصلات.

و لأن هذا الكتاب هو أول دراسة مستقلة تجعل من مفهوم السياق شغلها الشاغل، فلا بد أن تقرأ بوصفها دراسة استكشافية. وهي دراسة نظرية تستلهم أفكاراً وتطورات ذات صلة في اللغويات وعلم اللغة الاجتماعي وعلم النفس المعرفي، وتراجع عدداً كبيراً من الأبحاث التطبيقية، لكنها لا تقدم جديداً فيما يتصل بدراسة السياق في بيئات الكلام والتواصل. عوضاً عن ذلك، يوضح الكتاب النظرية التي يبورها من خلال تناوله أحد أكثر الخطابات المعاصرة تأثيراً وأهمية وهو الجدل الذي دار حول العراق في مجلس العموم البريطاني. لقد تقدم توني بلير في خطابه ضمن هذا الموضوع بطلب يجيز الحرب على العراق - وهي الحرب التي عاينا جميعاً عواقبها الوخيمة - ودافع عن طلبه.

في خطاب بلير وفيما تلاه من كلمات ألقاها أعضاء البرلمان البريطاني أمثلة تثبت أن أية مقارنة مجردة الخطاب أو الحوار من سياقاتهما نقل مقارنة قاصرة وربما ينتج عنها مجرد توصيفات سطحية شكلية، وربما سانحة، لا تفسى الخطاب أو الحوار حقهما من التحليل، ذلك لأن الخطاب وما أعقبه من كلمات لا يمكن اجتنابهما من الواقع الاجتماعي والسياسي الذي أحاط بهما. ولأن من البديهي أن كل شيء يمكن أن يكون له صلة بالخطاب عموماً - على الأقل تلك الموضوعات التي نتكلم عنها أو فيها وما لا حصر له من المقامات والمواقف التي نتكلم أو نكتب أو نستمع أو نقرأ فيها - فإن نظرية السياق بتهددها خطر جسيم هو أن تنتهي إلى نظرية بلا معالم

محددة، "نظرية عن كل شيء". لذا فمن الأهمية بمكان أن نحدد مجال النظرية وأن ن فصلها عما يحيط بها من ظواهر اجتماعية. وليس من قبيل المبالغة أن نقول إن خطاب توني بليير ينبغي أن يقرأ لا بوصفه مجرد خطاب رئيس وزراء يتوجه به إلى أعضاء البرلمان - وإلى الأمة البريطانية وإلى العالم - في سياق النقاشات البرلمانية التي جرت في مجلس العموم البريطاني يوم الثامن عشر من مارس، ٢٠٠٣، بل بوصفه كذلك جزءاً لا يتجزأ من سياسة المملكة المتحدة الخارجية وعلاقتها بالولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي ومن موقفيها من قضية الشرق الأوسط، وما إلى ذلك.

إذا شئنا ألا نضيع في متاهة السياقات التي لا نهاية لها، فلا بد أن نقنع بأن ليس كل ما نراه "خلفية" للخطاب جزءاً من سياقه بالضرورة، طالما أننا نلتزم الصرامة في تعريف مصطلح السياق على المستوى النظري. إن بلورة وتطوير نظرية عن السياق تعني أول ما تعني اختيار تلك العناصر التي يتكون منها الموقف التواصلية وتتصل اتصالاً وثيقاً بما يشتمل عليه من نص أو كلام. يستلزم هذا أن نتعرف بداية على مفهوم الموقف التواصلية في اللغويات وعلم اللغة الاجتماعي وعلم النفس المعرفي وكذا الاجتماعي وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا، ثم نتوصل إلى معايير تحدد ما تشتمل عليه نظرية السياق وما لا تشتمل. هذا الكتاب ليس دراسة استكشافية أولية أو مراجعة لعدد كبير من الدراسات السابقة فحسب، بل يضيف إلى تلك طرح مقولة نظرية ربما تبدو من قبيل الكلام المعاد، على الأقل بالنسبة لعلماء النفس وبعض علماء الاجتماع القدامى الذين اهتموا برصد الظواهر الاجتماعية المادية والسلوكيات الواعية، لكنها تبقى غير واضحة في كثير من العلوم الاجتماعية وكثير من الاتجاهات التي تهتم بالخطاب والتواصل اليوم. أما المقولة فبسيطة، لكنها بالغة الأهمية في فهم ماهية السياق وطبيعته وعلاقته بالخطاب:

"ليس ما يؤثر في الخطاب أو يتأثر به هو الموقف الاجتماعي، بل رؤية المشاركين في الخطاب هذا الموقف وإدراكهم إياد".

ليست السياقات إذن مجموعة من العلل المباشرة التي تبرز الخطاب ولا من الظروف الموضوعية المجردة، بل هي مجموعة من التصورات الذاتية الشخصية التي تتشكل وتتغير باستمرار أثناء التفاعل بين المشاركين في الخطاب بوصفهم أفراداً ينتمون إلى جماعات ومجتمعات. أية ذلك أننا إذا سلمنا بأن السياقات هي مجموعة من الظروف والقيود الاجتماعية الموضوعية المجردة، فلا بد أن نتوقع ممن يقفون الموقف الاجتماعي نفسه أن يتكلموا بنفس الطريقة والأسلوب. لذا ينبغي أن تتجاوز نظرية السياق الوضعية الاجتماعية والواقعية والحنمية فسي أن، فالسياقات ما هي إلا تصورات المشاركين في الخطاب. لهذا السبب أيضا تبقى الفرضية الأساسية لنظرية السياق فرضية اجتماعية معرفية وببقي المنظور الذي يتأسس عليه هذا الكتاب منظورا اجتماعيا معرفيا في دراسة السياق في إطار مقارنة بين نوعية، عبر تخصصية شاملة.

تفسر مقولة السياقات بوصفها تصورات ذاتية للمشاركين في الخطاب كذلك تمايز النصوص وتفرداها وتمايز أجزائها مكتوبة كانت أم منطوقة، وتفسر كذلك الأرضية المشتركة والتمثيلات الاجتماعية المتجانسة للمشاركين في الخطاب عندما يلبسون من خلالها تصورهم الموقف الاجتماعي الذي تطلق عليه السياق على سبيل الاصطلاح. وسوف نرى أن في علم النفس مفهوما نظريا مقيدا يضع النظرية على أساس معرفي متين، ألا وهو مفهوم النموذج الذهني. لذا سوف نستبدل بمفهوم السياقات، بوصفها تفسيرات ذاتية للمواقف التواصلية، مفهوم نماذج السياق.

أما ما تفعل هذه النماذج وما يجب عليها أن تفعل فيياته فيما يلي:

- § تؤثر في إنتاج الخطاب وتلقيه من قبل المشاركين فيه.
- § تتيح للمشاركين في الخطاب تطويعه بما يناسب الموقف التواصلية ويناسب ظروفهم أثناء التفاعل أو التواصل.
- § تضع الحلقة المفقودة المهمة في النظرية المعرفية للنص، بين النماذج الذهنية للأحداث موضع الخطاب أو الإشارة وبين صورة الخطاب وطريقة صياغته في الواقع.

§ تحدد ظروف الملازمة والمناسبة للخطاب ومن ثم تصبح أساساً للنظرية التداولية عموماً.

§ تضع أساس نظرية الأسلوب والنوع الخطابي ومستوى اللغة وكل ما يقع في الخطاب من تنوع وتباين.

§ تمثل الحلقة المفقودة بين الخطاب والمجتمع، بين الشخصي والاجتماعي، بين المعنى والمعنى، وهي لذلك تتيح تناول إشكالية البنى الصفري والبنى الكبرى بما يربط الصدى بينهما بنفس الطريقة على الأقل فيما يتعلق باللغة والتواصل.

§ يمكن صياغتها في اللغويات التقليدية والنحو والقواعد الشكلية المجردة بما يتجاوز الأبعاد الدلالية للتعبير الإشارية - وقد تبلورت هذه الصياغة لكن على استحياء.

§ تضمن استمرار البحث اللغوي الاجتماعي في تجاوزه دراسة الترابط بين الخطاب والمتغيرات الاجتماعية، وفي اهتمامه بأثر العوامل الاجتماعية على التركيب والأنساق الخطابية.

§ تجلّى بعض أفكار ومفاهيم علم الاجتماع التقليدية التي لم تفقد أهميتها ومن ذلك تعريفه الموقف، الذي يبقى صالحاً للتطبيق في تحليل التفاعلات اللغوية والحوارات أو المحادثات.

§ تبين كيف يمكن للسياق أن يتحكم في أبعاد الخطاب نصاً كان أم كلاماً، تلك الأبعاد التي تستعص على الملاحظة لكن تبقى فاعلة مؤثرة.

§ تسهم في إعادة صياغة بعض الأطر النظرية التقليدية في الأنثروبولوجيا فيما يتصل بدراسة الوقائع التواصلية.

§ كما يتضح من خلال التحليل السياقي النقدي لخطاب تونى بلير وما أعقبه من مداخلات في موضوع العراق، يظل الوصف المنهجي المنضبط للسياق أساساً من الأسس التي تقوم عليها دراسات الخطاب النقدية وغيرها من الاتجاهات الاجتماعية السياسية في تحليل الخطاب.



ولأنّ النظرية ما زالت في طور التشكل، لم تكتمل صياغتها بعد، فإتني أرجو من هذا الكتاب أن يكون دعوة إلى مزيد من الدراسات والأبحاث، فالكتاب يتناول عددا كبيرا من القضايا التي تنتظر مزيدا من البلورة النظرية والدراسات التجريبية النفسية والوصف الإثنوجرافي الذي يهتم ببيئات الخطاب وكذا مزيدا من التحليل الموسع للخطاب. إن تأثير السياق عادة ما يكون عسيفا وغير مباشر ومعقدا ومربكا وربما يلم به التناقص، تتجاوز عواقبه الأثر التقليدية للمتغيرات الاجتماعية المستقلة. إن السياق يشبه غيره من الخبرات والتجارب الإنسانية، ففي كل لحظة وفي كل موقف يحدد السياق كما تحدد تلك الخبرات والتجارب كيف نرى الموقف الراهن وكيف نتصرف إزاءه أو فيه. لذا فإنّ من أوجب واجبات العلوم الإنسانية والاجتماعية عموما ودراسات الخطاب خصوصا أن تقف على تأثير السياقات المختلفة في الخطاب نصا كان أم كلاما، وكذا على تأثيره فيها.

لقد بذلت من الجهد المضني لسنتين عدة في تأليف هذا الكتاب وكتاب (المجتمع والخطاب) أكثر مما بذلت في أي مما سبق من كتبتي. ومع أنّ صياغة نظرية، وما يتصل بذلك من تحليل بعض الأمثال الطريفة، فيه ما فيه من متعة، فربما يقع من بطور النظرية ومن يحلل فريسة اليأس لما في القضايا والأسئلة التي تطرحها من تعقيد، نك لأنّ صياغة نظرية عامة عن السياق وعلاقته بالخطاب لا ينبغي أن تتوقف عند مجرد الدراسة المركزة الدقيقة للضمانر أو تبادل أطراف الحوار أو الاستعارة، على سبيل التمثيل لا الحصر، مع أنّ في كلّ منها ما فيه من تفرعات وتعقيدات. إنّ صياغة نظرية سياقية تستلزم أن تؤخذ كلّ أبعاد المواقف الاجتماعية وجوانبها وكذا كل المتغيرات البنائية في الخطاب واللغة المتداولة بعين الاعتبار. لا غرابة، إنّ، في أنني قضيت سنتين عدة حتى ألبم بالقضايا والإشكاليات الأساسية التي تشتمل عليها النظرية. ولا عجب أنّ هذه الدراسة، على ما ألزمت به نفسي فيها من حدود، قد أخذت تربو وتكبر حتى خرجت في صورتها الراهنة في كتابين منفصلين متصلين.

وما زال يراودني ذلك الشعور المؤرق أنني، على ما كتبت وأتفقت، لم أجاوز بعد سطح الأشياء، وهو نفس الشعور الذي خالط فهمي الخطاب وتصوري إياه عندما انتهيت من تأليف كتاب (النص والسياق) منذ ثلاثين عاماً.

ولعل هذا الكتاب وقرينه الذي أشرت إليه فيما سبق، على ما فيهما من قصور وعيوب، أن يستفزا آخرين فيقبلوا التحدي ويأخذوا على عواتقهم تطوير دراسات السياق بوصفها مجالاً مهماً من مجالات دراسات الخطاب في كل فروع المعرفة الإنسانية والاجتماعية.

يبقى أن أرحب، كما دأبت، بكل الاقتراحات والتعليقات النقدية على هذا الكتاب.

## § هوامش على مقدمة فان داك عن السياق

(١) لكتاب Text and Context ترجمة إلى العربية بعنوان (النص والسياق): استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي)، ترجمة عبد القادر قننسي، الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، ٢٠٠٠.

(٢) في الأصل: "دراسات الخطاب النقدية" critical discourse studies وهو المصطلح الذي اقترحه المؤلف بدلاً أكثر شمولاً من مصطلح "التحليل النقدي للخطاب" critical discourse analysis.

- (٣) التحليل النفسي للخطاب هو أحد فروع تحليل الخطاب، يركز على ما فيه من قضايا نفسية كما نجد في كتابات جوناثان بوتنر (Potter, 1996a, b)
- (٤) ورد فيما سبق بيان وتوضيح ما يشير إليه كل حرف من حروف كلمة SPEAKING وفق شرح دل هايمز (Hymes, 1974: 54-57).
- (٥) ليس هناك ما يبرر العنت في ترجمة contextualization بحثاً عن مفردة واحدة تقابل المصطلح الإنجليزي من قبيل التسييق والمسابقة وليس هناك ما يعيب ترجمة المصطلح إلى عبارة عربية، وذلك لاختلاف طبيعة العربية عن طبيعة الإنجليزية، من قبيل "وضع اللغة في سياقها" أو "تحليل الخطاب في سياقه"، فالمصطلح الإنجليزي نفسه يشتمل على جذر واحد وسابقة وثلاث لواحق.
- (٦) يعبر عن العلاقة الوثيقة بين النص والسياق اشتقاق الثنائي context من الأول text في اللغة الإنجليزية بإضافة con التي تفيد المصاحبة والإحاطة. لا تبدو هذه العلاقة جلية بين المفردتين العربيتين "النص" و"السياق"، لكن هناك ما يشير إليها في الجئاس بين المصطلحين البلاغيين العربيين "المقال" و"المقام".
- (٧) الملازمة أو المناسبة هي بعض ما تشتمل عليه المقولة البلاغية العربية "لكل مقام مقال ولكل حادثة حديث" - وليس هذا "مقام" الإسهاب في موضوع المقام في البلاغة العربية، لكن ربما ترد إشارات إليه في غير موضع من التبسيط.
- (٨) في الأصل agency أما ترجمتها إلى "المعنى" فلغاية جمالية إيقاعية في المقام الأول، حيث تتسجم مع المبنى في عبارة المعنى والمبنى، على أن للترجمة مبرر آخر، فالفعل والفاعلية في النحو الوظيفي هما جوهر المعنى في الجملة.

# 1

## من ضرورات التلقي

"في يوم الثلاثاء الثامن عشر من مارس عام ٢٠٠٣، ألقى رئيس الوزراء البريطاني توني بلير خطاباً في مجلس العموم تكذّم فيه بطلب يجيز تتخلأ عسكرياً بريطانيا في العراق، "بسبب استمرارها في رفض الانصياع لقرارات مجلس الأمن". وبعد أن قرأ طلبه، استهلّ خطابه بقوله:

بلير: "في البداية أقول لقد أحسن المجلس صنعا بمناقشة هذه القضية ومن ثم إصدار قراره بشأنها. هذه هي الديمقراطية التي نستحقها والتي يجاهد غيرنا لتحقيقها دون جدوى. وككرر أنني لا أستهيّن بأراء من يعارضونني. نحن إزاء اختيار صعب في واقع الأمر - خياران أحلاهما مر: أن نعلق عملياتنا العسكرية هناك ثم تعود القوات البريطانية فراجها أو أن نثبت على موقفنا ونكمل الطريق الذي بدأناه. إنني أعتقد مخلصاً أننا يجب أن نواصل مسيرتنا. إن السؤال الذي يطرحه كثيرون عادة هو: من أين تكتسب القضية كل هذه الأهمية الكبيرة - لا يسألون لماذا هي مسألة مهمة. ها نحن أولاء وها هي حكومتنا تواجه اختباراً صعباً يهدد الأغلبية فيها وينذر باستقالة مجلس الوزراء على خلفية سياسات الحكومة، وها هي الأحزاب الكبرى تنقسم وهي التي طالما اتفقت في كل الأمور"

الأعضاء: "الأحزاب الكبرى؟"

بلير: "نعم، بالطبع أعني أيضاً الديمقراطيين الليبراليين الذين ظلوا على وحدتهم في انتهازهم الفرص المتاحة وفي أخطائهم".

## (مقاطعة)

حتى يتمكن الحضور من أعضاء البرلمان وحتى يتمكن - نحن القراء والمحللين - من فهم هذه الفقرة كما ترد في سجلات هانسارد Hansard الرسمية فلا بد بداية من الإلمام بقواعد اللغة الإنجليزية وقواعد الخطاب. في الوقت ذاته، يستلزم هذا الفهم قترا كبيرا من المعرفة بمجريات الأمور والعالم الذي يحيط بنا - عن الديمقراطية وعن القوات البريطانية وعن العراق كما تشير هذه الفقرة ضمناً. تاسيماً على ذلك، نستطيع أن نفهم من بين ما نفهم أن المتحدث يدافع عن إرسال قوات إلى العراق حتى تتحقق الديمقراطية هناك، حيث يفترض من بين ما يفترض أن العراق ليس فيها ديمقراطية، وأن القوات التي ستذهب إلى هناك وما تعزّمه من حرب يمكنها أن تحقق الديمقراطية.

هذا الفهم الذي يتأسس على قواعد النحو وقواعد الخطاب والمعرفة بما يجري حولنا ما هو إلا جزء من الصورة. إن ما يفهم أعضاء البرلمان البريطاني يشمل إلى ما سيق أن مناقشة التدخل العسكري الذي يدعّمه بلير تناسب المقام وهو مقام نقاش برلماني. ويفهمون كذلك مبررات طرح الموضوع للمناقشة وما يناط بالبرلمان من وظائف في هذا الصدد وما يفعل المتحدث توني بلير في هذه الأثناء بالمقارنة بما يناقشه من أمور وما يعنيه وما يشير إليه ومن ذلك أنه يشير إلى القوات البريطانية التي تنتظر قرار التدخل. على معنى أن أعضاء البرلمان لا يفهمون نص خطاب بلير فحسب، بل يفهمون كذلك ما يحيط به من سياق وما يرد فيه هذا الخطاب من مقام" (فان دايك van Dijk، ٢٠٠٨، ص ١).

## النحو الوظيفي

### عن اللغويات النقدية

اللغويات النقدية (CL) Critical Linguistics هي الامتداد الطبيعي للنحو الوظيفي، وهي في الوقت نفسه من مقدّمات التحليل النقدي للخطاب الذي ترد مناقشته لاحقاً، بل ترد في غير موضع بوصفها مرادفاً لهذا النوع من التحليل. تطورت اللغويات النقدية في كتابات فولر وزملائه، ومن أكثرها تأثيراً ونبوغاً كتاب اللغة والسيطرة، أو التحكم *Language and Control* (1979) الذي يجمع بين روجر فولر Fowler وجنتر كريس Kress وبوب هودج Hodge وتوني ترو Trew. وفيه تأسيس لمقولات اللغويات النقدية، وخلفيتها الفلسفية، واللغوية والاجتماعية، ومناقشة أثر جورج أرويل وغيره في تطور هذا الاتجاه النقدي اللغوي، وشرح أنواته ومنطقاته وتطبيقات تلك الأنواع في دراسة مختلف أنواع النصوص. ومن منطلقات اللغويات النقدية التي يتناولها الكتاب أن البنى والتنظيمات الاجتماعية تؤثر في البنى والتركييب والاختيارات اللغوية، وأن هذا التأثير ينتظم كل مستويات اللغة من أصوات و وحدات صرفية، ونحوية، ودلالات، واختيارات أسلوبية وبلاغية، وأن من أكثر العوامل الاجتماعية تأثيراً فيما سبق من اختيارات توزيع السلطة والقوة بين المشاركين في الخطاب (ص 194). ما زالت اللغويات النقدية تمارس حضورها المؤثر في التحليل النقدي للخطاب، وفي تحليل الخطاب السياسي، رغم تطور كل منهما وتفرعهما إلى اتجاهات معرفية، وأخرى اجتماعية أو تاريخية، وأخرى تركز على الاستعارة والمجاز، أو الجنس الخطابى وأشراطه وخصائصه، وغير ذلك من اتجاهات تتناول مختلف جوانب الخطاب والعوامل التي تؤثر في إنتاجه وتلقيه، وتلتقي جميعها في التأكيد على الارتباط بين العوامل الاجتماعية والاختيارات اللغوية.

وفق هذا السياق ومتغيراته والعناصر الفاعلة فيه، تتشكل اللغة، وعلى هذا، وعلى تأثير اللغة في السياق كذلك، يتأسس النحو الوظيفي كما طوّره هاليداي (1985). ليس هذا تلخيصاً لنظرية النحو الوظيفي عند هاليداي، وهي النظرية التي استندت إليها اللغويات النقدية التي ترد إشارة جانبية إليها لاحقاً، ولكنه مجرد مرور كريم على نسق ثري بوصفه خلفية ضرورية لتطور التداولية، وما تلاها، وما زانها من مقاربات لغوية وخطابية. في هذا

النسق، لا تقتصر اللغة على كونها ظاهرة معرفية، أو جملة من التراكيب، بل تتجاوز ذلك إلى أداء وظائف في سياقات متباينة، وتتلون بالسياق الذي تستخدمها فيه، من خلال استجابتها لتغيرات الموضوع **field** (في السياسة، أو الدين، أو الأحياء، أو التاريخ، إلى غير ذلك من مجالات وانشغالات) والعلاقات المتباينة بين المشاركين في الخطاب **tenor** (تقارب، أو تباعد، وما بينهما، وما حولهما من درجات وظلال) ووسائل الخطاب وقنواته **mode** (كتابة أو شفاهة، مباشرة أو عبر وسيط أو قناة، وهكذا).

تتنظم وظائف اللغة في فئات ثلاث نأقشها هاليداي ومزالت أساس ما تلاها من مقاربات تداولية:

§ وظيفة تصويرية: وهي تمثيل الواقع (التقرير، والوصف، والإخبار والإنباء) **ideational** (الكلام أو الكتابة عن العالم: "إنها تمطر"، "شرب الطفل اللبن/ الحليب")

§ وظيفة تفاعلية: وهي التفاعل مع الآخرين **interpersonal** (تأسيس علاقات مع الآخرين أو ترسيخها أو إعادة صياغتها: "يا سيدي"، "يا بتي")

§ وظيفة نصية: وهي إنتاج النصوص والخطابات، وتنظيمها، وإدراجها **textual** (الكلام أو الكتابة عن الكلام أو الكتابة - اللغة الشارحة، ووسائل تنظيم الخطاب: "في الفقرة السابقة")

يرتكز تمثيل الواقع في الأساس على التعدية أو التعدّي **transitivity**، وهي ليست مجرد خاصية في الفعل في تعارض مع لزومه، بل هي خاصية في الجملة بكاملها، وتتكون الجملة كذلك من المشاركين في الفعل وظروفه. في "هنا محمد عليا بنجاحه أمس"، الفعل فعل التهنئة، والمشاركان هما "محمد" و"علي"، وظروف الفعل تشمل السبب والزمان. من هنا تكون البداية - من الفعل، أو ما يقع أو يحدث. تنقسم الأفعال والحالات والأحداث في نسق هاليداي (١٩٨٥) إلى:

- § أفعال كينونة وصيرورة أو تحويل (أفعال إسناد) relational مثل "يبدو"، و"أصبح"، و"ما برح"، و"ما زال"، و"ألفي"، و"وجد".
- § أفعال مادية material مثل "ضرب"، و"قتل"، و"كسر"، و"اغتنل"، و"صدم".
- § لفظية/ كلامية verbal مثل "هنا"، و"نادى"، و"حيا"، و"كتب"، و"خط".
- § ذهنية نفسية mental مثل "يحب"، و"يكره"، و"يعتقد"، و"يشعر"، و"يخشى".
- § أفعال سلوكية behavioral مثل "يضحك"، و"يبكي"، و"ينسم"، و"يعبس".
- § أفعال وجودية (ية) existential كما في "على الطاولة كوب"، "هناك قصور واضح".

لا تحظى أفعال الكينونة والوجود في اللغة العربية بنفس الحظ من تناول الذي نجده في الإنجليزية، لأنها في جملة الأحوال تقديرية، فحين نقرأ "على الطاولة كوب"، ندرك أن تقدير الكلام "يوجد كوب على الطاولة" - هذا إذا دعت الضرورة إلى التقدير. فسي "راقه ما فعلت"، المشاركان هما أنت وهو، ومن خبر الفعل هو هو، وما كان له الأثر هو ما فعلت أنت. وفي "أعجبتني قصيدتك"، المشاركان هما أنا وأنت، والفعل هو الإعجاب، ومن خبر الفعل هو أنا، وما أحدث الأثر هو قصيدتك.



## المبدأ التعاوني

يُعَدُّ المبدأ التعاوني **Cooperative Principle** في الحوار، والذي قنمه بول جرابس Grice (١٩٧٥)، ركيزة أساسية من الركائز التي تقوم عليها التداونية، وأداة مهمة من أدواتها في أن ينقسم هذا المبدأ إلى أربع قواعد على من يستخدم اللغة إتباعها إذا أراد أن يكون "متعاوناً". علينا أن نتذكر أن المبدأ التعاوني يصف ما ينبغي أن يكون، لا ما هو كائن بالفعل في مجمل الحوارات والتفاعلات الإنسانية. أما قواعده الأربع فهي:

§ **الكمية/ الكَم Quantity**: قَدِّم القدر المطلوب من المعلومات، لا أكثر ولا أقل. "خير الكلام ما قلّ ودل". تتعلق هذه القاعدة بمقدار المعلومات أو كمّتها، لا بصدقها أو ملامتها.

§ **الصدق/ الكيف Quality**: كُن صادقاً؛ لا تُقدِّم معلومات خاطئة، أو معلومات لا تستطيع أن تبرهن على صحتها. "الصدق منجاة"، "الأمانة أفضل الطرق"، كما تقول الحكمة الإنجليزية.

§ **الملاءمة Relation**: لتكون معلوماتك ومساهماتك ملائمة للحوار، فلا تخرج عن الموضوع. لأن "كلّ مقام مقالاً"، و"كلّّ حادثة حديثاً".

§ **الطريقة Manner**: كُن واضحاً ومنظماً، وتجنب الغموض والرطابة، وخطب الناس على قدر عقولهم وتخصّصاتهم وخلفياتهم المعرفية - وليس "معرفة الخلفية" background knowledge، كما تذهب بعض الترجمات.

فيما يلي نماذج لتوظيف المبدأ التعاوني لتحقيق غايات تواصلية (مزيد، ٢٠٠٢). في الراية العربية ألف ليلة وليلة، (الجزء التاسع، ص ٦٣٤) تحكي شهرزاد لشهريل - بداية من الليلة الثامنة والستين بعد المائة الثالثة حتى الليلة الحادية والثمانين بعد

المائة الثالثة - حكاية (أنس الوجود مع محبوبته الورد في الأكمام) وفيها نجد "أنس الوجود" هاتماً معذباً بعد أن حوّل بينه وبين محبوبته "الورد في الأكمام"، "و بينما هو كذلك إذ خرج عليه سبع رقبتة مختنقة بشعره، ورأسه قدر القبة، وفمه أوسع من الباب، وأنيابه مثل أنياب الفيل. فلما رآه أنس الوجود أيقن بالموت واستقبل القبلة وتشهد واستعد للموت. وكان قد قرأ في الكتب أن من خادع السبع اتخذ له، لأنه يتخذ بالكلام الطيب وينتشي بالمديح، فشرع يقول له: يا أسد الغاية، يا ليث الفضاء، يا ضرغام، يا أبا الفتيان، يا سلطان الوحوش، إني عاشق مشتاق، وقد أتلفني العشق والفراق، وحين فارقت الأحباب غبت عن الصواب، فاسمع كلامي وارحم لوعتي وغرامي".

يتحتم على قارئ هذه القصة أن يتحلى بقدر كبير من التسامح المعرفي حتى يصدق وصف الأسد، وحتى يصدق ما قالته الكتب لأنس الوجود من أن "من خادع الأسد اتخذ له"، "لأنه يتخذ بالكلام الطيب" وحتى يتعاطف مع استعطاف أنس الوجود السبع أن يسمع كلامه ويرحم لوعته وغرامه.

من الواضح أن أنس الوجود في أزمة حقيقية: "أيقن بالموت واستقبل القبلة وتشهد واستعد للموت". إزاء هذه الأزمة الطارئة، يقرّر أنس الوجود اللجوء إلى حيلة لغوية تقوم على ركنين أساسيين هما: المديح والشكوى. يبدأ أنس الوجود بإسباغ ألقاب "أسد الغاية" و"ليث الفضاء" و"ضرغام" و"أبي الفتيان" و"سلطان الوحوش" على الأسد، ثم ينتقل بعد ذلك إلى الشكوى مما يجد: "إني عاشق مشتاق، وقد أتلفني العشق والفراق، وحين فارقت الأحباب غبت عن الصواب"، مستعيناً بالسجع والتجانس الصوتي، ثم يأتي في النهاية الرجاء والاستعطاف، وقد قدم أنس الوجود لنفسه بأن قرن قوة الأسد وجبروته بضعفه هو ولوعته وعذابه، والحقيقة أن هذه "الخطبة السحرية" لم تحقق لأنس الوجود مجرد النجاة من الموت المحقق، بل نفعت الأسد بالتعاطف معه ومساعدته في الوصول إلى مكان حبيبته "الورد في الأكمام": قام الأسد ومشى نحوه بلطف، وعيناه مغرورفتان بالدموع، ولما وصل إليه لحسه بلساته،

ومشى قدامه وأشار إليه أن اتبعني، فتبعه". بالطبع لم يكن هدف "تس الوجوه" الأساسي مدح الأسد، بل كان هدفه من وراء المدح أن يستر عطف الأسد، فينجو منه؛ لم يكن يطمع في أكثر من هذا، ولكن الثناء مع الاستعطف كانت لهما آثار أخرى إيجابية كما رأينا. لو صدقت شهرزاد فيما روت، فلنا أن نؤمن بأن حبّ الثناء ليس طبيعة الإنسان وحده بل طبيعة الحيوان كذلك. هكذا نرى أن في هذه القصة - وفي ما يشابهها من أمثولات - خرق صريح لقاعدة الصدق في المبدأ التعاوني بغرض الإفلات من براثن الأسد.

ومن نواتر أشعب: (١) "قالت صديقة أشعب لأشعب: هب لي خاتمك أنكرك به، قال: أنكري لي منعك إياه فهو أحب إلي"، (٢) "وجدت امرأة شعيب دينارا فأتت به، فقال: اتبعيه إلي حتى يلد له في كل أسبوع درهمين. فلما كان الأسبوع الرابع، طلبته منه فقال لها: مات في النفاس، فقالت: ويلي عليك كيف يموت الدينار؟ فقال لها: الويل لك، على أهلك، كيف تصدقين بولادته وتكرين موته في نفاسه؟" (عباس، ١٩٩٠، ص ص ٢٦-٢٧).

### تخلص

"وسنذكر في كتابنا هذا إن شاء الله تعالى من تخلص من أنشطة الهلاك وتفلت من حبال المنية، بحسن التوصل، ولطيف التوصل، ولين الجواب، ورقيق الاستعاب، حتى عادت مسياته حسنات، وعرض بالثواب بدلاً من العقاب. وحفظ هذا الباب، أوجب على الإنسان من حفظ عرضه، وألزم له من قوام بدنة" (العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي، نسخة موقع الوراق، ص ١٣٠).

في ظاهر الأمر، يتصادم "أشعب" مع صديقه وزوجته، لكن الحقيقة أنه يوقع كلا منهما في شرك لغوي معرفي للخروج من مأزقين، المأزق الأول هو تهديد ملكيته خاتمه، والثاني هو تهديد ملكيته للدينار الذي حصل عليه من زوجته بالتحايل. للخروج من المأزق الأول، يستفيد "أشعب" من تحايل صديقه عليه؛

فهي تزعم أن هدفها من الحصول على خاتمها هو أن تذكره به. حينئذ يختار لها "أشعب" طريقة أخرى تذكره بها، المهم أن رغبته في أن تتذكره سوف تتحقق. هي

تريد أن تذكره بالمتح، وهي بفضل أن تذكره بالمتع. أما زوجة "أشعب" فقد صنتت أن الدينار يمكن أن يلد كل أسبوع درهمين عندما كانت لها مصلحة في ذلك، وعندما أفاقت من الكذبة، بدأت تطلب الدينار، ولكن أشعب ساعتهما يسألها سؤالاً لا تملك إجابة إلا السكوت والندم على الدخول في الكذبة من البداية. لعن الزوجة فهمت في بداية الأمر أن زوجها سوف يستثمر الدينار فيربح كل أسبوع درهمين، ولكن "أشعب" في مواجهة الأزمة يتمسك بالمعنى الحرفي البيولوجي لفعل "يلد" - وطالما أن الدينار يمكن أن يلد، فيمكن أن يموت في النفاس - ولسان حاله يقول لها: انطلت عليك الأولى، فلماذا لا تصدقيني في الثانية؟ كذب بكذب. لا يبرز "أشعب" ولا يفسر، ولكن ينكر على زوجته لإدواجيتها وكيلها بمكيالين، ويتحقق له هدفه الأساسي، وهو الهروب من مطالبة الزوجة بالدينار الذي "مات".

ومن نواتر جحا: "كان جحا ماشياً في الصحراء، فرأى ثلاثة فرسان من قطاع الطريق على بعد، فخاف وخلق ثيابه وأدخلها أحد القبور الخالية. لما وصلوا رأوه عريته، فقالوا له: من أنت؟ فقال: أنا ميت من جملة الأموات في هذه القبور، وقد خرجت الآن للنزهة وشمّ الهواء، فضحكوا منه وتركوه". (ابن الجوزي، ص ص ٦٢-٦٣). تنقسم هذه القصة إلى أربعة أجزاء هي: موقف الأرملة، والتخطيط للتحويل، والمواجهة، والنتيجة. أما الأرملة فهي التهديد الواضح لحياة وممتلكات جحا، ويبدو أنه كان مخرجاً مُحتمكاً، حيث بدأ فوراً تجهيز الديكور والمناظر حتى وصل قطاع الطريق إليه، فوجدوه عريته، وقالوا له من أنت؟ يبدو أن جحا كان يعتقد - أو كان يريد للصوم أن يعتقدوا - أن التجرد من الملابس والتواجد في دائرة المقابر كافين لإثبات الموت. على هذا الاعتقاد أسس جحا لحيلته في التخلص من قطاع الطريق. تتلخص هذه الحيلة في محاولة تحقيق أثرين أحدهما قريب، والثاني بعيد. أما الهدف القريب، فهو أن يصدق قطاع الطريق أنه "ميت من جملة الأموات"، والهدف البعيد هو ببساطة أن يتركه للصوم.

هذا ما تقرّره  
 كورين دينويل  
 في Denoyelle  
 تحليلها التحليل في  
 حكايات الشطار،  
 حيث ترى أن  
 خطاب التحليل  
 يسعى إلى تحقيق  
 أثر معرفي تفقد  
 فيه الضحية إلى  
 التصديق faire  
 croire، وهدف  
 واقعي عملي تنقاد  
 فيه الضحية إلى  
 الفعل والتصرف  
 faire faire  
 (دينويل، ١٩٩٨).  
 لم يصدق قطاع  
 الطريق - بطبيعة  
 الحال - أن جحا  
 "ميت من جملة  
 الأموات"، كيف  
 يصدقون هذا وهو  
 يكلمهم؟ وكيف

### العلم والأدب

يبقى المبدأ التعاوني صالحاً للتطبيق المباشر على خطاب  
 العلوم والرياضيات، وما شابههما، وذلك لاهتمامه  
 بالبرهان، والكم، والملازمة، والوضوح، والترتيب، أما فيما  
 يتصل بخطاب الأدب، وما يحفل به من استعارات، وكنيات،  
 ومبالغات مقصودة، وغموض وظيفي، ورطابة معجزة  
 (تتناولها فيما تتناول التداولية الأنيوية أو الأسلوبية -  
 literary pragmatics أو pragma-stylistics)  
 وخطاب السياسة، وما يحفل به من تحسين، وتجميل،  
 وتشويه، ومكياسة، وتضليل، وتضمنين، وفراض، وكذلك  
 الدعاية والإعلان، فتكمن أهمية المبدأ التعاوني في أنه آلية  
 مهمة من آليات التحليل، لأن انتهاكته تشي، وتوحي،  
 وتعبّر، وتنقل تضمينات، وتعكس ظروفًا وسياقات، كما نجد  
 هنا من مناقشات. بعبارة أخرى، وعلى سبيل التبسيط،  
 تتحقق للغة العلم نجاعتها من خلال التزامها قواعد المبدأ  
 التعاوني، أما لغة الأدب وما يشابهها، فيوسعها أن تحقق  
 قدراً كبيراً من تأثيرها من خلال انتهاك هذا المبدأ. وليس  
 من الممكن تصوّر حياتنا اليومية وما فيها من حوارات -  
 وكم سنخسر من الأصدقاء والزملاء - ونحن نطبق المبدأ  
 التعاوني تطبيقاً "رياضياً" مجرداً دون مراعاة أو تجلّس  
 (فنجيب عن سؤال "كم الساعة؟" بكلمة واحدة مثل  
 "العاشرة"، وعن سؤال "كيف حالك؟" بعبارة واحدة من قبيل  
 "بخير"، ونسئ القبيح قبيحاً دون مواراة أو تلطّف،  
 ونجتنب الاستطراد، دون أن نكثر لانهام الناس إتّسا  
 بالفنور أو الغرور، ولا نقول إلا الصدق، حتى ونحن نصلح  
 بين متخاصمين.

لعلّ هذا التباين بين المبدأ التعاوني بوصفه مجموعة من  
 القواعد المثالية المجردة، وبين مبررات ودوافع انتهاك تلك  
 القواعد في الواقع هو بعض ما يؤخذ على هذا المبدأ، وهو  
 كذلك ما استوجب تطوير نظرية تمسّر التباين وتشرح  
 المبررات والدوافع هي نظرية الكياسة، كما يرد لاحقاً في  
 هذا التبسيط. كيف نقف على ما وقع من انتهاك وكيف  
 نتوصل إلى تفسيره وتبريره؟.

يصدقون أن الموتى يخرجون للنزهة وشمّ الهواء؟ لكن يبدو أنهم تعاطفوا مع خوفه  
وضحكوا من سذاجة حيلته - سذاجتها الظاهرية على الأكل، وإن لم يتعاطفوا، فما  
الذي كان يمكن أن يأخذوه من رجل "عريان" يسكن القبور؟ لكلّ هذه المذاجة، ولكل  
هذا المكر، نحبُّ جحا ونتتبع أخباره.

ومن أمثلة الحيلة وحسن التصرف كذلك:

(١) "بلغنا أن رجلين سعيًا بمؤمن إلى فرعون ليقتله، فأحضرهم فرعون فقتل  
للساعين: من ربكما؟ قالوا: أنت. فقال للمؤمن: من ربك؟ فقال: ربي ربهما. فقال لهما  
فرعون: سعيتما برجل على ديني لأقتله: فقتلهما".

(٢) "استحن ابن أبي داود الحارث بن مسكين أيام المحنة فقال له: أشهد أن القرآن  
مخلوق، فقال الحارث: أشهد أن هذه الأربعة مخلوقة، وبسط أصابعه الأربعة وقال:  
التوراة والإنجيل والزبور والفرقان، فتخلص".

مزال عنصر "الأزمة" حاضرًا في هذين الموقفين. في القصة الأولى يشي رجلان من  
اتباع فرعون برجل مؤمن، وعندما يكون الثلاثة بين يدي فرعون، يكون السؤال  
المنطقي: من ربكم؟ يتحارب الرجل المؤمن للخروج من هذه الأزمة العقيدية بالنقبة،  
فإجابته "ربي ربهما" صحيحة وصادقة على مستويين: على المستوى الأول، سوف  
يربط فرعون بين إجابة الرجلين "أنت" - فرعون - وإجابة الرجل المؤمن: "ربي  
ربهما"، وقد قالوا إن ربهما أنت، إذن ربي أنت، لا شك إذن في إيمان الرجل بفرعون  
- كما فهم فرعون. على المستوى الثاني، يقرّر الرجل المؤمن أن ربه رب الرجلين،  
وهو صادق في هذا في نظر نفسه.

وقد كانت نتيجة النقبة باهرة، فقد نجا الرجل المؤمن، وقتل المتأمران. أما الحيلة  
اللغوية في القصة الثانية، فتكمن في الإزدواجية الدلالية لاسم الإشارة "هذه"، حيث  
تعني في وقت واحد: "هذه الأصابع الأربعة"، وكذلك "هذه الكتب الأربعة" - التوراة  
والإنجيل والزبور والفرقان". ما يحدث هنا، وفي حالات كثيرة مشابهة، هو غسوس  
مقصود وإبهام موظف وانتهاك قاعدة "الطريقة"، حيث تفتقد كلمة "هذه"، ومن قبلها

"رهبما"، النقة والتحديد، ويبدو هذا الانتهاك ضرورياً في ظل رغبة الرجل المؤمن في القصة الأولى والحارث بن مسكين في الثانية في تحقيق غايتين متعارضتين وهما: تجنب الكذب وتجنب الصدام المباشر مع فرعون في القصة الأولى، ومع ابن أبي داود في الثانية.

ومن أمثلة توظيف قواعد المبدأ التعاوني كذلك ما لا حصر له من تورية، وفكاهة، واستعارة، وغموض، وكذب مقصود، وتحسين قبيح، أو تقييح حسن، ومداراة، ومواربة، وتغطية، وتعمية، وרטانة، ومبالغة، واستطرادات، وخروج عن النص. يبدو أن قيمة المبدأ التعاوني لا تكمن في محاولة اتباعه أو التقيّد به، بل فيما يشي به انتهاكه وتجاوزه، عن قصد أو غير قصد، من غايات بلاغية أو شعرية، أو سياسية، أو ترويجية - مع ملاحظة أن "أو" لا تفصل بالضرورة بين متعارضين أو متناقضين. ولهذا يبقى المبدأ التعاوني أداة ملائمة ومهّمة في تحليل الخطاب ولقويات النص وتحليل الخطاب النقدي وتحليل الخطاب السياسي. وما يُحسب للمبدأ التعاوني كذلك أن تأسست عليه نظريات التأديب والكياسة، التي ترد مناقشتها لاحقاً، على سبيل توضيح ما غُض من جوانبه أو استكمال ما نقص منها.

## التضمين

لعلنا لاحظنا في الأمثلة السابقة أن خرق قواعد المبدأ التعاوني يحقق غايات تواصلية بلاغية، بل يحدث تأثيرات مازنية في الواقع. كلما انتهك الكاتب أو المتكلم قاعدة من قواعد هذا المبدأ، دل ذلك على شيء ضمني لا يراد التصريح به، لعذر أو قهر أو غاية، أكثر أهمية من مجرد التصريح. من هنا نصل إلى التضمين أو الإضمار **Implicature** الذي يقارب ما وصف الجاحظ في البيان والتبيين بالكناية، لكنه لا يشبه في شيء تعلق آخر البيت من الشعر بأول البيت الذي يليه، ولا اقتباس جزء من نص في نص غيره.

حتى يستطيع السامع أو القارئ أن يتوصل إلى المعنى الضمني، لا بد أن يأخذ في الحسبان ما يقال بالفعل، وما يحيط به من سياق، وقواعد المبدأ التعاوني التي يفترض أن يراعيها الطرفان. على سبيل المثال، حين نسأل عن إبداهن هذا السؤال "كم تبلغ من العمر؟" فيجيب أحدهم عن السؤال "إنها متزوجة ولديها طفلان"، ربما دل ذلك على عدم معرفته عمرها. هنا يلجأ السائل إلى السياق الاجتماعي الذي يشتمل على معلومات عن السن الطبيعي للزواج والإنجاب في مجتمع معين. وربما دل تجاهل أو خرق قاعدة من قواعد المبدأ التعاوني على رغبة المتكلم في حفظ ماء وجهه أو وجه غيره، فيصبح التجاهل أو الخرق نوعاً من التاذب واللياقة. وعلى هذا تلمست أطروحات جيفري لينش **Leech** (١٩٨٣) التي ترد مناقشتها لاحقاً.

إلى نفس هذه الفئة من المسكوت عنه أو التضمين ينتمي الافتراض المسبق **Presupposition** والمعلوم من اللفظ أو العبارة بالضرورة **Entailment**. من أمثلة الافتراض المسبق:

§ "ذهب الولد إلى المدرسة": تفترض مسبقاً أن هناك ولداً وهناك مدرسة؛ "الحرب على الإرهاب": هناك "حرباً" وهناك "إرهاباً". هنا، وفيما يلي من افتراضات مسبقة، يبقى الافتراض حتى إذا تحوكت الجملة من الإثبات إلى النفي - "لم يذهب الولد إلى المدرسة".



§ "لماذا يكرهوننا؟" (من خطاب بوش عقب ٩/١١): تفترض مسبقاً أن المسلمين يكرهون الولايات المتحدة.

§ "التطرف الإسلامي خطر يهدد الغربا": تفترض مسبقاً أن هناك تطرفاً إسلامياً؛ "هزيمة الجيش ... الباسل": هناك جيش ... وهو "باسل".

§ "أعلم أنه مخاطرة كبيرة" (من خطاب الرئيس المصري الراحل أنور السادات أمام الكنيسة الإسرائيلية): تفترض مسبقاً أن السفر إلى إسرائيل مخاطرة كبيرة.

§ "عملية السلام في الشرق الأوسط تحتاج دفعة قوية": تفترض مسبقاً أن هناك شرقاً أوسط وهناك عملية سلام.

§ "لا بد أن نتوقف عن الإساءة إلى جيرائك" - تفترض مسبقاً أن المخاطب يسيء إلى جيرانه.

§ "أحمل إليكم رسالة شعب مصر الذي لا يعرف التعصب" (من خطاب الرئيس المصري الراحل أنور السادات أمام الكنيسة الإسرائيلية) - تفترض مسبقاً أن شعب مصر لا يعرف التعصب.

§ "عاد المستشرق إلى الجزيرة العربية": تفترض مسبقاً أن المستشرق كان في الجزيرة العربية، أو زارها من قبل؛ "عاد الفتنة تطل بوجهها البغيض": تفترض مسبقاً أن هناك "فتنة"، وأن لها وجهاً بغيضاً، ولو على سبيل الاستعارة، وأنها اطلت من قبل.

§ "الفتنة نامة لعن الله من أبقظها" تفترض مسبقاً أن هناك "فتنة" "نامة" وأن أحداً قد أبقظها أو ربما يوقظها.

§ "اغلق الباب" - تفترض مسبقاً أن المتكلم لديه صلاحية إصدار الأمر، ولعل العلاقة بين المتكلم والسامع تمنح الأول هذه الصلاحية دون هيمنة أو قهر.

§ "كم أشعر بأي قدر من الإشفاق على الرئيس الأمريكي جورج بوش عندما عرفت أنه سوف تحاوره مذبة مصرية تتفوق عليه في مستوى الذكاء بفرق شاسع" (نصار عبد الله: "منى وبوش". المصريون، ٢١ مايو ٢٠٠٨): تفترض مسبقاً أن للإشفاق

درجات، وأن بوش موجود وهو "الرئيس الأمريكي" - هكذا كان - وأن "مذبحة  
مصرية" سوف تحاوره، وأنها "تتفوق عليه في مستوى الذكاء بفارق شاسع".  
يشير الافتراض المسبق، إذن، إلى التسليم بصحة مقولة أو فكرة، ودعوة السامع أو  
القارئ إلى التسليم بها، بينما ينشغل بتلقي خبر أو إسناد آخر. في "عملية السلام في  
الشرق الأوسط تحتاج دفعة قوية"، الخبر هو جملة "تحتاج دفعة قوية". بينما نتلقى  
هذا الخبر، ونتساءل: هل هي حقاً تحتاج دفعة قوية، لا نتساءل: هل هناك حقاً عملية  
سلام في الشرق الأوسط؟ وهنا يكمن الخطر الجسيم، إذ يستخدم الساسة والمروجون  
والدعائيون ما لا حصر له من الافتراضات المسبقة لتعمير مقولات أيديولوجية  
ملتبسة، وكأنّ علينا حين نطالع جملة من قبيل "التطرف الإسلامي خطر يهدد الغرب"  
أن نسلّم بوجود "تطرف إسلامي" بينما ننشغل بتلقي خبر تهديده الغرب.  
أما المعلوم من مكتوب أو ملفوظ بالضرورة فهو أشد التصاقاً بالمكتوب أو الملفوظ،  
وربما لهذا السبب لا نجد له نفس التأثيرات البلاغية التي للتضمنين، ولا نفس الأهمية  
في دراسات تحليل الخطاب. إذا قلنا إنّ علياً لديه ثلاثة أولاد، فمن المعلوم بالضرورة  
أنّ له ولد وولدين، ومن المعلوم بالضرورة أنه تزوّج مرة واحدة على الأقل. على  
أنا لا ينبغي أن نغفل السياق، لأنّ ما هو معلوم بالضرورة في ثقافة ما، ليس معلوماً  
بالضرورة في غيرها دائماً، فليست كل الثقافات تضع الزواج شرطاً للإيجاب.

## ماذا نفعل بالكلمات؟

### إن لصاحب الحق مقالاً

"حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ، حَدَّثَنَا يَحْيَى، عَنْ شُعْبَةَ، عَنْ سَلَمَةَ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلٌ يَتَقاضاهُ فَاغْظَ لَهُ فَهَمَّ بِهِ اصْتِخَابُهُ. فَقَالَ دَعْوَةٌ فَبَيْنَ لِصَاحِبِ الْحَقِّ مَقَالًا". وَقَالَ عُمَرُ بْنُ مِقَاتٍ الْخَطُوبُ عِنْدَ الشَّرْطِ، وَلَكَّ مَا شَرِطْتَ. وَقَالَ الْمَسُورُ سَبَعْتَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَكَرَ صِهْرًا لَهُ فَاتَى عَلَيْهِ فِي مَصَاهِرَتِهِ فَلَحَّضَنَ قَالَ حَدَّثَنِي وَصَنَّقَنِي وَوَعَدَنِي فَوَقَى لِي" (صحيح البخاري).

### دعائم الكلام أربع

"وقال أبو يزيد لكتابه: اعلم أن دعائم المقالات أربع، إن التمس لها خاصة لم توجد، وإن نقصت منها واحدة لم تتم، وهي: سؤالك الشيء، وسؤالك عن الشيء، وإخبارك بالشيء، وإخبارك عن الشيء. فإذا طلبت فاسجح، وإذا سألت فلوضح، وإذا أمرت فأحكم، وإذا أخبرت فحقيق. وأجمع الكثير مما تريد في القليل مما تقول" (العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي، نسخة موقع الوراق، ص ١٧٥).

لم يكن جون أوستن، أو جون سيرل من قبله، أول من تناول اللغة بوصفها فعلاً له تأثيره وشروط نجاحته، لكن نظرية أفعال الكلام (Speech Acts) (والكتابة كذلك)، التي أسس لها الأول وطورها الثاني، هي التي ألقت الضوء على هذا الجانب من اللغة ووضعت في بؤرة اهتمام الباحثين، وجعلته ضرورة لازمة في دراسة اللغة، وكرست فرعاً مهماً من فروع علم اللغة هو فلسفة اللغة. وما زال لهذه النظرية أثرها الفاعل في كل ما تلاها من مقاربات لغوية. وهي فصل مهم في تحليل الخطاب، وتحليل النص، وتحليل الحوار، وتحليل الخطاب السياسي Political Discourse Analysis، وتحليل الخطاب النقدي (الراديكالي) Critical

Discourse Analysis، والأسلوبية Stylistics.

تشمل المقولات والأطروحات المؤسسة لهذه النظرية تمييز أوستن (١٩٦٢) بين نوعين من الجمل، أو الملفوظات، يقتصر الأول على الوصف أو التقرير constatives (مثل: "تناولت طعام الإفطار")، بينما يتجاوز الثاني ذلك إلى الأداء والإيجاز أو الفعل performatives (من قبيل: "أعذر"، "افتح الباب من فضلك")، بل يرى بعض شراح النظرية أن كل التلغظات والجمل هي في نهاية الأمر أفعال. حتى التقرير والوصف والإخبار أفعال، مثلها في ذلك كمثل الأمر، والاعتذار، والتسعية، والمنع، والتمنع، وما إلى ذلك. ومن المقولات المؤسسة للنظرية كذلك تصنيف أوستن جوانب التلغظ أو الجملة إلى ثلاثة هي:

#### اللغة والبيبول

"أية نظرية في اللغة لا بُد أن تكون جزءاً من نظرية في الفعل؛ لسبب بسيط، ألا وهو أن الكلام نوع من السلوك الذي تحكمه قواعد وقوانين، ولأنه سلوك تحكمه قواعد وقوانين، فإن له سمات شكلية يمكن دراستها في صورة مستقلة. غير أن دراسة تلك السمات دون دراسة دورها في إنجاز أداء أفعال اللغة يشبه دراسة الصلات وأنظمة الائتمان في الاقتصاد دون دراسة دور تلك الصلات والأنظمة في المعاملات الاقتصادية. إن هناك الكثير مما يمكن أن يقال عن اللغة دون التعرض لما تنجز من أفعال، غير أن مقارنة شكلية مجردة كهذه تبقى حتماً منقوصة، وكأنا ندرس البيبول كمجموعة من القواعد والقوانين المجردة، لا بوصفها لعبة من الألعاب (سيرل Searle، ١٩٦٩، ص ١٧).

١. الصيغة locution - ظاهر التلغظ أو الجملة، أي نطقها أو كتابتها.

٢. المعنى المقصود illocution - ما يريد المستكلم أو الكاتب أن ينقل إلى المتلقي.

٣. التأثير perlocution - رد فعل المتلقي، وصول الرسالة من عنده.

هنا ينبغي أن نلاحظ أن العلاقة بين الصيغة والمعنى المقصود ليست مباشرة أو شفافة في كل حل. لناخذ مثلاً سؤالاك أين أحد أصدقائك على الهاتف "هل والدك موجود؟". من الواضح أنك لا تنتظر مجرد إجابة بنعم أو بلا، بل تريد أن يفهم الابن أنك تريد أن تتحدث إلى والده. إذا أجابك الابن بنعم ولم يعقب، فقد توقف عند

المعنى الظاهر المباشر لما قلت، وإذا فهم أنك تريد أن تتحدث إلى والده، فقد حطقت ما كنت تبتغي من وراء سؤالك.

من هذه المنطقات ننتقل إلى تصنيف الأفعال التي تؤذيها اللغة، أو التي تؤذيها نحن باللغة، وفيما يلي تصنيف سيرل (١٩٦٩)، الذي يتأسس على تصنيف أوستن (١٩٦٢)، هذه الأفعال، حيث نستطيع باللغة أن:

§ "تقرّر"، و"تعتل"، و"تجزم"، و"تخبر"، و"تختتم"، و"تقر"، و"تبتكر" - وكلها تنتمي إلى فئة الإخبار أو التقرير أو تمثيل الواقع Representatives. والمصطلح الإنجليزي أصله الفعل represent ويعني "يمثل"، أو "يعرض".

§ "تأمر"، و"تنهى"، و"تطلب"، و"ترجو"، و"تسال"، و"تنوّل"، و"تنضرخ"، و"تدعو"، و"تصر"، و"تلج" - وكلها تنتمي إلى فئة الأمر والنهي Directives. والمصطلح الإنجليزي أصله الفعل direct ويعني "يوجّه"، أو "يأمر".

§ "تعد"، و"تتعهد"، و"تقسم"، و"تحلف"، و"تلتزم"، و"تحمّل"، و"تحمل" وزرا أو مسؤولية، أو "تأخذ على عاتقنا" - وكلها تنتمي إلى فئة التعهد أو الالتزام Commissive. والمصطلح الإنجليزي أصله الفعل commit ويعني "يلزم"، أو "يلتزم".

§ "تعتر"، و"تأسف"، و"تنهى"، و"تعزي"، و"تشكر"، و"ترحب"، و"تشكو"، و"تمدح"، و"تذم"، و"تجامل"، و"تلتطف"، و"تندم"، و"تعتن"، - وكلها تنتمي إلى فئة التعبير، أو البوح Expressives. والمصطلح الإنجليزي أصله الفعل express ويعني "يعبر".

§ "تعن" (حربا مثلا)، و"تزوج"، و"تطلق"، و"تسمي"، و"تحكم"، (بغرامة مثلا)، و"تشهد"، و"توقع (عقداً)"، و"تعين"، أو "تفصل" من العمل، و"تمنح" لقباً، أو درجة، و"تبيع"، و"ترهن"، و"تفرض" - وكلها تنتمي إلى فئة الإعلان، أو المنح والمنع Declarations. والمصطلح الإنجليزي أصله الفعل declare ويعني "يعلن"، أو "يصدر".

حتى تتحقق لهذه  
الأفعال نجاحها  
وصلاحيتها *felicity*،  
لا بُدَّ أن تتوافر بعض  
الشروط والمقدمات  
التي بصنفاها سيرل  
(١٩٦٩) إلى: شروط  
تمهيدية  
*preparatory* (كان  
يكون لمن يؤدي الفعل  
صلاحية ذلك أو  
سلطته، فالعالم أن  
يقتضى، وللقاضى أن  
يحكم، ولصاحب الحق  
أن يتكلم، على الأقل  
في عهد معهد الرسول  
صلى الله عليه وسلم،  
وللمانون أن يزوج،  
ولوالدين أن يُسميا،  
وليس للمجنون أن  
يشهد، وللقاتل أو  
الحاكم أن يعن الحرب  
- طالما كان دستور  
يخوِّله هذا الحق)،

## الإشياء:

### بذور نظرية أفعال اللغة في البلاغة العربية (١)

الإشياء هو ما لا يحتمل صدقاً ولا كذباً، كالأمر والنهي  
والاستفهام والتمني والنداء وغيرها، وينقسم إلى طلبى  
وغير طلبى. الإشياء غير الطلبى هو ما لا يستدعى  
مطلوباً غير حاصل وقت الطلب، وهو على أقسام: المدح  
والذم والعقود، نحو "بعث" و"وهبت" "أمرتني طالق"  
و"عدي حر" أو "أنت مفصول"، القسم نحو: "والله"،  
والتعجب، نحو "كيف قبلت هذا العرض؟ والرجاء. أما  
الإشياء الطلبى فهو الذي يستدعى مطلوباً غير حاصل  
وقت الطلب - حسب اعتقاد المتكلم - وهو مجال علم  
المعاني، وأنواعه خمسة: الأول: الأمر، وهو طلب حصول  
الفعل من المخاطب على سبيل الاستعلاء، ومن ذلك  
الدعاء، والالتماس، والإرشاد، والتهديد، والتعجيز،  
والإباحة، والتسوية، والتكريم، والامتنان، والإهانة  
والدوام والتمني، والاعتبار والإذن، والتخير، والتأجيل،  
والتعجب. الثاني: النهي، وهو طلب المتكلم من المخاطب  
الكف عن الفعل، على سبيل الاستعلاء. ومن ذلك الدعاء  
والالتماس، والإرشاد والدوام، وبين العاقبة، والتبليس،  
والتمني، والتهديد، والكراهة، والتوبيخ، والتحقير.  
الثالث: الاستفهام، وهو طلب الفهم، فيما يكون المستفهم  
عنه مجهولاً لدى المتكلم، وقد يكون لغز ذلك كالأمر،  
والنهي، والتسوية، والتفسي، والإكثار، التشويق،  
والاستئناس، والتقرير، والتهويل، والاستبعاد، والتعظيم،  
والتحقير، والتعجب، والتهكم، والوعيد، والاستبطاء،  
والتنبيه على الخطأ، والتنبيه على ضلال الطريق،  
والتحسر والتكثير. الرابع: التمني، وهو طلب المحبوب  
الذي لا يرجى حصوله، لاستحالة عقله أو شرعاً أو  
عادة، والفرق بين التمني والترجي أن التمني يأتي فيما لا  
يرجى حصوله، ممكناً كان أم مستعصماً، والترجي فيما يرجى  
حصوله. الخامس: النداء، وهو طلب توجه المخاطب إلى  
المتكلم، وربما يسعى النداء إلى تحقيق غايات أخرى  
كالاستغاثة، والإغراء، والزجر، والتعجب، والتضجر،  
والتذكر (الشيرازي، ١٩٩٧).

وشروط مصداقية أو إخلاص sincerity (أن يتحرى من يؤدى الفعل الصدق ويتجنب الكذب ما استطاع)، وشروط جوهرية essential (تتصل بملازمة الفعل للمبني والموقف الذي يحيط به، فنحن لا نشكر الناس إذا سبونا أو أهانوا - إلا إذا رأينا في ذلك ما يستحق الشكر، ولا نهين إلا بحادث سعيد، ولا نعد إلا بما يفيد).

ولعل مما يقض مضاجع كثيرين اليوم أن كل هذه الشروط والمقدمات تثبت دون مداراة أو خجل، في الإعلانات التجارية التي تزكم الأنوف، وفي فتاوى من لا يظنون، وإمامة من لا يصلحون، وفي ادعاء المدعين، وتشق المتشققين، وتهافت المتهافتين، وفي تحليلات أشباه المحللين، وفي الترويج لما يضر، وحجب ما ينفع، ربما لأن بعض البشر يجهلون ما تفعل اللغة في حياتهم وحياة غيرهم، وربما لأنهم يظنون.

اللغة إن فعل، ويفعل بها ومن خلالها، وفيها، نتكلمنا (على معنى أنها تعبر عنا، فالمرء، بعبارة الإمام علي كرم الله وجهه، "مخبوء تحت لسانه فإذا تكلم ظهر") كما نتكلمها، وتشكلنا (على معنى أنها تشكل وعينا بالعالم، وبأنفسنا، وبالأخرين) كما تشكلها، وتؤثر فينا كما تؤثر فيها وبها ومن خلالها. ولهذا نطل نظرية أفعال الكلام أو اللغة عند أوستن وسيول فصلا مهما من فصول التداولية، بل من فصول تحليل الخطاب، والتحليل النقدي للخطاب، وتحليل الخطاب السياسي، وكذلك الأسلوبية - تحليل لغة الأدب أو التحليل اللغوي للأدب. وهو فصل لا غنى عنه لكل من ينشغل بالتداولية أو تحليل الخطاب - وجاراتهما ومثيلتهما وأخواتهما من الاتجاهات الوظيفية - ويسعى إلى فهم أو تحليل الخطاب في سياقاته وأنواعه المختلفة. غير أن أفعال اللغة تكتسب أهمية خاصة عند تحليل النصوص الحوارية، من محادثات، ومسرحيات، وحوارات في الرواية أو القصة، وما إلى ذلك، لأن المواجهة مباشرة، وفي المواجهة تلعب اللغة أدوارها المؤثرة في حسم صراعات الأفكار والمصالح والهويات والأهواء والانتماءات والولاءات - وربما في تأجيل هذه الصراعات أو تطبيقها أو تفاديتها.

## الإشياء (٢)

هذا مجرد تلخيص لا يسعى إلى شرح الخير والإشياء في البلاغة العربية، بل يريد أن يلفت النظر إلى أن بذور التداولية، بل ثمارها، كانت حاضرة في تلك البلاغة كما ذهب إلى ذلك كثيرون ومنهم مسعود صحرابي (٢٠٠٥) الذي يشير إلى أن أفعال الكلام قد جرى بحثها في تراثنا اللغوي ضمن "نظرية الخير والإشياء"، في مؤلفات عدد من البلاغيين العرب الذين أسماوا لهذه النظرية من أمثال: عبد القاهر الجرجاني، وأبي نصر الفارابي، وأبي علي ابن سينا، والقاضي عبد الجبار المعتزلي، ونجم الدين الكاظمي القزويني، وأبي يعقوب السكاكي، وسيف الدين الأمدى، وشهاب الدين القرافي، وفخر الدين الرازي، وأبي إسحاق الشاطبي، والإسبرايدي، وابن الحاجب، وابن يعقوب المغربي، وسعد الدين التفتازاني، وغيرهم ممن استعملوا أدوات التحليل المنطقية والتداولية في تحليل الظواهر الأسلوبية وتطبيقها على أصناف من الخطاب العربي في الطبقات المقامية المتباينة.

يشير صحرابي كذلك إلى أن ظاهرة الأفعال الكلامية عند الأصوليين، قد انقسمت إلى نوعين أساسيين: أفعال كلامية منبثقة عن الخير، وأفعال كلامية منبثقة عن الإشياء، مع إلحاحه على تداولية ظواهر أسلوبية كثيرة بحثها الأصوليون والفقهاء مثل ألفاظ العقود والمعاهدات باعتبارها "أفعالاً كلامية" تتحقق فيها "الحمولة الإنجليزية".

بلفتنا التعبير الأخير في الفقرة السابقة إلى مشكلة حقيقة نكتف بتناولنا - نحن العرب - منجزات الغرب في مجال علم اللغة وغيره، ألا وهي مشكلة الترجمة، وإلى ذلك نرد إشارات أخرى في غير موضع من هذا التيسيط. ما الذي تعنيه عبارة "الحمولة الإنجليزية" لمن لم يطالع أصلها الغربي؟ تتعلق المشكلة الثانية بتهاافت مقولات المسبق المعرفي التي لم يعد لها محل من الإعراب إذا جاز التعبير.

لا ينبغي أن تكون الغاية هي إثبات سبق البلاغيين العرب في هذا الصدد أو غيره، بل ينبغي أن تكون الغاية مراجعة التراث البلاغي العربي، والإفادة من منجزات اللغويات الغربية الحديثة في سبيل بلاغة عربية جديدة. ربما يبدو هذا قولاً مكروراً، لكن التكرار في هذا المقام واجب.



## صدق الخبر وكذبه

"وعليه، فتعريفُ البلاغيين الخبر في الذمّس البلاغي بأنّه ما احتمل الصدق والكذب - بزعمهم - تعريفٌ غيرُ مانع أبدا... لأريت لو أن شخصا نادى غيره، أو أمره، أو نهاه، وهو لا يقصد ذلك ألا يكون كاذبا؟ بلى والله! فإنما الكذب مخالفة العبرة لمقتضى الواقع، وهذا منه؛ لأنّ المنادي، أو الذاعي، أو الناجب، أو المُستغيث، أو الأمر، أو التامى ... إلى آخر ما صنّفوه في معنى الإنشاء، كل ذلك إذا لم يصانف إرادة في نفس المتكلم وقصدا فهو كذبٌ محض. فالإنشاء إذن - بهذا المعنى الوجودي - يحتمل الصدق والكذب أيضا. وهل يتوجّع المتوجّع لغير وجع؟ وهل يستغيث المُستغيث لغير فرّج؟ (فريد الأنصاري: "كلمات الله في معركة السلام"، مجلة هراء، ع ١٦، ٢٠٠٩، ص ص ٣١-٣٤).

أفعال لغوية سياسية - أمثلة مترجمة من دراسة عطونه Atawneh (٢٠٠٨)

(١) "عرفات يطالب العرب بسرعة التحرك لمساعدته في الخروج من مأزقه" (Al-Quds Daily، ١٨ إبريل ٢٠٠٢). (٢) "ملك المغرب يُدين السياسات الإسرائيلية أمام الاتحاد البرلماني" (Al-Quds Daily، ١٨ مارس ٢٠٠٢). (٣) "إذا لم تتسحب من الكويت سحباً كاملاً غير مشروط، فسوف تخسر الكويت وأكثر" (من خطاب يوش الأب إلى صدام حسين، ٩ يناير ١٩٩٠). (٤) "وزير الأمن الإسرائيلي يقول: سوف نتحم مناطقهم، ونحطم جهاز الأمن الفلسطيني، حتى ننتهي إلى تدمير السلطة الفلسطينية" (New York Times، ١٨ يوليو ٢٠٠٢). (٥) "شارون يقول: إسرائيل تُريد أن تمحو حماس كقوة عسكرية سياسية قبل أن يحدث أي انسحاب" (Al-Ahram Weekly Online، ١٦-٢٢ إبريل ٢٠٠٤). (٦) "تيمون بيريز يقول إن دم الرنتيسي لا بد أن يسكك انتقاماً من مقاومة حماس وهجمات على أهداف إسرائيلية" (Al-Ahram Weekly Online، ٢٢-٢٨ إبريل ٢٠٠٤). (٧) "إسرائيل ترفض قرار الأمم المتحدة بشأن عرفات" (AP Online، ٢١ سبتمبر ٢٠٠٣). (٨) "حماس تتوعد بخطف الجنود" (Jerusalem Post، ١ فبراير ٢٠٠٤). (٩) "يقول الرنتيسي إن عبارة وقف إطلاق النار ليست من مفردات قاموس حركة حماس" (Jerusalem Post، ١٥ يونيو ٢٠٠٣). (١٠) "مسؤولون فلسطينيون يحذرون من محاولات إسرائيلية لاغتيال عرفات" (Xinhua News Agency، ٢٥ مارس ٢٠٠٤). (١١) "عرفات يلتئم من الولايات المتحدة التخلّ لوقف حُمام الدّم والجرائم الإسرائيلية" (Al-Ahram Weekly Online، ٢٢-٢٨ إبريل ٢٠٠٢). ومن نفس المصدر كذلك: (١٢) "السلطة الوطنية الفلسطينية تلتئم من الصليب الأحمر إقصاد حياة الجرحى". (١٣) "الفلسطينيون يلتئمسون من دول العالم التخلّ لرفع الحصار". (١٤) "عرفات يطالب المملكة المتحدة بالمساعدة في دفع عملية السلام". (١٥) "وزارة الأوقاف تستنكر منع إسرائيل الفلسطينيين الوصول إلى المسجد الأقصى". (١٦) "عرفات يستنكر محاولة إسرائيل اغتيال الرنتيسي" (ومن ذلك أيضا أفعال الشجب والإدانة والاستهجان، وغيرها، مما يملكه قتلوا الحيلة، وربما غير ذوي المصالح، من أساليب لغوية. ليس غريباً ما انتهى إليه عطونه وخلاصته أنّ الأقوياء - إسرائيل والولايات المتحدة - هم من يملكون صلاحيات التقرير، والتهديد، والوعيد. أمّا الضعفاء والمستضعفون - ومنهم الفلسطينيون - فلا يملكون إلا الاتمسك، والشجب، والإدانة، والاستنكار، وحين يطالبون أو يلحون، فمن قبيل العثم).

## التأدب والكياسة

"التأدب" هي ترجمة عناني (١٩٩٦) لمصطلح politeness، وهي تتسم مع ما نعرفه عن "أدب الحوار"، و"الأدب والأخلاق"، و"أدب الدعاة"، وغيره، ومع التعابير الدارجة من قبيل: "ولد مؤدباً"، أو "مُهدباً"، و"قليل أدباً"، و"قلة الأدب"، و"تأديب الأبناء". ولعل عناني أثر "التأدب" على "الأدب" حتى لا يختلط الأمر بين الأدب بالمعنى الذي نتناوله هنا، والأدب بمعنى الشعر والمسرحية والرواية وما إليها. وربما جاز أن نترجم المصطلح إلى "اللباقة"، بمعنى "قول ما يليق"، لكن الترجمة ربما تتبس باللباقة (بالياء لا الياء) التي تعني الطلاقة اللغوية. وربما جاز أن نترجم المصطلح إلى "التهذب"، إلا أن الكلمة لا تبدو مستساغة - على صحتها. وربما جاز أن نلجأ إلى "الكياسة"، بمعنى التعقل والظننة، ومن ذلك اختيار ما يناسب من القول. الاختيار الأخير هو أكثر ترجمات المصطلح الإنجليزية رشاقة واستساغة. لكنني أثرت الصرامة الدلالية على الرشاقة، ولهذا وقع الاختيار على "التأدب" - مع تكليده أو استبداله بما يناسب من مرادفات وفق الحاجة أو الضرورة.

أول طرح لمبدأ التأدب Politeness كما نعرفه في التداولية الغربية الحديثة هو ما قُدمه روبن ليكوف Lakoff (١٩٧٣) - مع ملاحظة أنها من كتبت عن المرأة واللغة واللغة والحرب، لكنها ليست جورج ليكوف الذي كان له دور مهم في دراسة الاستعارة وبلورة مفاهيمها وأدوات تحليلها، وفي تحليل استعارات الحرب. تعتقد روبن ليكوف أن الحوار بطير بجناحين - مع أنها لا تستخدم هذه الاستعارة - هما الوضوح والتأدب be clear and be polite، وأن مبدأ التعاوني الذي طوّره جرابس قد وفي حق الوضوح، لكنه لم يُعر التأدب الاهتمام اللائق به. من هنا، وتأسيساً على أطروحات جرابس، طوّرت روبن ليكوف طرحها عن التأدب، وهو أكثر الأطروحات التي نتناولها هنا إيجازاً - وهذا بعض ما يؤخذ عليه - ويتكوّن من ثلاث قواعد كبرى هي:

§ لا تفرض نفسك (أو آراءك أو ذوقك) أو ثقمتها على الآخرين Do not impose

§ اترك لغيرك حرية الاختيار Give options

§ اجعل الآخرين يشعرون بالبهجة والارتياح Make people feel good

هذه القواعد لا ترد في أدبيات الكياسة والتأدب الغربية الحديثة بوصفها "نظرية"، لكن تبقى للمقاربة وجاقتها ومشروعيتها. إن هذه القواعد الثلاث تختصر جل ما جاء بعدها من تصورات، ويبقى لها فضل السبق والريادة.

ونستطيع أن نعيد صياغة هذه القواعد أو شرحها من خلال تصور مفاده أن التذنب يتراوح ما بين الإحجام والإقدام (وقد وجدتهما "الاحترار" و"التونذ" في دراسة مجهولة المؤلف)، ومساحة من الاختيار فيما بينهما. لنتصور مثلاً صديقاً أصابه البرد، ولنتصور ثلاثة ردود أفعال إزاء مرضه العارض: الأول، أن تتجنب صديقك حتى لا تشعره بالضيق، وحتى لا يصدر منك ما يوحي بأنك تخشى العدوى؛ والثاني، أن تبادر بالسؤال عنه، والتخفيف عنه؛ والثالث، بين هذا وذاك، بعض إحجام وبعض إقدام.

ولنتصور قياساً على ذلك شخصاً فقد عزيزاً أو حبيباً، ولنتصور ثلاثة ردود أفعال إزاء ما أصابه: الأول، أن نتركه وأحزانه حتى لا نضاعفها؛ الثاني، أن تبادر بالسؤال عنه والمواساة والتخفيف عنه؛ الثالث، بين هذا وذاك، بعض إحجام وبعض إقدام: أن نخفف دون إحاح، وأن ننصح بالصبر دون وصاية أو تضيق.

كيف نختار ما بين الإحجام والإقدام؟

الإجابة عن السؤال تكمن في طبيعة العلاقة بين طرفي الحوار - هل هي جفاء ومسافة، أم حميمية وألفة. حين يتعلق الأمر بعزيز في قومه لا تربطنا به علاقة شخصية أو بمن لا نعرف، عادة نؤثر الإحجام، لكن حين يتعلق الأمر بصديق أو حبيب أو قريب، نؤثر الإقدام.

### فوائد قل ما يجمعها كتاب

"فقدت بخطي في الأعوام الكثيرة وجمعت من تلك فوائد قل ما يجمعها كتاب أو يحويها لغزتها وغرايتها إهاب إلا أنها ليست مرتبة على مثال ولا مهذبة بطريقة ما نسج على منوال أردت أن أخص منها أنباء ما يدور مصر من الآثار الباقية عن الأمم الماضية والقرون الخالية.. وأثر خلال ذلك نكتا لطيفة وحكما بدية شريفة من غير إطالة ولا إكثار ولا إجحاف مقل بالفرض ولا اختصار بل وسط بين الطرفين وطريق بين بين قل هذا سمعته...

وإني لأرجو أن يحظى إن شاء الله تعالى عند الملوك ولا ينبو عنه طباع العاصي والصلوك ويجله العالم المنتهي ويعجب به الطالب المبتدئ وترضاه خلّاق العابد التامك ولا يمجه سمع الخليع الفاتك ويتخذة أهل البطالة والرفاهية سمرا ويعده أولو الرأي والتدبير موعظة وعبرا يستلون به على عظيم قدرة الله تعالى في تبديل الأبدال ويعرفون به عجائب صنع ربنا سبحانه من تنقل الأمور من حال إلى حال، فإن كنت أصنعت فيما جمعت وأصبت في الذي صنعت ووضعك فذلك من عظيم منن الله تعالى وجزيل فضله وعظيم نعمه علي وجليل طوله وإن أنا أسأت فيما فعلت وأخطأت إذ وضعت فما أجدر الإسمان بالإساءة والعيوب إذا لم يعصمه ويحفظه علام الغيوب... فليسيل التنظر في هذا التأليف على مؤلفه ذيل ستره إن مرت به هفوة وليغض تجاوزاً وصفحاً إن وقف منه على كهوة أو نبوة فأبى جواد وإن علق ما يكبو وأي غضب مهند لا بكل ولا ينبو لاسيما والخاطر بالافتكار مشغول والعزم لالتواء الأمور وتصورها فتر محلول والذهن من خطوب هذا الزمن القطوب كليل والقلب لتوالي المحن وتواتر الإحزن عليل.. (من فاتحة الخطط المقرزية).

من الطريف أن نقرأ هذه الفتحة في ضوء ما يرد في هذا الفصل من نظريات، فنرى ما فيها من توتر بين مدح الذات والكتاب من ناحية، والتوسل إلى الله تعالى أن يحقق الكتاب القبول وإلى القارئ أن يغض الطرف عما يجد فيه من قصور من الناحية الأخرى، بين الوعي بما بذل المؤلف من جهد وتبرير ما يمكن أن يقع في الكتاب من قصور.

هذه القواعد

ليست عامة

على كل حال،

لكنها تخضع

لما لا حصر له

من اعتبارات

وعوامل تتصل

بطبيعة الموقف

وسببته

وأطرافه.

يصدق هذا

كذلك على ما

ذهبت إليه

ليكون في

موضع آخر

(١٩٧٥) من

أن النساء أكثر

كياسة من

الرجال وفق

تعريفها

وتوصيفها

الكتاب،

فليست كل

النساء أكثر

(أ) سوف نفتقد بل وأجاثا، أليس كذلك؟

(ب) بلى، سوف نفتقد بل. (ص ٨٠)

في هذا الحوار القصير يتفق (ب) ولو جزئياً مع (أ)، وبعض الاتفاق خير من الاختلاف، لكن (ب) لا يراعي قاعدة الكمية في مبدأ جراس التعلوتي، حيث يتجاهل "أجاثا" تماماً. تفسير ذلك أن (ب) ربما ليس لديه من الخير ما يمكن أن يقول عن "أجاثا"، فيؤثر الصمت على أن يقول ما لا يسر.

هكذا يفسر مبدأ التآذب كثيراً من الاختيارات البلاغية. تلك الاختيارات تتشكل من خلال التوثر بين الغايات التواصلية والغايات الاجتماعية. يقترح ليتش أربع صيغ للتعامل مع هذا التوثر على أساسها يمكن تصنيف أفعال اللغة/الكلام إلى (ص ص ١٠٤-١٠٥):

§ تنافسية competitive: وفيها تتعارض الغاية التواصلية مع الغاية الاجتماعية، لكن التعارض ربما لا يؤدي إلى التضحية بأى منهما، كما في الطلب والأمر.  
§ تعاونية collaborative أو محايدة: ليس فيها للغاية التواصلية من أثر ملحوظ على الغاية الاجتماعية، كما في الإخبار والتقرير، طالما لم يكن أي منهما وثيق الصلة بالمتكلم أو السامع.

§ متناغمة convivial: وفيها انسجام وتناغم بين الغاية التواصلية والغاية الاجتماعية، كما في الشكر والتهنئة والتحية.

§ صدامية conflictive: وفيها صراع حاد، بل أكثر حدة من مجرد التنافس، بين الغايتين التواصلية والاجتماعية، كما في توجيه الاتهامات والسب والإهانة.

توثرات أخرى يستخدمها ليتش في صياغة مبدأ التآذب، بين الأرباح benefits والخسائر أو التكاليف costs، بين المدح praise والذم dispraise، بين الشقاق disagreement والاتفاق agreement، بين التعاطف sympathy والشماتة antipathy (ص ص ١٢٣-١٢٩).

أما القواعد التي ينتظمها مبدأ التائب من وجهة نظر لبيتش فهي كما يلي، مع ما يلزم من تصرف:

§ اللياقة Tact: لا تكلف غيرك أكثر مما تكلف نفسك، ولا تمنح غيرك أقل مما تمنح نفسك.

§ الكرم Generosity: لا تكلف نفسك أقل مما تكلف غيرك، ولا تمنح نفسك أكثر مما تمنح غيرك.

§ الاستحسان Approbation: أكثر من مدحك غيرك، وأقل من ذمك غيرك.

§ التواضع Modesty: أكثر من ذمك نفسك، وأقل من مدحك نفسك.

§ الاتفاق Agreement: أكثر من الاتفاق، وأقل من الشقاق مع غيرك.

§ التعاطف Sympathy: أكثر من التعاطف مع غيرك، وأقل من الشفقة في غيرك.

من الواضح أن لكل قاعدة من هذه القواعد وجهين: أحدهما يتعلق بالمتكلم أو الكاتب، والثاني يتعلق بالمتلقي أو الطرف الآخر؛ أحدهما يتعلق بالسلب أو التخفيف (فيما هو ضار أو قبيح)، والثاني بالإيجاب أو المبالغة (فيما هو نافع وطيب)، فإذا كنت في مقام اللوم أو العتاب، فأقل منه ما استطعت، وإذا كنت في مقام الامتنان أو التهنية، فأكثر منهما ما استطعت. من التائب أن تمدح الآخرين، لكن ليس منه أن تمدح نفسك، فإن كان لا محالة، فقليل منه يكفي، ومن التائب أن تلوم نفسك، لكن ليس منه أن تلوم الآخرين، فإن كان لا محالة، فقليل من اللوم المهذب يكفي، ويظل الإحجام مقدما على الإقدام، وتظل السلطة الاجتماعية - حتى إن كانت مؤقتة أو مشروطة - والألفة عاملين مؤثرين في تحديد الأسلوب المناسب للتعبير عن التائب.

إلى هذه القواعد يضيف لبيتش تحديداً كل ما هو مبهم، من هنا تبدو جملة "مقالتك رديئة" أقل كياسة من "مقالتك إلى حد ما رديئة" ومن "مقالتك جميلة ولكن...".

يضيف لبيتش كذلك قاعدتين هما المدح في صورة الذم Banter، والذم في صورة المدح Irony أو السخرية. يقع الأول بين الأصدقاء المقربين الذين زالت بينهم

الحوار التي تستلزم التآذب، فيكون السبُّ والشتائم والخشونة والتنازير تعبيراً طريفاً عن الألفة، أما الثاني، فيهدف إلى تجنب النقد المباشر أو الفظاظة الظاهرة، فتقول لنص أدبي ردي "هذه رائعة أدبية!"

يظل مبدأ التآذب الذي طوره لينثن نظرية مهمة ومقاربة مشروعة، لكنه لم يحظ بما يستحق من اهتمام في الدراسات التداولية، وظل يعاني تحيز هذه الدراسات إلى نظرية براون ولقسنون Brown and Levinson (1987/1978). تنطلق نظرية براون ولقسنون من مقولات عالم الاجتماع ايرفينج جوفمان Goffman حول صياغة الاطباعات وتشكيلها، وكذلك من الكتابات المؤسمة لأوستن وسيرل وجرايس.

وتدور النظرية حول مفهوم ماء الوجه face، إن حفظاً وإن إراقة، فبعض ما نقول أو نكتب فيه حفظ face-saving، وبعضه فيه إراقة face-damaging، وبعضه ينذر بإراقة ماء الوجه face-threatening - ماء وجه المتكلم (أنا) self-face، أو المتلقي (الأخر) other-face. وكما هو الحال فيما سبق، يظل للكياسة وجهان هما الإحجام والإقدام - هما التآذب السالب أو السلبي negative politeness، والتآذب الإيجابي positive politeness في نظرية براون ولقسنون - وهما يقابلان حاجة البشر إلى الخصوصية والتحرُّر من الضغوط ومن فضول الآخرين وتطفُّلهم negative face من ناحية، وإلى الشاء والاستحسان والقبول positive face من الناحية الأخرى (براون ولقسنون، 1987، ص ص 61-62).

وكما هو الحال فيما سبق، نظل سلطة المشاركين في الحوار والمسافة أو الألفة بينهم أو بينهما تحدد أسلوب التآذب ومقداره واتجاهه (براون ولقسنون، 1987، ص ص 77-78)، حيث يصلح الإحجام إجمالاً مع من لهم سلطة أو نفوذ علينا، ويصلح الإقدام مع من تجمع بيننا وبينهم ألفة أو مودة.

حين يكون المتكلم في مقام التلطف بما يحتمل إهانة، أو إساءة، أو تكليفا، أو لوما، أو زجرا، مما يهدد بإفراق ماء وجه من يكلم أو وجهه هو، تبقى أمامه مجموعة من الاختيارات. الاختيار الأول: بين أن يتلفظ بذلك وألا يتلفظ به. إذا اختار، أو كان عليه أن يتلفظ بما يحتمل شيئا مما سبق، يبقى لديه الاختيار بين التصريح **on-record**، والتلميح **off-record**. حتى إذا اختار التصريح، بقي أمامه أن يفعل ذلك دون مداراة أو تهوين أو تخفيف أو تلطيف **without redressive action**، أو أن يفعل مع شيء من التلطيف والتخفيف **with redressive action**. إذا اختار التخفيف والتلطيف، فقد اختار التأدب، وبقي عليه أن يختار بين نوعين من التأدب تكررت الإشارة إليهما من قبل - الإحجام والإقدام (براون ولغسون، ١٩٨٧، ص ٦٠، ٦٩).

ولنضرب لما سبق مثلا. أنت تريد أن تقترض بعض المال من صديق. أمامك في البداية طريقان: أن تسأله المال أو ألا تسأله (لعله يفهم من تلقاء نفسه). إذا قررت أن تسأله المال، فأمامك طريقان: أن تصرّح أو تلمح (تخبره عن ظروفك الصعبة غير المواتية وضرورات الحياة التي لا تنتهي - وربما لا يفهم، وربما يفهم فلا يبالي). إذا اخترت التصريح، بقي أمامك أن تفعل ذلك دون تلطف أو تلطيف ("أقرضني مبلغ كذا وكذا" أو "عاوز ..... أو "هات ....."، أي "أحتاج" أو "يعوزني")، أو أن تفعل مع شيء من التخفيف والتلطف ("من فضلك ....."، و"كو معذكش متاع ....."، و"مممكن لو سمحت ..."، أو "تكرمًا"، و"إذا لم تكن متاع"). في هذا المخطط كثير من التبسيط غير أن له وجاهته.

وفي تفصيل نوعي التلطف أو التأدب يطرح براون ولغسون عددا من الأساليب البلاغية التي تندرج تحت الإحجام (التأدب السلبي) والإقدام (التأدب الإيجابي) (براون ولغسون، ١٩٨٧، ص ١٠٢-١٢٩، ١٢٩-٢١١، والأمثلة هنا من اللغة العربية). تشمل أساليب الإحجام أو الكف والممنوع ما يلي: المواراة وتجنب المباشرة، ووضع الطلب في صورة تساؤل، والتعبير عن التمني، واستخدام صيغ التوقير



والاحترام ("حضرتك" و"سعادتك" و"أطل عرك" و"قخامتك" و"سموك"), والاعتذار  
وطلب القبول ("أسف للإزعاج ...", و"معذرة ...", و"أرجو أن تسامحني ..."),  
وتجسب صيغ الخطاب المباشر "أنا" و"أنت" ("كيف يمكن الوصول إلى ..."), وتفضيل  
الصيغ المصدرية على الفعلية ("منوع التدخين" بدلا من "نحن نمنعك من أن تدخن")  
والتصميم ("حسب اللوائح والتعليمات، يُمنع ..."), وحفظ الجميل والاعتراف به  
("سأكون معتبا غاية الامتنان لكم ..."), واستخدام صيغة الجمع ("على السادة  
الركاب المسافرين ...", و"نعذر" بدلا من "اعتذر"), والتخفيف ("فقط أردت أن أسأل  
إذا كان من الممكن أن ..."), واستخدام صيغة الماضي ("أردت أن ...", و"كنت أود  
أن ...").

وتشمل أساليب الإقدام أو المنح ما يلي:

مراعاة حاجات الآخرين ("لا بُد أنك جوعان"), والاستحسان والاهتمام والمبالغة فيهما  
كلما كان ذلك ممكنا ("ما أروع قصيدتك!"), و"أعجبتني مداخلتك اليوم جدا", و"حلوة  
خالص", و"وايد حلوة", و"ممتاز!"), والتعبير عن الألفة من خلال الصيغ الدارجة  
("هات يا عم البناعه دي", و"رسمه عودة", و"أيش لونك?", و"أزيّ الحال?"), وتجسب  
الاختلاف والشقاق ("دا صحيح", و"أنا أتفق مع ما تقول") وطلب الوفاق والاتفاق، بل  
افتراض وجودهما أحيانا ("سوف نلتقي غدا، أليس كذلك?"), و"هنشوفك بكرة", و"أنت  
جاي معنا، مش كده?") وافتراض وجود أرضية أو خلفية مشتركة بين المتكلم  
والسامع ("كما تعلم ...", و"تعلمون أن ..."), والفكاهة، والمبادرة الكريمة والوعد  
بما يسنر ("أزورك غدا إن شاء الله") والتعبير عن الترابط والمشاركة ("كيف حالنا  
اليوم?"), و"لا، إحنا النهارده عال العال", و"مشينا"), وتقديم المبررات والأعذار كلما  
لزم الأمر ("لقد تأخرت ...", و"لا بُد أن أذهب الآن ..."), والتعاطف ("تبدو مرهقا  
اليوم"), والعطاء في مقابل الأخذ ("أرد لك هذا الجميل يوما", و"هذا دين في عني").

هنا ينتهي الكلام  
 عن مبدأ التآدب  
 في الدراسات  
 التداولية  
 الغربية، لكن  
 هذه الدراسات  
 حظيت بما لا  
 نستطيع له هنا  
 حصرًا من  
 مقاربات  
 ومراجعات أقدت  
 على ما تعالني  
 منه هذه  
 الدراسات  
 والتصورات من  
 تجريد، ومن  
 تحيز إلى  
 الثقافة الغربية،  
 ومن تبسيط  
 مخّل في تصنيف  
 التآدب إلى إقدام  
 أو إحجام، دون  
 معالجة الدرجات  
 الرمادية فيما

### الكلمة الطيبة

M(3D3gk & pffs dty + x pffs p/ x VAB ? \$ z u y | x t9 NB&  
 ? \$ U . @ 3gub| j . B im @ 3g2 @ AE' . ' 3/1 3B p3y' @  
 dty + x pffs p/ x 3B @ . ' c r'2 x 0 Og|j9 h \$ 3A3MF \$  
 (سورة) AE' . ' 3B% . B 3g8 3B' F\$ - qh' B MIQ\_ \$ pffs  
 إبراهيم).

في القرآن الكريم، وهو معن البلاغة العربية الأول، أشارت  
 لخرى إلى فضيلة الكلام الطيب. ومن ذلك خطاب الله عز وجل  
 رسوله صلى الله عليه وسلم

q xfv = 3B AE x \$ @ MY qh (Ng8 MZ8) \$ z B p/ mu 3/ 3  
 MBd 3z ( QF \$ pNB r3x o Nm' IG \$ NHt # ' \$ 3 (y 3gn' B  
 @ qh (سورة آل عمران).

وفي صحيح البخاري مما ورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم  
 كتاب للأدب من بين ما نجد فيه: (١) "حدثنا قتيبة بن سعيد: حدثنا  
 أبو الأحوص، عن أبي حصين، عن أبي صالح، عن أبي هريرة  
 قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من كان يؤمن بالله  
 واليوم الآخر، فلا يؤذ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر،  
 فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيرا أو  
 ليصمت"، (٢) "حدثنا أم: حدثنا شعبة: حدثنا سعيد بن أبي بردة  
 بن أبي موسى الأشعري، عن أبيه، عن جده قال: قال النبي صلى  
 الله عليه وسلم: على كل مسلم صدقة. قالوا: فإن لم يجد؟ قال:  
 فبعمل يديه فينفع نفسه ويتصدق. قالوا: فإن لم يستطع أو لم  
 يفعل؟ قال: فبعين ذا الحاجة الملهوف. قالوا: فإن لم يفعل؟ قال:  
 فليأمر بالخير، أو قال: بالمعروف. قال: فإن لم يفعل؟ قال: فليمسك  
 عن الشر فإنه له صدقة"، (٣) "وقال أبو هريرة، عن النبي صلى  
 الله عليه وسلم: الكلمة الطيبة صدقة"، (٤) "حدثنا أبو الوليد: حدثنا  
 شعبة قال: أخبرني عمرو، عن خيثمة، عن عدي بن حاتم قال:  
 ذكر النبي صلى الله عليه وسلم النار، فتعوذ منها وأشاح بوجهه،  
 ثم ذكر النار فتعوذ منها وأشاح بوجهه، قال شعبة: أما مرتين فلا  
 أشك، ثم قال: اتقوا النار ولو بشق تمره، فإن لم تجد فيكلمة  
 طيبة، وفيه الصحيح كذلك كثير عن بر الوالدين، وصلة الرحم،  
 والرحمة، وحسن الخلق، والرفق، والتواضع، والأمانة، والوفاء.

بينهما، ودون اهتمام مناسب بنقيض التأنيب، أي الوقاحة أو البذاءة ("قصة الألب"). حتى الدراسات التداولية العربية - التي تبقى حبيسة المكتبات الجامعية - تتناول من منظور غربي. وحين تُترجم نظرية التأنيب خصوصا والتداولية عموما إلى العربية، ينتهي الأمر إلى نصوص غريبة تستعصي على الفهم، وتضطر قراءها إلى الرجوع إلى الأصول الغربية. هذا إلى ما نألفه من تهافت ادعاءات السبق الحضاري والاختيار غير الواعي بين بلاغة عربية قديمة دون تجديد أو مراجعة، وبلاغة غريبة بفضتها وأفضيتها، دون تفنيد، ودون اهتمام بالسياق الثقافي الذي تطوّرت فيه.

## كياسة أون لاين

لم ينضب بعد معين البحث في التادب. مازال ينتقل من جنس خطابي إلى آخر، وتتواله الدراسات في مختلف اللغات والثقافات، ويستجيب لمتغيرات العصر فيتجلى في آداب وأخلاقيات استخدام الانترنت أو **netiquette** التي نجد شرحاً مفصلاً لها في كتاب فيرجينيا شيا Shea (٢٠٠٤). من تلك الآداب:

§ تأكيد البعد الإنساني، لأن وراء الأجهزة والشاشات والرسائل البريدية والردشة والمنتديات بشراً يشعرون ويعقلون.

§ التزام نفس الآداب والقواعد الأخلاقية والسلوكية التي ينبغي الالتزام بها في الواقع البشري الذي ألفناه عند الانتقال إلى الواقع الافتراضي الذي لم يعد هناك سد من معاشته، على معنى أن القواعد التي وردت فيما سبق صالحة للتطبيق في الواقع الجديد، مع ملاحظة ما يتسم به من خصائص وما يستخدم من وسائط.

§ الوعي بالمكان والمقام في هذا الفضاء الواسع حتى لا تقع فريسة الرسائل غير المرغوب فيها، والإعلانات المضللة، والقرصنة، والفيروسات، وغسيل الأموال، وحتى صنوف الاحتيال والتحايل، وحتى لا نوذي الآخرين، أو نلحق بهم الضرر.

§ احترام خصوصيات الآخرين وأوقاتهم وانشغالاتهم، لأن لهم أولوياتهم التي ربما لا تتفق مع أولوياتنا، والتزاماتهم التي ربما لا تشبه التزاماتنا.

§ حسن المظهر وحفظ ماء الوجه على الانترنت، فلا تفعل ما يشين، أو يثير الكراهية أو التنقز أو النفور.

§ تداول المعرفة وتقاسمها، وتبادل الخبرات والمهارات عبر ما يتيح الواقع الافتراضي من وسائط ووسائل.

§ مناهضة التعصب والحروب الكلامية، والتنازع، والإساءات المتبادلة بين أنصار المذاهب المختلفة، والفرق الرياضية المتنافسة، والعرقيات المتصارعة، والبلدان المتجاورة.

## بلاغة الصمت

وردت إشارة إلى الصمت، وهو جديرٌ بشيء من الاستطراء، فمعه، ومن مرافقه السكوت، ما يكون أبلغ أو أكثر كياسةً ولياقةً من الكلام، فيكون ذهباً حين يكون الكلام فضةً، ومنه ما يكون كلاماً بغير كلام، كما نجد في الثقافة العربية الإسلامية - "السكوت علامة الرضا". ليس كل الصمت بالقطع رضا أو قبول، فمعه ما يكون خوفاً، أو هروباً من الرقابة والمحاسبة - كما في "المسكوت عنه" من أمور الدين والسياسة والجنس - أو كمداءً أو خجلاً، أو حيرة، أو دهشة، وتبهاراً، أو تأملاً، أو استراحةً من الكلام، أو استعداءً له. ومنه ما يكون اضطراراً جسدياً، كما يحدث أثناء النوم والتنفس. ومنه ما يكون رعايةً لبعض الفنون أو التعليمات والآداب، كما نعلم في المكتبات العامة، وأثناء خطبة دينية. ومنه ما يكون صمت القرباء الذين لا يجمعهم جامع إلا مكان كالطائرة أو الحافلة. ومنه ما يكون استماعاً وطلباً للمعرفة أو المتعة، أو كليهما، يتبين في تركيزه، ووقاره يتبين ما يقل من تلاوة، أو محاضرة، أو خطاب سياسي أو أغنية. ومن الصمت ما يكون إجلالاً للموت، وما يصاحبه من حزن، وتعزية، وحنانة، وما يتلوه من جداد. ومنه ما يكون صيماً عن الكلام ولقاءً لنذر، كما فعلت السيدة مريم وروى عنها القرآن الكريم. ومنه ما يكون تعظيماً عن قول ما لا يليق - ولا بد أن ما "يليق"، ومن ذلك الكلام في الأمور الأسرية، والمسؤول عن العمر، والراتب، والحالة الزوجية، والديانة، أو المذهب، يختلف من سياق إلى آخر، ومن ثقافة إلى أخرى. ومن الصمت ما يكون إشارة إلى انتهاء حوار أو كلام. ومن الصمت والسكوت ما يكون قهراً، أو قمعاً يمارسه ذوو القوة والسلطان والتفوق على من سواهم. ومنه ما يكون جهلاً بما يقال، أو زوراً له، أو لمن يقولونه. ومنه ما يكون من قبيل ضعف الثقة بالنفس أو فقدانها، وما يصاحب ذلك من خوف الوقوع في الخطأ، والتعرض للسخرية. ومن الصمت ما يكون احتجاجاً، أو اعتراضاً، أو امتناعاً مؤقتاً عن الكلام في محكمة، أو أمام النيابة.

(انظر على سبيل المثال إيفرات Ephratt، 2008).

§ تجنب إساءة استخدام

ما يتيح الواقع الافتراضي لبعض "سكينة" من قوة أو سلطة وهيمنة مصدرها الخبرة، أو المعرفة، أو الإحاطة بما لا يحيط به الآخرون. ومن ذلك أن يتجنب مديرو المواقع والمشرفون على المنتديات الغظة، والفظافة، والسخرية، والتطاول في إصدار ونشر تعليماتهم.

§ التسامح والتجاوز عن

هفوات وأخطاء الآخرين التي ربما تتجم عن حداثة عهدهم بالواقع الافتراضي والياتيه، وأنواتيه، وقواعده. وربما يقتحم الدردشة أو المراسلات أو المنتديات أو المدونات قراصنة، وينجحون في إشعال فتيل الكراهية والحروب الكلامية بين المتحاورين.

## الإشارة

### عن الالتفات في القرآن الكريم

ما أبلغ خطاب هارون أخاه موسى عليهما السلام بما بينهما من صلة دم ورحم حتى لا يبلغ في لومه وتقريعه:

أقرب ما يكون من قوله: ﴿وَلَا يَخَافُ الْعَذَابَ﴾ (سورة طه)!

وفي البلاغة العربية وقلقت دالة عند ظاهرة الالتفات هذا الموضوع من هذا التبسيط - تنطلق من القرآن الكريم الذي يحفل بأمثلة لهذه الظاهرة، في التحول من المتكلم إلى الغائب أو المخاطب، ومن الغائب إلى المخاطب، ومن الغائب إلى المتكلم. من ذلك ما نقرأ في

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ (سورة القم).

أما ما يؤدي الالتفات من وظائف بلاغية في القرآن الكريم مما نجد في تفاسيره، فيشمل المبالغة، والتعجب، والتخصيص، والامتنان، والتشريف، والتذكير، والترهيب، وإقامة الحجة والعقاب، والتخفيف، والتوبيخ. ليس من المقبول إذن الوقوف - كما درجت بعض كتب البلاغة - عند "رفع السامة أو درء الملأ" بوصفها الغاية الوحيدة للالتفات.

تتجاوز التعابير

الإشارية أسماء الإشارة

(ذَا أو "هذا" و"ذي" أو

"هذه" و"ذلك" و"تلك"

وهذان" و"هاتان"

و"هؤلاء" و"اولئك" -

مع ملاحظة أن "هـ" أو

"ها" أضيفت للتبويه -

واشتقاقاتها العامية

المتنوعة من قبيل "دا"

و"دي" و"دولة" أو

"دولت" و"هذيلة")،

لكنها تشاركها طبيعتها

الدلالية، وهي الإحالة

إلى ما يفهم من سياق

النص - سياق اللغوي

وغير اللغوي الذي ورد

تفصيله فيما سبق.

من خلال تصنيفات

لغسون Levinson (١٩٨٣، ص ص ٥٤-٩٦)، وكروز Cruse (٢٠٠٠، ص ص ٣٢٢-٣٢٣)، وجرندي Grundy (٢٠٠٠، ص ص ٢٢-٤٧)، يمكن أن تلخص أصناف الإشارة فيما يلي، مع ما يلزم من توضيحات وأمثلة وإحالات إلى البلاغة العربية:

## الإشارة

### عن الالتفات في القرآن الكريم

ما أبلغ خطاب هارون أخاه موسى عليهما السلام بما بينهما من صلة دم ورحم حتى لا يبلغ في لومه وتقريعه:

أفأنت تعلم - ف (B A\ wo la # ا ء bfw PzBz A9%  
! (سورة طه) AE ~ عاقبة ككNBb @` ١ ) B١ B ١ MB9p

وفي البلاغة العربية وقلات دالة عند ظاهرة الالتفات هذا الموضوع من هذا التبسيط - تنطلق من القرآن الكريم الذي يحفل بأمثلة لهذه الظاهرة، في التحول من المتكلم إلى الغائب أو المخاطب، ومن الغائب إلى المخاطب، ومن الغائب إلى المتكلم. من ذلك ما نقرأ في

B B ١ MB9p Bz ~ ل١MB9p ١y NB١yZ B ) F١Bb)  
١. (سورة القم) AE ~ b9f3IB9 ١x/399B` ١ B B ١ MB9p

أما ما يؤدي الالتفات من وظائف بلاغية في القرآن الكريم مما نجد في تفاسيره، فيشمل المبالغة، والتعجب، والتخصيص، والامتنان، والتشريف، والتذكير، والترهيب، وإقامة الحجة والعقاب، والتخفيف، والتوبيخ. ليس من المقبول إن الوُفوف - كما درجت بعض كتب البلاغة - عند "رفع السامة أو درء الملأ" بوصفها الغاية الوحيدة للالتفات.

تتجاوز التعابير

الإشارية أسماء الإشارة (ذا أو "هذا" و"ذي" أو

"هذه" و"ذلك" و"تلك"

وهذان" و"هاتان"

و"هؤلاء" و"أولئك" -

مع ملاحظة أن "هـ" أو

"ها" أضيفت للتبويه -

واشتقاقاتها العامية

المتنوعة من قبيل "دا"

و"دي" و"دولة" أو

"دولت" و"هذيلة")،

لكنها تشاركها طبيعتها

الدلالية، وهي الإحالة

إلى ما يفهم من سياق

النص - سياق اللغوي

وغير اللغوي الذي ورد

تفصيله فيما سبق.

من خلال تصنيفات

لغسون Levinson (١٩٨٣، ص ص ٥٤-٩٦)، وكروز Cruse (٢٠٠٠، ص ص ٣٢٢-٣٢٣)، وجرندي Grundy (٢٠٠٠، ص ص ٢٢-٤٧)، يمكن أن تلخص أصناف الإشارة فيما يلي، مع ما يلزم من توضيحات وأمثلة وإحالات إلى البلاغة العربية:

## § الإشارة إلى (أو في) الخطاب discourse deixis :

"في الفقرة السابقة"، "فيما يلي"، "في هذه الرواية"، "فيما سبق". هذه إشارات نصبية تنظيمية تحول إلى أجزاء في النص أو الخطاب وتسمى إلى تنظيمه وتحقيق المسبك والحبك فيه. ومن ذلك الإشارات الشارحة - كما نجد في هذا الاقتباس - "الناظر" - من مقنعة قطعة من أوروبا لرضوى عاشور - وما تتخذ من خلاله بؤرة المسرد وزاويته: "في هذه الرواية أنا الناظر. ليس هذا الاسم هو ما اختاره لي والدي، ولا هو كنيته التي يناديني الناس بها، أنا الناظر لأن مهمتي النظر، أنقل عبر حكايته ما نظرت إليه من نظر العين والقلب، أي ما رأيته بالبصر والبصيرة. حين رجعت إلى المعاجم لأتأمل مادة "نظر" وأطمئن أن الاسم يفى تمام الوفاء بالغرض، استوفقتني عبارة "ناظر العين"، وهي النقطة السوداء الصافية التي في وسط سواد العين، وبها يرى الناظر ما يرى، وهي البصر نفسه، وهي أيضا عرق في الأنف (أو عرقان على جانبي الأنف) فيه (أو فيهما) ماء البصر، أترجمهما بلغتنا المعاصرة إلى قناة السمع. قلت هذا اسم يناسبني، ثم عدلت عن استخدامه لغرابته، وأيضاً لمنافاته الدقيقة، فما أرويه ليس البصر نفسه بل ما رأيته فأعجبني أو ساعني، أتفكر فيه وأقدره قياساً على موقعه مني وموقعي منه. ثم أعجبتني "نظيرة القوم" وهو طبيعتهم، ينظر إليه قومه، يمتلكون ما أمتلك، وهو طريقتهم، ولكني وجدت هذا الاسم الثاني تماماً كسابقه غير مألوف ويفتقد الدقة، فأنا، على عكس نظيرة القوم، رجل وحيد معتكف في داره، لست طريقة أهلي، ربما كان لي أهل أتعرف عليهم ذات يوم، ولكن هذا أمر مستبعد لأن العمر لن يمتد طويلاً. أنا الناظر، منظرتي تلة عمري، ألق عليها رقيباً وحارساً، أنتظر وأعتبر وأقدم دلائل المحبة، لأن النظر في لسان العرب دليل محبة، وترك النظر دليل انصراف أو بغض وكراهية. ربما كان هذا التوضيح زائداً عن الحاجة، يستيق الرواية بإعلان ما قد تشير إليه وتضمته، ولكني أردت رفع اللبس، لأن كلمة "الناظر" في العربية الدارجة في مصر تحول إلى مدير المدرسة، وفي الماضي غير البعيد كان الوزير المتفقد يدعى الناظر، يدبر شئون نظارته المحددة ويحكم سير الأمور فيها. لم



أصل مديراً لمدرسة في حياتي، ولا توفرت لي سلطة الإدارة والمديرين، ناظر المدرسة أو الوزارة ينأى المقام والمقال وتجربتي، كيف لي وأنا أقصد الدقة والأمانة أن أترك لاسمي الدال على مهنتي أن يسحب خيال القارئ إلى طريق مفارقة تغير المعنى وتعكسه؟ (رضوى عاشور: قطعة من أوروبا، ٢٠٠٣).

### § الإشارة الوجدانية empathetic deixis :

"هذا" للقريب و"ذلك" للبعيد، والبعيد هنا قد يكون مكانياً، أو زمنياً، أو شعورياً، وقد يكون تعبيراً عن التوقير والإجلال، من هنا تبدو غرابة تعبير من قبيل "هذا الماضي البعيد" إلا في سياقات خاصة، وبلاغة التعبير القرآني عن القرآن ذاته في سورة البقرة: "ذلك الكتاب لا ريب فيه". ومن جميل ما ورد في البلاغة العربية عن ذلك أن "المشار إليه ثلاث مراتب: قريبة وبعيدة ومتوسطة. فيشار إلى ذي القربى بما ليس فيه كاف ولا لام: كأكرم هذا الرجل أو هذه المرأة وإلى ذي الوسطى بما فيه الكاف وحدها: كأركب ذاك الحصان، أو توك الناقة، وإلى ذي البعدى، أي البعيد، بما فيه الكاف واللام معاً، كخذ ذلك القلم، أو تلك الدواة" (الغلاييني، ص ٢٩).

### § ظروف الزمان time deixis :

"الآن"، و"عندئذ"، و"صباح"، و"مساء"، وهكذا. لكل فعل أو حدث أتيته، فحين نقول "أنا الآن أقرأ"، تحيل "الآن" إلى زمن تعرفه الآن في هذه الجملة ويرتبط بها وترتبط به، وحين نقرأ "الآن حصحص الحق" على لسان امرأة العزيز في سورة (يوسف)، تحيلنا "الآن" إلى زمنها وزمن "يوسف" عليه السلام، لا زمانك أنت بينما نقرأ، ولا زماننا بينما نكتب.

### § ظروف المكان place deixis :

"هنا"، و"هناك"، و"ثم". ماذا نعني حين نقول "هنا"؟ نعني "هنا" حيث نقرأ أنت، أو "هنا" حيث نكتب أنا، أو "هنا" أخرى لمتكلم آخر. لا بُدَّ أن "من هنا وهناك" تعني من مكان/فضاء المتكلم في النص ومن فضاءات أخرى بعيدة.

## § الضمائر person deixis :

"أنا"، "نحن"، "هو"، "هي"، "هم"، "هن"، "هما"، "انت"، "انتِ"، "انتما"، "انتم"، "انتن". عن الضمير يقول ابن منظور في لسان العرب "كما أن أكثر المضمّر في العربية إن شئت جنت به، وإن شئت لم تأت به"، ويقول الرازي في مختار الصحاح "أضمر في نفسه شيئاً، والاسم الضمير، والجمع الضمائر، والمضمّر الموضع والمفعول".

## § الإشارة الاجتماعية social deixis :

"السيد"، "حضرة"، "عامة"، "استاذي الغاضل"، "القدم"، وما إليها، تضع المشار إليه في مكانة اجتماعية بالنسبة إلى من يستخدمها، فيما عدا ما يكثر اليوم من استخدامات ساخرة أو فكاهية. وينبغي أن نلاحظ أن الإشارات الاجتماعية وغيرها من صنوف الإشارة ربما تتضافر، أو تتعارض، أو تتناظر في نص ما لتحقيق بعض أغياته البلاغية. في اقتباس "الناظر" ضمائر متكلم تتضافر مع التعريفات الشارحة لتحديد دور المتكلم في الخطاب أو النص، والزاوية التي يعاينه منها المتلقي.

من الأهمية بمكان، إذن، أن نتناول النص من زاوية التعبير الإشارية. من تساؤلات التحليل في هذا الصدد ما يتعلق ببؤرة الأحداث، ونقطة انطلاقها، ومن ثمّ وجهتها، أو وجهاتها، وتحولاتها، وإدراك الشخصية المحورية ما يحيط بها من شخصيات وأماكن وأحداث بعداً، وتباعداً، أو قرباً وتقارباً، وتقرباً، ألفة، أو جفوة. سوف نرى فيما يلي من هذا التبسيط أن الإشارة بالغة الأهمية، وأنها تتجاوز مجرد التحديد والتصنيف والتمييز والتسمية أو النداء إلى تكريس الانتماءات، وصراع الهويات والاحييزات. لكن ينبغي التمييز بين الإشارة بالمعنى الذي ورد هنا وبين الإشارة بمعنى الحركة والإيماءة، وربما النظرة، أو الإشارة باليد، أو الكتف، أو الرأس، أو العين - مع أنّهما يتقاسمان القدرة على الإبلاغ والتأثير. ما نقصده هنا هو إشارة النص أو الخطاب إلى العالم الذي يحيط به، وإلى ما فيه من شخص، وما بينهم من علاقات تقارب، أو تباعد، مساواة، أو تمايز، وإشارة الخطاب إلى نفسه ومختلف أجزائه

ومكوناته. وسوف تعاود الإشارة الظهور بهذا المعنى في معرض الكلام عن ترابط النصوص وسبكها. أما الإشارة بمعنى الحركة والإيماء وما إليها فمجالها دراسة الاتصال غير اللفظي **nonverbal** التي تستلزم جهداً مستقلاً، لأنها تعين اللغة التقليدية على أداء ما يرد هنا من غايات ووظائف، أو تعوقها عن ذلك كله.

من ذلك ما ورد في القرآن الكريم في سورة مريم: **وَلَمَّا كَانَتْ تَرِيدُ أَنْ تُبْرِئَ بَعْدَهَا، وَفِي ذَاتِ الْوَقْتِ تَدْحَضُ الْإِتِهَامَ، وَكَانَ لَا يَدَّ لِتَحْقِيقِ ذَلِكَ مِنَ التَّوَاصُلِ، لَمْ تَجِدْ مَلْفَرًا مِنَ اللُّجُوءِ إِلَى الْإِشَارَةِ. وَلَقَدْ تَحَقَّقَ التَّوَاصُلُ مِنْ خِلَالِ الْإِشَارَةِ، وَدَلِيلُ ذَلِكَ أَنَّ الرِّسَالَةَ بَلَّغَتْ هَدْفَهَا، فَرَدَّ عَلَيْهَا قَوْمُهَا الْمَرْتَابُونَ بِقَوْلِهِمْ: "كَيْفَ نَكْتُمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا". فِي هَذَا السِّيَاقِ، حَلَّتِ الْإِشَارَةُ غَيْرَ اللَّفْظِيَّةِ مَحَلَّ اللُّغَةِ وَأَنْجَزَتْ وَظَيْفَتَهَا. هَذِهِ تَدَاوُلِيَّةٌ مُوَازِيَةٌ، لَا سَبِيلَ إِلَى الْإِحَاطَةِ بِهَا هُنَا، وَلَا الْوَفَاءَ بِحَقِّهَا، إِلَّا عَلَى سَبِيلِ "الْإِشَارَةِ" الْعَابِرَةِ.**

# 1

## اللغة، إذن، تشير

من خلال مناقشة نظرية أفعال اللغة، ومن بعدها الإشارة، ومن قبلهما السياق وعناصره، نستطيع أن نجعل القول فيما تفعل اللغة في أنها "تشير"، أو أنها "مؤشر" - وكلاهما ترجمة صالحة لكلمة *index*، فعلاً واسماً - بدلُ ويوحى، أما إلام تشير اللغة، وعلام تدلُّ، فهو على سبيل التلخيص، والكلام لبول تشيلتون وكريستينا شيفنر (٢٠٠٢، ص ٣١-٣٢)، مع ما يلزم من توضيح وتمثيل:

### • درجات اليقين والشك :

موقف المتكلم مما يقول، والكاتب مما يكتب، من حيث اليقين أو الشك، ومن ذلك ما نجد في "أنا أعتقد"، و"أزعم"، وأظن"، و"مما لا شك فيه"، و"الحقيقة"، وفي "الواقع". وقد نلاحظ أن اللغة الإعلامية في غير دولة من الدول العربية تتجرّد بالتدريج من محتواها، فنسمع على سبيل التمثيل لا الحصر، "يمكن النهارده نحسب نرحب بـ"، ويذهلنا ما يحتشد في برامج "التووك شوو" - أو البرامج الحوارية - من تعبير من قبيل "في الواقع" و"في الحقيقة"، وهذا الغياب اللافت لتعبير الشك والاحتمال في ثقافتنا العربية.

### • العاطفة والوجدان، أو الحالة الشعورية :

من خوف أو حباً أو كراهية، وما تشم به لغة الميامة من تعبير عن الوطنية *patriotism*، أو حب الوطن والانتماء، وكراهية الغريب والأجانب *xenophobia*، إذا لزم الأمر.

• الغاية أو المقصد، أو الفعل الذي يُراد إنجازُه من خلال الكلام أو الكتابة :  
وقد تقدم الكلام عن تلك الأفعال، على أننا لا بدّ أن نبقى على الحذر اللازم إزاء ما نجد في لغة السياسة والإعلام من خبر يُرادُ به الإنشاء، أو تقرير لا يُرادُ به مجرد التقرير، بل الاتهام أو النوم، أو وصف في إعلان لا يُرادُ به مجرد الوصف، بل الدعوة إلى الشراء. ومن كلام الجاحظ ما ورد في استطراد سابق بعنوان "وهذا كتاب:" "و هذا كتابٌ موعظةٌ ... والكثرة من السامة...". وقد تقدم أن من غايات هذه المقنمة ومقاصدها: التبرير - تبرير المزح والفكاهة في مقام الجد - والتتويه إلى ما يسعى الكتاب إلى إنجازِه وتوصيلِه - "موعظةٌ وتعريفٌ وتلفُّهٌ وتنبيةٌ".

• جنس الخطاب، سواء أكان كلاماً أم كتابة :

في كلِّ نصٍّ أو خطابٍ بعض ما يشير إلى نوعه، سواء كانت الإشارة ظاهرة شارحة - من قبيل "سوف احكي لكم حكاية"، أو "فيما يلي بيان وزارة الداخلية"، أو "والآن مع النشرة الجوية" - أو تركيبية شكلية - فالنص الذي يتشكل من أبيات كل منها من شطرين أغلب الظن أنه قصيدة، والموسيقى التي تصاحبها كلمات منقصة أغلب الظن أنها أغنية، وهكذا.

• هويّات المشاركين في الخطاب، وانتماءاتهم الاجتماعية والسياسية والعرقية :  
وقد تقدم الكلام عن ذلك. لا تكنفي هذه المقنمة بالكلام عن جنس الكتاب - وهو التاريخ أو الكتابة التاريخية، عن "أنباء ما بديل مصر" - وأسلوبه - "من غير إطالة ولا إكثار ولا إجحافاً" - والتعبير عن التوثّر بين مدح الذات والكتاب من ناحية، والتوسك إلى الله تعالى أن يحقق الكتاب القبول وإلى القارئ أن يفضّ الطرف عما يجد فيه من قصور من الناحية الأخرى، بين الوعي بما بذل المؤلف من جهد، وتبرير ما يمكن أن يقع في الكتاب من قصور، بل تتجاوز ذلك إلى الإشارة إلى انتماء الكاتب وخلفيته الدينية الإسلامية - "عجائب صنع ربنا سبحانه" و"فذلك من عسيم مسنن الله تعالى وجزيل فضله وعظيم أنعمه علي وجليل طولته" و"إذا لم يعصمه ويحفظه علام الغيوب".

• أدوار المشاركين في الخطاب، والعلاقات التي تربط بعضهم ببعض، وتبادل

الأدوار وتغيرها :

فالمدرس في المدرسة زوج وأب في البيت، وصديق في جلسة الأصدقاء، وهكذا. ولكن دور لفته التي تميزه عن غيره من الأدوار، ولكن علاقة لفتها - كما يرد في غير هذا الموضع من التبسيط - ولكن ارتباك مقصود بين الدور واللفة التي ترتبط به في نص أو خطاب غاباته البلاغية التواصلية.

## التداولية العامة

• طوّر يورجين هابرماس Habermas تداولية إنسانية عامة Universal Pragmatics تتسمج مع جملة الاتجاهات الوظيفية التي ورد فكرها في هذا التبسيط في تركيزها على اللغة المتداولة، لا القواعد التحوية أو الصرفية، مع تركيزها الخاص على المصدقية والقول بالصدق أو زعمه، وتسمى إلى اكتشاف ما يحقق التفاهم من خلال التواصل بين البشر، لأن التفاهم هو السبيل إلى تجنب الصراع والشقاق وإلى حل النزاعات، أما سوء التفاهم أو عدم التفاهم، فقد ينجّم عنهما القتل والحروب والثارات والعداوات. وهي تداولية تسمى إلى تجاوز الفصل المعتدل بين الجسد والعقل، بين النظرية والتطبيق، بين التحليل والنقد أو التنفيذ. حتى يتحقق التفاهم، لا بدّ من لغة مشتركة يفهما طرفا الحوار أو التفاعل، ومجموعة من القواعد التي تنظم التفاعل أو الحوار، ومن التوقعات التي يحترمها الطرفان. غايات التفاهم الذي يتحقق من خلال التواصل اللغوي هي الانسجام وتبادل المعرفة، وترسيخ الثقة بين الطرفين بما يحقق التنوير وروح الجماعة والاتفاق، ويكرّس الإحساس المتبادل بحسن النية (هابرماس، ١٩٧٩، ص ٣). فيما يلي تلخيص أركان تلك التداولية ومكوناتها:

أسس الصدق	مجاله	نوع التواصل	وظيفة اللغة
الحقيقة	العالم الخارجي	معرفي موضوعي	تمثيل الواقع وتبادل المعرفة
الأمانة	المتكلم أو منتج الخطاب - الذات المشاركة في التواصل	تعبيري ذاتي	الابوح بما يشعر به المتكلم وبما يعتقد
النوازمة	المجتمع/ الجماعة	تفاعلي توافقي	تأسيس علاقات اجتماعية مقبولة بما يحقق انسجام القيم والواقف

أركان التداولية العامة ومكوناتها

تقلاً عن هابرماس (١٩٧٩، ص ٢٨-٢٩، ٦٨)

الركن الأول من أركان تلك التداولية - الحقيقة - هو الوظيفة التصويرية الوصفية ideational في نسق هاليداي، وهو التقرير في نسق أوستن وسيرل، وهو الخبر في البلاغة العربية. أما الركن الثاني - الأمانة أو الإخلاص - فجزء من الوظيفة التفاعلية التواصلية interpersonal في نسق هاليداي، وهو يناظر ضرورات الصدق والتجاعة في نظرية الفعل اللغة عند أوستن وسيرل، كما يرد في غير هذا الموضوع. ينتظم الركن الثالث في التداولية العامة - وهو المواصفة - خصائص الأجناس الخطابية، والضرورات والقواعد الاجتماعية التي تحيط بالخطاب، وهو شرط من أشراف النصية، أو النصوصية، في لغويات النص.

كيف يتحقق للخطاب صدقه ونجاعته؟ من خلال الإحالة إلى حقائق قابلة للملاحظة أو الاختبار في العالم الخارجي، ومن خلال ما ينشأ بين منتج الخطاب ومستقبله من ثقة وألفة وتفاهم، ومن خلال الالتزام بالأعراف التواصلية الاجتماعية التي نجدها تحت مسنّيات التقاليد الأدبية، أو أدب الحوار، أو الأجناس الخطابية، وغير ذلك، مما يحقق التفاهم بين طرفي الحوار أو الخطاب مما يرد في هذا التبسيط في معرض الحديث عن أشراف النصية، والمبدأ التعاوني، واللياقة والكرامة.

وكيف يحقق المتكلم أو الكاتب غاياته البلاغية التواصلية، ويدافع عن موقفه أو مواقفه وتوجهاته، وينقل ما يريد من معنى؟

لا بد أن يكون ما يُقال أو يُكتب قابلاً للفهم، وأن يشتم بالصدق، وأن يعبر عن مقاصد المتكلم أو الكاتب، وأن يتأسس نوع من الفهم المشترك بين المتكلم أو الكاتب والمتلقي، أو بين أطراف الخطاب (هابرماس، ١٩٧٩، ص ٤).

وحتى تتحقق للتواصل غاياته، هناك مجموعة من الافتراضات التي يجب أن يقبلها المشاركون في الخطاب، أو يسعوا إلى تحقيقها، ومنها أنهما أو أنهم يستخدمون نفس العلامات اللغوية بنفس الطريقة وبنفس المعنى، وأن للجميع حق المشاركة والتفاعل، وأن الفضل لا يكون إلا للحجة القوية، وأن الجميع حريصون على تحقيق التفاهم، وأن كل ما يُقال يمكن أن يخضع للتفنيد والمساءلة.



## التداولية المقارنة

توقفنا فيما سبق عند جملة من مبادئ تداولية منها مبدأ الكياسة في ثلاث أطروحات متميزة، على ما فيها من تشابه، والمبدأ التعاوني، وما يتصل بهما من تضمين، وانتهاك، وتجاوز، وما تستند إليه التداولية في جملتها من تصنيف أفعال اللغة أو الكلام وشروط نجاحها وفق تصورات أوستن ومن بعده سيرل.

لم نتوقف طويلاً فيما سبق من هذا التبسيط عند حقيقة أساسية مهمة، ألا وهي أن تلك المبادئ والقواعد التداولية تختلف في تجلياتها من لغة إلى لغة، ومن ثقافة إلى ثقافة، ومن موقف إلى موقف، بما في ذلك من يشارك في الموقف من شخص أو شخصيات. هذا التباين هو موضوع التداولية المقارنة أو التباينية *contrastive pragmatics* أو *cross-cultural pragmatics* أو *continental pragmatics* - وهي تهتم بالكلام والحوار - وما يتصل بها من بلاغة مقارنة *contrastive rhetoric* - وهي تشغل بالكتابة، والتداولية بين تدوالتين *interlanguage pragmatics*، وتتناول أساليب التعبير التي يستخدمها من يتعلم لغة أجنبية حيث تختلط فيها تداوليته التي درج عليها والتداولية الجديدة التي ترتبط باللغة الجديدة (على سبيل المثال كاسبر وبلوم كولكا *Kasper and Blum-Kulka*، ١٩٩٣).

أين يقع الاختلاف والتباين في تداول اللغة بين الثقافات المختلفة؟

فيما يلي بيان بعض مواضع التباين، تأسيساً على شرح يوهل *Pohl* (٢٠٠٤)،  
بكثير من التصرف والتوضيح:

• الميول الذهنية وعادات التفكير *mental sets*:

كيف يفسر الضيف سلوك مضيفه حين يلح في دعوته إلى الطعام أو إلى القهوة؟  
كيف نفكر؟ وكيف نفهم ما يقع حولنا من أحداث؟ كيف يتشكل سلوكنا اللغوي من

خلال طرائق تفكيرنا؟ كيف نفسر تبسم أحدهم بينما يستمع إلى ما نقول؟ لا بد أن طرائق تفسيرنا ما يحدث لنا وحوالنا تؤثر في ردود أفعالنا اللغوية وغير اللغوية.

• الأساق والتصورات، أو المخططات، الذهنية المسبقة أو الجاهزة *schemata* عن الأشياء والموجودات والأماكن ومما تتشكل. ومن ذلك تصور المرء عن هيئة أو مظهر المدرسة، ومعنى العطلة أو الإجازة. لا بد أن يكون لهذه التصورات عن المقام، ومن عناصره المكان، تأثيرها فيما يحدث فيه من سلوك لغوي.

• التصورات، أو السيناريوهات، الذهنية المسبقة *scripts* عن الأحداث ومكوناتها وتتابعها، ومن ذلك التسوق، أو مراجعة الطبيب، أو الاتصال لحجز موعد مع مدير شركة أو إدارة، وما يصاحب كل ذلك من أفعال لغوية.

• الأحداث التواصلية *speech events* والأغراض اللغوية، وكيف تتحقق من خلال تتابع أفعال اللغة.

من ذلك على سبيل المثال الاعتذار *apology* وما يشمل عليه من تأسف وإقرار بالخطأ ثم تبريره، إذا كان هناك ما يبرره، ثم التعهد ألا يقع الخطأ مرة أخرى. من هنا تتجاوز الأحداث التواصلية أو الأغراض اللغوية، من اعتذار، وطلب، وشكوى، وإطراء، وغير ذلك، مجرد الأفعال الكلامية المنفردة إلى مجموعة من الأفعال الكلامية التي تنتظم وفق أعراف تداولية تحكمها الثقافات التي تحيط بها.

• الأعراف الاجتماعية الثقافية *socio-cultural norms* التي تحدد ما يليق وما لا يليق في الكلام والحوار، وتبادل الأدوار، والسكوت، ورفع الصوت، وما إلى ذلك.

• الكياسة واللباقة، وقد تقدم الكلام عن ذلك، وما يحددهما من الألفة *solidarity* أو التباعد *distance* بين المشاركين في الحوار، وما نكل منهم من نفوذ أو سلطة، أو مكانة.

كل ما سبق من عناصر يتباين من لغة إلى لغة، ومن ثقافة إلى ثقافة، ومن موقف إلى موقف، ومن هنا ينشأ التباين في السلوك التداولي، إذا جاز التعبير، فإذا كان الشكر أو التعبير عن الامتنان غرضاً لغوياً إنسانياً عاماً، فإن الطريقة التي تعبر بها

كل لغة وكل ثقافة عن ذلك تختلف عن الطريقة التي تعبر بها لغة أخرى في ثقافة أخرى عن نفس الغرض. وقد ظلت التداولية التقليدية رهن الاحتمال للأساق اللغوية والثقافية الأنجلوأمريكية، حتى تطورت التداولية المقارنة، بين سبعينيات وثمانينيات القرن الماضي، وهي تنطلق من التسليم بالفروق الجوهرية بين الثقافات المختلفة في إنتاج أفعال الكلام أو اللغة وتلقيها، وفي تطبيق أو انتهاك المبدأ التعاوني، وفي سلوك الكياسة والتأدب، وغير ذلك من جوانب التداولية. لا سبيل إلى حصر الدراسات التي تتناول الفروق الثقافية في تحقيق الأغراض التواصلية من شكر، وشكوى، وطلب، وإطراء، واعتذار، وتعزية، وتهنئة، ولوم، وغير ذلك، غير أن جل تلك الدراسات تقع في أشرار الاحتكام إلى الأساق اللغوية الأنجلوأمريكية، وتطبيق النظريات التي تنطلق من تلك الأساق، دون مراجعة أو تفنيد، واختزال ما يلاحظ من تعبير لغوية وأساليب تداولية، قد تدعو إلى إعادة النظر، حتى تندرج تحت النمذج الغربية.

حين يحدث التلاقي بين لغتين، ومن ثم ثقافتين، تتبدى تلك الفروق التداولية، وقد ينجم عنها سوء فهم أو ارتباك حين يحاول طرفاً من الطرفين أن يفرض أساقه اللغوية التداولية على الطرف الثاني، وحين يجهل طرفاً عادات غيره التداولية، وهذا بعض ما يشتمل عليه مصطلح pragmatic failure (توماس Thomas 1985)، وقد يقع الاختزال، فينبغي الجميع تداولية الأقوياء، فنصبح المعيار والنموذج الذي يجب أن نحذى. ولا تخلو تلك المواجهات بين الثقافات من الطرافة. على سبيل التمثيل لا الحصر، في مقام الإطراء ربما يبدى غريباً إعجابه بساعة يد يضعها محدثه العربي، فلا يكون من الأخير إلا أن يقنمها إليه، ويدعوه أن يأخذها. لو لم يكن الغربي على دراية ببعض العادات اللغوية التداولية العربية، لحسب أن الدعوة صادقة جادة - ولعلها كذلك في بعض المواقف. وربما يخطئ عربيّ تعود "الرسميات" مخاطبة زميلة غربية إياه باسمه الأول، فيظنّها حباً أو ألفة تنمو، وما هي كذلك.

لا تقتصر تلك التباينات على الأفعال اللغوية المفردة أو التعبيرات والجمل، بل تتجاوزها إلى العادات التداولية، من قبيل تجنب الرفض والإجابة بـ"لا أعلم"، وغير ذلك، وإلى أساليب التعبير الكبرى، وما قد تشتمل عليه من مباشرة أو مداراة، ومن

تكرار، واستطراد، أو اقتضاب، وخروج عن الموضوع، أو التزام به، وما إلى ذلك من أساليب تداولية.

تقع تلك التباينات، ومن ثمّ المفارقات، كذلك على مستوى التعبير غير اللفظية، من لمس، وإيماء، وحركات، وإشارات، وتبسم وضحك، واقتراب أو تباعد، وهمس، ونظرات، وما إليها. من ذلك أن الصمت لا يعني الرضا في كل حال، كما يرد في غير هذا الموضع، ولا الإيماء بالرأس، بما يفيد الموافقة في ثقافتنا العربية، له نفس المعنى في غيرها من ثقافات، وليس وضع الساق على الساق في حضرة من يكبرنا فعلاً غير لائق في كل الثقافات، ولا خلع الحذاء عند دخول منزل مضيّق ضرورة أخلاقية في كل المناسبات أو الثقافات.

وليس بمستغرب، والحال هكذا في الكلام والإشارة، أن يقع التباين في أساليب الكتابة وطرائقها وأصواتها من لغة إلى لغة، ومن ثقافة إلى أخرى، وهذا هو مدار انشغال البلاغة المقارنة أو التقابلية كما سلف. تبلورت تلك البلاغة في نسختها الغربية تأسيساً على دراسة كابلان Kaplan (1966) المهمة، والتي تتناول أساليب الكتابة في ثقافات مختلفة، منها ما يسير في خط مستقيم، ومنها ما يناور ويداور حتى يصل إلى غايته البلاغية، ومنها ما يبين ذلك. تبقى تلك البلاغة، بعد مرور ما يقارب نصف قرن منذ نشر كابلان دراسته التي تتخذ من أسلوب الكتابة الأمريكي معياراً للحكم على غيره، موضوعاً ثرياً، على أن تتجاوز التصنيفات الجاهزة في تناولها أساليب الكتابة وبلاغتها في المكاتبات والرسائل العلمية، وما تشتمل عليه من حاجة، ومقدمات الكتب، وغير ذلك من أجناس تحريرية.

وليس بمستغرب كذلك أن يقع في الكتابة ما يقع في الكلام من انتقال transfer الأساليب البلاغية من اللغة الأم إلى اللغة الثانية، أو الأجنبية، وتشكل ما يسمى تداولية بين تداوليتين، لا هي تداولية اللغة الأم، ولا هي تداولية اللغة الجديدة التي يقبل الطلاب والدارسون على تعلمها. من ذلك ما يمكن أن يصدر عن متعلم عربي في رده الإعجاب بهاتفه المتحرك باللغة الإنجليزية قائلًا "Please take it" - مفردات

إنجليزية ونحو إنجليزي، لكن الدعوة عربية. إذا ظل المتعلم على هذا الارتباك، ولم يتقن التنقل بين اللغتين والتداوليتين، كان كالفراغ الذي أراد أن يدرج كالحجلة في كلبلة وعمنة. ليس من صالح أحد أن يتم إقصاء إحدى اللغتين لصالح الأخرى، ولا أن تصبح اللغات جميعاً نسخاً شابهة من لغة كالإنجليزية، لكن من صالح الجميع احترام عادات الآخرين اللغوية والتداولية، والوعي بالفروق الثقافية بين البشر بما يضمن الفهم، وحسن الظن، وتجنب الضرر.

يبقى أن نعرّج على بعض ما يناط بدراسات الترجمة وهي تتناول الأساليب البلاغية والتداولية المختلفة. (وهل الترجمة الجميلة الأمانة إلا مهارة وفكرة على التنقل بين تلك الأساليب، وما يحملها من مفردات وتركيب بما يناسب السياق؟) من الأهمية يمكن أن تتناول تلك الدراسات علاقات القوة والهيمنة والأيديولوجيا في النص الأصلي، وتحولاتها في النص المترجم. كيف تنتقل علاقات القوة والتأثير من الأصل إلى الترجمة؟ هل يبقى الفاعل فاعلاً، والمنفعل منفعلاً، والمفعول به مفعولاً به؟ هل يبقى القاتل قاتلاً، والضحية ضحية؟ هل تُترجم "John killed Mary" إلى "جون قتل ماري"، أم "لقيت ماري حتفها"، أم "قتلت ماري"؟ وما دلالة ذلك على غايات الترجمة، وسياقها، والعوامل المؤثرة فيها؟ وكيف تترجم وجهة نظر النص الأصلي ومؤلفه؟ هل يبقى التهمك تهكماً، والسخرية سخرية، والنقد نقداً، أم يتجمل النص في الترجمة؟ وما هو حظ الترجمة من اليقين بالنسبة إلى الأصل؟ هل نقلُ أفعال الكلام على حالها في الترجمة، فيبقى الطلب طلباً، والأمر أمراً، والنهي نهياً، والخبر خبراً، والحكم حكماً؟ أين مباشرة "افتح الباب" من مداراة "Would you please open the door" وتلطفها؟ وأين كياسة "ممكن لو سمحت تسكت؟" من فظافة "Shut up" ، وهل تترتب على "أنا أعلنكم زوجاً وزوجة" في الثقافة العربية نفس الحقوق والواجبات التي تترتب على "I declare you man and wife" في الثقافة الإنجليزية؟ وهذا كله غيضٌ من فيض الأسئلة الممكنة في تفصيل بعض ما تستطيع دراسات الترجمة أن تفعل في سياق التداولية.

### مثل: أوباما في القاهرة

"شكرا جزيلًا، وطاب عصركم. إنه لمن نواحي شرفي أن أزور مدينة القاهرة الأثرية حيث تستضيفني فيها مؤسستان مرموقتان للغاية، إحداهما الأثر الذي بقي لأكثر من ألف سنة منارة العلوم الإسلامية، بينما كانت جامعة القاهرة على مدى أكثر من قرن بمثابة منهل من مناهل التقدم في مصر. ومعًا تمثلان حسن الاتساق والانسجام ما بين التقاليد والتقدم. وإني ممتن لكم لحسن ضيافتكم ولحفاوة شعب مصر. كما أنني فخور بنقل أطيب مشاعر الشعب الأمريكي لكم مقرونة بتحيةة السلام من المجتمعات المحلية المسلمة في بلدي: "السلام عليكم". (من خطاب أوباما في جامعة القاهرة، ٤ مايو ٢٠٠٩).

في هذه الترجمة ما يشي بأن من ترجمها، وقد صدرت عن البيت الأبيض، ليس من أهل اللغة العربية، أو أنه قد تركها زماناً أفقده الإحساس بجمالياتها، وبلاغتها، و"تداولها" بين الناس في الواقع. من ذلك ما نجد في "طاب عصركم" في ترجمة Good afternoon، وهي تحية لا ترد في لهجة من لهجات اللغة العربية - في اللهجات العربية تحايا من قبيل "مساء الخير"، و"أسعد الله مساعك/ مساعكم"، "مسلكم الله بالخير"، وما شابهها. وفي الترجمة تلازم لفظي مقحم بين "التقاليد والتقدم" - والصواب أن يتلازم "الماضي والحاضر"، و"القديم والجديد"، و"الأصالة والمعاصرة"، وهكذا - وتلازم آخر بين "مناهل" و"التقدم" - والصواب أن تنهل من العزم والمعرفة والحكمة - ولها تعبير ناتى هو "المجتمعات المحلية المسلمة" - والمألوف هو "الجاليات الإسلامية" في الولايات المتحدة - ومفردة نائلة هي "الأثرية" في وصف القاهرة - والصواب هو "العتيقة"، وما إليها - وفي الترجمة ميالقتان على الأقل في "من نواحي شرفي" و"فخور" - والأصوب في ذلك المقام "يسرنى" و"يسعدنى" وما إليهما.

## تحليل الخطاب ولغويات النص

### مصطلح تحليل الخطاب

"مصطلح تحليل الخطاب مصطلح بالغ الغموض، سوف استخدمه في هذا الكتاب بمعنى التحليل اللغوي للخطاب الطبيعي المكتوب أو الشفهي (المنطوق)، وعلى سبيل التيسير، يشير المصطلح إلى محاولات دراسة تنظيم اللغة فيما يتجاوز مستوى الجملة أي على مستوى الوحدات اللغوية الأكبر، كما في المحادثات والنصوص المكتوبة. يعنى هذا فيما يعنى أن تحليل الخطاب يهتم بالسياق الاجتماعي الذي تستخدم اللغة فيه وخصوصاً ما يتصل منه بالتفاعل بين من يستخدمونها" (Stubbs، ١٩٨٣، ص ١).

### والنص

"... نستطيع أن نقول إن أي استخدام للغة هو نص - وهو تعريف يقل على مسعته محدوداً، لأن نصوصاً كالبرامج التليفزيونية تتشكل إضافة إلى اللغة التقليدية من مؤثرات صوتية وبصرية. ... أما مصطلح الخطاب فيشير إلى اللغة قيد الاستعمال في الواقع بوصفها جزءاً من الحياة الاجتماعية يرتبط بغيره من عناصرها ومكوناتها" (هيركلنف، ٢٠٠٣، ص ٣).

ترد التداولية وتحليل الخطاب في غير موضع بوصفهما مترادفين، أو مصطلحين مختلفين لمفهوم واتجاه واحد، وترد التداولية أحياناً بوصفها نوعاً من تحليل الخطاب. هي بالفعل نوع من تحليل الخطاب، يركز على أفعال اللغة، وما يرتبط بها من تضمين، والفراض، وكميافة، وقواعد تعاونية، ومقاصد، ونوايا، وطرائق تأويل، لكنها تفتقر إلى شمولية تحليل الخطاب، وتشغاله بالنصوص، لا الجمل. في نفس هذا الفلك - فلك تحليل الخطاب - تدور كواكب ونجوم أخرى لا سبيل إلى الإفاضة في شرح تفاصيلها، من اللسانيات البنوية structural linguistics ومقولات رائدها في الغرب دي سوسير عن اللغة والكلام والعلامة، وعلاقتها بسياقها، وبغيرها من

العلامات، إلى دراسات مستويات اللغة، والأسلوب، وتحليل الأنواع الخطابية وفق جنس الخطاب، وغاياته، والمشاركين فيه register and genre analysis، إلى دراسة بيئات الكلام والتواصل اللغوي ethnography of speaking.

وكيف يتشكل بها، ومقولات فوكو عن القوة والمعرفة، ومقولات ألتوسير عن التنظيم والأجهزة الأيديولوجية للدولة ideological state apparatuses، ومقولات بورديو عن العنف الرمزي وأشكال القوة، والمفاهيم التي طورها جوفمان عن مساء الوجه والتأطير framing، وتبدل أحوال المشاركين في الخطاب، وتغير الانتماءات والمواقف footing، و"إدارة الانطباعات" أو تشكيلها impression management، ودراسات الشعر في المجتمعات البدائية وعند "أهل البلد" الأصليين، وكذا دراسة التراكمب والصيغ الشعرية التي تنسم بها ثقافة معينة ethnopoetics، إلى الأنثروبولوجيا اللغوية واللغويات الاجتماعية التفاعلية interactional sociolinguistics، وما بعد البنيوية، خصوصا عند باختين - الخيال الحواري dialogic imagination، وتعدد الأصوات polyphony في الخطاب - إلى علم العلامات semiotics، والدراسات الثقافية cultural studies.

ليس من غايات هذا التبسيط شرح تحليل الخطاب Discourse Analysis أو مراجعة نشأته وتاريخه وتطوره، ولا استقصاء أصوله الفلسفية واللغوية، لأن موضوع التبسيط هو التداولية - التي يراها بعض الباحثين نوعاً من أنواع تحليل الخطاب - ولأن في دراسات أخرى غناء وكفاية في تناول أصوله الفلسفية واللغوية وتاريخه (فضل، ١٩٩٢). غاية هذا الجزء من تبسيط التداولية هو عرض بعض أدوات تحليل الخطاب ومقولاته ومفاهيمه، تأسيساً لمناقشة التحليل النقدي للخطاب، وتحليل الخطاب السياسي.

ولا سبيل إلى فض الاشتباك بين تحليل الخطاب من ناحية، وتحليل النص أو لغويات النص Text Linguistics وتحليل الحوار أو المحادثة Conversation Analysis من الناحية الأخرى، لأنها تلتقي جميعاً في غير موضع، وتتعلق من نفس الانشغال بالسياق والجوانب الدلالية ووظائف اللغة، وتتجاوز حدود المفردة



والعبارة والجملة إلى ما يتشكل منه الخطاب أو النص - الذي يشمل من وجهة نظر تحليل الخطاب كل ما هو مكتوب أو شفهي، ويقتصر على الحواريات والمحدثات المنطوقة في تحليل المحادثة، وينطلق من النصوص المكتوبة لكن لا يتوقف عندها في تحليل النص. في قليل من المقاربات اللغوية، نجد تعاضداً بين الخطاب **discourse** والنص **text**، لكن الأول لا يقتصر، كما رأينا، على ما هو منطوق، ولا يقتصر الثاني على ما هو مكتوب.

في تحليل الخطاب وتحليل النص، يبرز مفهومان تتباين ترجمتهما إلى اللغة العربية، وهما مفهوم **cohesion** ومفهوم **coherence**. سوف نجد من يطالع ما كتبت في هذا الصدد باللغة العربية عدداً مريباً من الترجمات من قبيل "الاتساجم" و"الترايط" و"التجانس" و"الاتساق". على سبيل التبسيط، يشير المصطلح الأول إلى تراكيب المعنى، أو الوحدات النحوية (الشكل)، والثاني إلى تراكيب المعنى أو الأفكار (المضمون). فبإذنا قلنا "ذهب الولد إلى المدرسة. التقى زملاء صفه وحياتهم" فنحن إزاء نص، على قصره وربما افتعاله، يثتم بالتراكيب والوحدة العضوية - ولتستقر من الآن على "المسك" و"الحبك" تفادياً للالتباس والارتباك، حيث يرى بعض الدارسين العرب، ومنهم سريعية (٢٠٠٧)، أن للمصطلحين جذوراً في البلاغة العربية، وهما على كل حال مصطلحان رشيقتان معبرتان. في النص القصير السابق، ترتبط الجملة الثانية بالأولى من خلال الضمير المتصل في "صفه" والذي يعود على "الولاء"، ومن خلال العلاقة الدلالية، علاقة الكل بالجزء، بين "المدرسة" و"صفه" - هذا بالإضافة إلى المسك في كل من الجملتين على حدة.

ليس المسك والحبك كل ما في تحليل الخطاب أو تحليل النص من جوانب مهمة - فهما يستخدمان مجمل الأدوات التحليلية ومنها التضمين، والافتراض المسبق، وأفعال اللغة، والمبدأ التعاوني، كما يرد تفصيل ذلك في الحديث عن التحليل النقدي للخطاب - لكنهما مفهومان محوريان في كل الاتجاهات الوظيفية كما يرد لاحقاً. وكما يعيب النقاد وكما عابوا - على الأقل قبل الحداثة وما بعد الحداثة - على الشعراء الفتناء

بعض قصائدهم الوحدة العضوية، وكم شكوا المدرسون ويشكون افتقار ما يكتب تلاميذهم الترابط و"التسلسل المنطقي"، وكم شكوا الممتحنون ويشكون افتقار أطروحات طلابهم الانتقال المنطقي المبرر من جزء إلى آخر، وكم يشكو الجميع اليوم ما تحفل به الكتابة العربية الصحفية من واوات عطف لا تعطف، وفواصل لا تفصل، وجمل تتراص دون مبرر أو منطقي، ودون فواصل أو وقلقات - وعلى المتضررين إن شاعوا أن يتكفوا بسبك النص وحبكه بطرفهم الخاصة!

ولأن السبك من أشرط الخطاب والنص، فقد خصه هاليداي ورقية حسن بكتاب كامل (١٩٧٦) أصبح مرجعا لا يستغنى عنه الدارسون في تحليل الخطاب وما يرتبط به من اتجاهات تداولية وظيفية. فيما يلي تبسيط بعض ما ورد في الكتاب من صنوف السبك، وأمثلة توضحها من اللغة العربية. وطالما أن الغاية هي التبسيط، فلا ينبغي أن نتوقع تعبيرات من قبيل "إشارة إكسوفورية"، أو "خارجية"، أو "خارجة" في ترجمة exophoric مثلا، أو تعبيرات من قبيل "الأنفردة"، أو "الإشارة المرتدة"، أو "الراجعة" في ترجمة anaphora، حتى لو كان ثمن التبسيط ترجمة كلمة واحدة إلى عبارة أو جملة.

## § طرائق السبك وأدواته

### ١. الإشارة reference

أ - إلى خارج النص exophoric :

على سبيل التمثيل: "ضع الكتاب على هذه الطاولة"، و"تلك السماء الصافية".

ب - إلى داخل النص endophoric :

- إلى ما سبق anaphora - على سبيل التمثيل: "كما ورد في هذا الكتاب من قبل"، "في الفقرة السابقة كلام عن السبك"، "ذهب الولد إلى المدرسة. التقى زملاءه وحياتهم"، "بعض ما قلت عار من الصدق"، وكما يشير الهامش إلى المتن.

- إلى ما يلي **cataphora** – على سبيل التمثيل: "في الجزء التالي، نتناول لغويات النص وتحليله"، "أجب عن السؤال الآتي"، "قررنا ما هو أنت"، "في الفصل الثاني، نتناول الرسالة أدبيات الخطاب الإعلامي بالمراجعة والنقد"، وكما يشير العنوان إلى النص.

## ٢. الاستبدال **substitution**

على سبيل التمثيل: "هاتان الروايتان لك؟ أعرنى واحدة؟"، "هل كتب التقرير؟ أظنه فعل"، "اختلف الأصدقاء، فقل أحدهم: لا بد أن نحتكم إلى طرف محايد".

## ٣. الحذف **ellipsis**

على سبيل التمثيل: "ما اسمك؟ أحمد"، وتقدير الكلام "اسمى أحمد"، و"أنا اسمى أحمد"، و"تكرماً فتح الباب"، وتقدير الكلام "فتح أنت الباب"، و"عم"، وأصلها "عن ما أو ماذا"، و"كيف حالك؟ بخير"، والأصل "أنا بخير". ويكون الحذف لتجنب الإطالة، وربما لأن المحذوف معلوم من السياق اللغوي وغير اللغوي، وربما للاحتراز، أو خشية نوي السلطان، وغير ذلك من مبررات.

## ٤. الربط **conjunction**

على سبيل التمثيل: "و" العطف والحال والمفعول معه، و"كأن"، و"بئس"، و"من ثم"، و"على ذلك"، و"غير أن"، و"أو"، و"ف" التعاقب والسببية، و"عندنا"، و"حينئذ"، وما شابهها، و"سوى"، و"حتى"، و"لكي"، و"أن"، و"إن"، و"ل" التعليل والجحود والسببية، و"من"، و"لئنا"، و"حيثما"، و"متى"، و"أنتي"، و"لوا"، و"مذ"، و"منذ". القائمة طويلة، ولا سبيل إلى حصرها هنا.

## ٥. السبك الدلالي **lexical cohesion**

ومن ذلك التكرار، والتلازم الدلالي، والجناس، والترادف، والطباق، والحقول الدلالية: "السرور"، و"البهجة"، و"السعادة"، و"الحبور"، و"الفرح" (ترادف)، و"الخير والشر"،

و"الفضيلة والرذيلة"، و"الأفراح والأتراح"، و"الأيأس والأمل"، و"البداية والنهاية"، و"الأبيض والأسود"، وما بينهما، و"يفعل ولا يفعل" و"محور الشر ومحور الخير" (طباقي)، و"البحر والمحيط والنهر والمضيق والخليج"، و"الشمس والقمر والسماء والنجوم"، و"القلم والقرطاس والريشة والحبر والطابعة" (حقول دلالية).

ماذا تفعل أصوات وطرائق السبك تلك في النص؟ فلنتخيل نصاً عربياً يخلو منها جميعاً. أو فلنتخيل نصاً آخر ليس فيه من رابط إلا "أو" العطف. ليست طرائق السبك وأصواته إذن مجرد حشو، بل هي التي تخلص الخطاب من الرتابة، وتضفي عليه التماسك، وتعين المتلقي على التعامل معه بوصفها علامات طريق.

### مزائق ومحاذير

أحياناً يصبح تحليل الخطاب نوعاً من شرح النصوص أو تلخيصها دون تفسير أو تأويل، وأحياناً يقتصر على مجرد مثل من هنا وآخر من هناك لتأكيد ملاحظة أو فرضية، دون محاولة اكتشاف الأساق الكبرى والظواهر الدالة في الخطاب. وربما يعيب التحليل الانحياز المسبق إلى وجهة نظر أو تفسير - أو الانكفاء على نموذج أو نظرية لا تصلح للتعامل مع ما يتناوله التحليل من نصوص. وقد يعيب دراسات تحليل الخطاب أن تكتنف بالانقباسات المطوكة من النصوص موضوع التحليل دون مبرر أو تفسير. وقد تقع بعض دراسات تحليل الخطاب في شرك التعميم والاعتقاد بأن ما يصدق على سياق يصدق على غيره. هذا بعض ما يمكن أن يقع فيه تحليل الخطاب من مزلق. نجد شرح هذه الأخطاء وتوضيحها بالأمثل في دراسة تشلز أنتاكي Antaki وآخرين (٢٠٠٣).

لكنّ علينا أن نمارس ما نستطيع من حذر في قراءة تلك الأصوات والروابط - خصوصاً ونحن نعاين نضج التحليل النقدي للخطاب وتحليل الخطاب السياسي. وقد وردت في غير هذا الموضوع أمثلة لما يمكن أن تفعل حروف الجر، وما يمكن أن تنقل الإشارة من تصورات عن العالم، وعن الآنا والآخر وما بينهما من نظور أو تجاذب، وقرب أو بعد. ماذا نقرأ في أداة الربط في جملة كهذه: "إنه فقير، لكنه يعيش في سعادة دائمة"؟ لعلنا نلاحظ تعارضاً بين الفقر والسعادة، ونضعينا مفاده أن القنى لا الفقر هو السبب الطبيعي للسعادة، وأن حالة الشخص الذي تشير إليه الجملة مجرد استثناء من القاعدة.

وفي موضع آخر، يرد حديث عن الثنائيات التي يحفل بها الخطاب السياسي المعاصر، خصوصاً تحت تأثير مقولة صراع الحضارات / الثقافات، وبعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، والحرب على أفغانستان، وغزو العراق. في ترسيخ هذه الثنائيات تحتشد مفردات الخير، والعدل، والحرية، والسلام، والديموقراطية، في طباق حتمي مع مفردات الإزهاق، والتطرف، والقمع، وتحتشد مفردات الجهاد، والاستشهاد، والمقاومة، في طباق آخر مع مفردات وعبارات الاستعمار، والحروب الصليبية، والغرب المنحرف، والاحتياز، والكيل بمكيالين. وحين نقرأ في سياق مغاير تقريراً إخبارياً عن "غرق عبارة لأن المسافرين لم يتحلوا بالصبر وتدافعوا حتى تجاوزت العبارة حمولتها الطبيعية"، فلا ينبغي أن نكتفي بحصر الروابط وتصنيفها إلى روابط سببية، لأن الأسباب الحقيقية ربما تختلف عما ورد بعد "لأن" وقبل "حتى" ولم يكن للمسافرين من يد في غرق العبارة. وحين يداهنا إعلان تجاري بتعبير مُحكم من قبيل "ابتسم للحياة ... ابتسم لـ ... (اسم المنتج)"، فلا ينبغي أن يكون مبالغاً من التحليل مجرد رصد التكرار - تكرر فعل الأمر وتكرار البنية النحوية التي تتكون من فعل الأمر والفاعل المستتر والجار والمجرور، لأن التكرار هو الذي يحقق بلاغة هذا النص، وينقل رسالته، وهي أن المنتج المُعلن عنه هو الحياة والحياة هي هو، ولا حياة للمستهلك المستتر في الجملة، المُستهدف في الواقع، بدون هذا المنتج. من هنا، لم يعد تكافياً بحال من الأحوال عند تحليل السبك في نص سياسي أو إعلامي أن نكتفي بحصر الأمثلة وتصنيفها، وأن نشعر بالرضا حين نجد في النص مثلاً أو مثليين لكل فئة من فئات السبك كما حنّدها هاليداي ورقية حسن. لا مفرّ من إعادة قراءة أدوات السبك وطرائقه في ضوء مقولات ومفاهيم تحليل الخطاب السياسي والتحليل النقدي التي ترد مناقشتها فيما بعد.

نفس هذا الحذر ينبغي أن نتحلى به ونحن نتناول الحبكة، وهو قرين السبك الذي لا ينصل عنه - إلا لغايات بلاغية خاصة - من مُنطلق ما تردّد في فيلم سينمائي مصري معاصر على لسان أستاذ التمثيل حتى أصبح مثير سخرية طلابه وطلباته،

وهو أن "الشكل والمضمون وجهان لعملة واحدة"، "المك والكتابة". وقد تقدم أن الحك هو ترابط المعنى واتسجامه، في علاقات سببية، أو تفسيرية، أو تمثيلية، أو علاقات تعارض، أو مقارنة بين الجمل، أو الانتقال من الخاص إلى العام، ومن العام إلى الخاص. وعلى نطاق أرحب، يتجلى التأكيد على الحك في توقع الوحدة العضوية في النص الشعري منذ كانت القصيدة الجاهلية تشتغل على الوقوف على الأطلال، ثم ذكر الرحلة، وبلوغ الحبيبة، ثم بعض الحكمة والنصح، إلى أن تبلورت مفاهيم البناء الروائي والقصصي التقليدي الذي ينظم وصف المكان، وتحديد الزمان، وتقديم الشخصيات، ثم تصاعد الأحداث إلى نقطة تصادم أو كشف، ثم الزواج أو البراءة أو غير ذلك من النهايات السعيدة التي لم تعد لا هي، ولا خطية الزمن من بداية إلى وسط إلى نهاية، ولا الوصف التقليدي للمكان - وقد اختلط الواقعي بالخرائبي والخيالي والأسطوري، واختلط الوعي باللاوعي - من سمات المرد المعاصر.

ونجد التأكيد على الحك كذلك في تعاليم التسلسل المنطقي، وكتابة المقالة الدراسية من مقدمة، ووسط، وخاتمة، مع ما يلزم من أمثلة توضيحية، وتعليقات، ومقارنات، وإرشادات كتابة البحوث العلمية، والمقالات، والأخبار الصحفية. كلما تطور جنس خطابي جديد، تبلورت معه طرائق الحك الملائمة له. حتى إذا استقرت، شرعت فئة من الكتاب والمبدعين في الخروج عليها رغبة في تحقيق غايات بلاغية جديدة، واتسجاماً مع سياقات وظروف تاريخية متغيرة، لأن المقنمات اليوم لا تصل بنا إلى النتائج بنفس السهولة والثقة التي كانت تصل بها في الماضي (ليس كل من يزرع اليوم يحصد، ولا كل من يحصل على "شهادة جامعية" يجد وظيفة، وليس "فلان" مفكراً، من منطلق أنه إنسان، وأن كل إنسان بطبعه مفكر)، حتى تتماهى الحدود بين الأجناس الخطابية، وتتداخل الأنواع، وتتطور أجناس خطابية جديدة، في انتظار من يغامر بالخروج على قواعدها.

ولأنّ للسبك والحبك هذه الأهمية والتأثير، انتقلا من تحليل الخطاب إلى لغويات النص التي يرى باحثون، من أمثال روبرت دي بوجراند de Beaugrande، أنها يجب أن تتشغل أول ما تتشغل بشروط النصية، أو النصومية، textuality وضرورتها - على معنى ما ينبغي أن يتحقق في مجموعة من الجمل أو التراكيب اللغوية حتى تستحق أن تُسمى نصاً.

وقد ألف دي بوجراند ودريسلر Dressler كتاباً كاملاً (١٩٨١) لمناقشة شروط النصية بعد مراجعة مهمة لنشأة وتطور علم لغة النص أو لغويات النص. فيما يلي شرح وتبسيط هذه الشروط - ما عدا السبك والحبك فقد تقدم الكلام عليهما - وتوضيحها بالأمثلة، ونماذج مما يتردد من ترجماتها إلى اللغة العربية.

#### ١. التضمّان والتماسك والسبك cohesion:

"المشكلة هي أنت بالضبط يا حضرة الصاغ، لا ينفخ في هذه الدنيا أن تكون نصف طبيب ونصف شيرير، نصف وطني ونصف خائن، نصف شجاع ونصف جبان، نصف مؤمن ونصف عاشق، دائماً في منتصف شيء ما" (بهاء طاهر: واحة القروب، ص ٢٠٢). في هذا الاقتباس يتحدث "محمود" إلى نفسه، وقد أخرجها، وفصلها عن نفسه في لحظة وعي ومحاسبة، حيث نشئ الإشارة وصيغة المُخاطبة بهذه المسافة التي يبتدئها "المتكلم" عن "المُخاطب" - مع أنهما واحد - ويتضاهر الطبقي بين الجميل والقيح في نفس المتكلم المُخاطب والترادف بين جوانب القبح وبين جوانب الجمال فيها للتعبير عن روح ممزقة، وذات منقسمة، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، فكيف يقر لها قرار؟

#### ٢. التقارن والتناسق والحبك coherence:

"قال ديشليم الملك لبديبا الفيلسوف: قد سمعت هذا المثل. فاضرب لي مثلاً في شأن الذي يضع المعروف في غير موضعه، ويرجو الشكر عليه. قال الفيلسوف: أيها الملك إن طباع الخلق مختلفة. وليس مما خلقه الله في الدنيا مما يمشي على أربع أو على

رجلين أو يطير بجناحين شيء هو أفضل من الإنسان، ولكن من الناس البر والفاجر. وقد يكون في بعض البهائم والسباع والطيور ما هو أوفى منه نعمة، وأشد محاماة على حرمه، وأشكر للمعروف، وأقوم به، وحينئذ يجب على ذوي العقل من الملوك وغيرهم أن يضعوا معروفهم مواضعه، ولا يضعوه عند من لا يحتمله ولا يقوم بشكره... (ابن المقفع: كئيلة وجمنة، باب السائح والصانع). في كتاب كئيلة وجمنة تطبيقات متداخلة ومتراكبة من السرد، بحيث تحتوي القصة الإطار، قصة الملك والفيلسوف، مبررا للقصة التي يرويها الفيلسوف، وهو النزول على رغبة الملك والإجابة عن سؤاله، وتتوالد القصة من القصة، وفي كل مرة نجد في الثانية تبريرا منطقيا للأولى، وفي الأولى توضيحا لما غمض في الثانية، أو إجابة عن بعض تساؤلاتها. هذا التبرير هو الذي يحفظ للقصص حيكها ومنطقها - هذا بالإضافة إلى انتماء القصص إلى جنس خطابي أثير هو الأمثلة fable، أو الحكاية على لسان الحيوانات، ودخولها في باب النصيح والتعليم، وما فيها من مجاز وزدواجية دلالية تتيح المتعة البريئة لمن أرادها، وتتيح الحكمة والفلسفة لمن أرادها. وفي كل مرة يفتح الباب بما يقول الملك - "قد سمعت هذا المثل، فاضرب لي مثلاً" في إشارة بليغة إلى ما سبق وإلى ما يتبع من الحكايات.

### ٣. القصدية والقصد intentionality:

وراء كل نص إرادة إنسانية واعية، وغايات مقصودة، وليس ظاهر النص كباطنه، إذا جاز التعبير، فربما تسأل عن الوقت وأنت تقصد أن توحى إلى ضيفك أن يذهب لأنك مرهق، أو لديك التزامات وواجبات أخرى معقدة - سواء على ضيفك أفهم ما ترمي إليه أم لم يفهم. وقد تقنم الكلام عن الإنشاء في البلاغة العربية، وأفعال اللغة والتضمين، والتأثير، أو المعنى المقصود في التداولية في نسختها الغربية، غير أن مزيداً من التوضيح لن يضر. ربما نجد في الخطاب ما يشير إلى قصد متبجح - "أريد أن أسألك"، "ترجو أن نحيطكم علماً"، "على سبيل الاعتذار" - مع ضرورة تسوخي الحذر، لأن المقاصد الحقيقية ربما لا تتسجم مع ظاهر الأقوال، كما نعين في غير



موضع من هذا التبسيط. تفتتح أمامة بنت الحارث وصيتها ابنتها لم إياس - وهي إحدى روائع النثر العربي التي نكتفي إزاءها في الغالب بالاعتباس أو "سوء الاستعمال" لتحقيق مصالح شخصية ذكورية - بتحديد غاياتها ومقاصدها البلاغية - "تذكرة للغافل ومعونة للعافل" - والاعتذار عما يمكن أن يقع من سوء الفهم - "إن الوصية لو ثرمت لفضل أدب، ثرمت لذلك منك" - وتبرير ما سوف تُقَم من النصيحة، ناهيك عن الاستمالة والتحبب والتكريم اللازم - "أي بنية" و"لو أن امرأة استفتت عن الزوج لغنى أبويها، وشدة حاجتهما إليها، كنت أغنى الناس عنه" - حتى تؤتي النصيحة ثمارها المرجوة.

#### الجنس الخطابي لا الأبي

"لا تستمد اللغة جمالياتها من تكوينها الذاتي فقط، أي باعتبارها أصواتاً وتراكيب ومجرات ذات طاقة تأثيرية مباشرة، ولكن أيضاً من علاقتها بالجنس الأبي الذي تدعّن له في صوغ أبينتها، إذ تصيح اللغة بموجب هذه العلاقة في أفق جمالي جديد حيث يعد المبدع إلى نسج خيوطها واختيار ألوانها وفق ما يقتضيه هذا الإطار من مكونات وثوابت" (مشبل، ٢٠٠١، ص ٥١-٥٢).

هذه إشارة مهمة إلى نوع الخطاب وجنسه وتأثيره على اللغة والأسلوب، مع التحفظ اللازم على "الأبي" وضرورة استبدال "الخطابي" بها، مع ملاحظة أن الباء تلحق بالمتروك، كما يرد في غير هذا الموضع، وعلى "المبدع"، لأن كل استخدام للغة ينتظمه نوع أو أنواع خطابية.

وتختتم أمامة نصيحتها بالدعاء لابنتها، فكيف لا تقبل الابنة أو لا تستمع والنصيحة ما بين تحبب وأمنيات طيبة؟ لعل أم إياس لم تخطئ مقصد والدتها، ولم تجد في النصيحة نوعاً من القهر أو الوصاية: "أي بنية: إن الوصية لو ثرمت لفضل أدب، ثرمت لذلك منك. ولكنها تذكرة للغافل، ومعونة للعافل. ولو أن امرأة استفتت عن الزوج لغنى أبويها، وشدة حاجتهما إليها، كنت أغنى الناس عنه. ولكن النساء للرجال خلقن، ولهن خلق الرجال".

#### ٤ . التقبيلية والقبول والتقبّل والمقبولية acceptability:

وهي أن يتوافق النصّ مع توقعات المتلقي - مع ضرورة أن يتخطى المتلقي بالتسامح إزاء النصوص التي تنتهك الحدود النوعية والتنظيرات النقدية، وتخرج عن ألق توقعاته بغرض صياغة توقعات وخصائص نوعية جديدة.

حين نقرأ خيراً صحفياً، نتوقع أن نجد فيه إجابة عن أسئلة يتعلمها طلاب وطالبات الإعلام - "من؟" و"ما؟" و"متى؟" و"أين؟" و"لماذا؟" و"كيف؟" - كما نجد في هذا الخبر:

"بدأت روضة الباقوت (من؟) في منطقة مصفوت النائية التابعة لمنطقة عجمان التعليمية (أين؟) بتطبيق مشروع الحافلة المرحلة (ما؟) الذي يعتبر الأول من نوعه على مستوى الدولة بدعم مباشر (كيف؟) من صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم نائب رئيس الدولة رئيس مجلس الوزراء حاكم دبي (من؟) الذي أمر بتوفير الدعم اللازم للمشروع عقب زيارته للمناطق النائية العام الماضي (متى؟)"  
(جريدة البيان، ٣٠ مايو ٢٠٠٨، الأقباس والأسئلة ليست في الأصل).

#### ٥ . الإعلامية والإعلام والإخبار informativity:

كل نصّ يُخبر بشيء - حتى الكلام "الفارغ" يخبر بشيء عن صاحبه - وتتفاوت النصوص في نوعية المعلومات أو الحقائق التي تنقلها من علمية إلى أدبية وصحفية، إلى غير ذلك، وفي نصيبها من الصدق أو الكذب، كما تتباين الحقائق من حقائق طبيعية إلى حقائق شعورية أو روحية، فليست "حقائق" الفيزياء مثلاً كحقائق الشعر.

ولعلّ من نوابغ تطوّر التحليل النقدي للغة تناول "الحقيقة" و"البرهان" و"البيّنة" من منطلق أنها مفاهيم نسبية، تتباين من ثقافة إلى ثقافة، ومن نسق معرفي إلى آخر.

## ٦. الموقفية والموقف والمناسبة أو الملاءمة *situationality*:

لكلّ مقام مقال، ولكلّ حادثة حديث. "حكمة بالغة. فما يروق لزيد ربما يتفر عرا، وما يدركه قوم ربما أعجز آخرين.. فلتؤطر حوارك بالحال من حولك، وتجنب التحديد الواضح عند حوار ذوي الروح الناقدة؛ حتى لا يستعجلوا عليك، وتحفظ خط الرجعة مفتوحاً من ورائك.

### مصطلح وترجمة

"يمثل مصطلح الموقفية تسمية عامة للعوامل التي تقيم صلة بين النص وبين موقف لواقعة ما سواء أكان موقفاً حاضراً أم قديماً للاسترجاع. ونادراً ما تتحقق تأثيرات مقام سياقي معين بدون حدوث التوسط: أي مدى تغذية المرء بمعتقداته وأهدافه الخاصة للنموذج الذي يقمه الموقف الاتصالي الحالي" (الفقرة الأولى من الفصل الثامن - الموقفية *situationality* - من ترجمة إيهام أبو غزالة كتاب منخل إلى علم لغة النص *Introduction to Text Linguistics* هذا <http://www.beaugrande.com>). هذا مثل آخر للكتابة التداولية العربية التي قد لا تصل بالفكر إلى شئ، على ما فيها من جهد وإخلاص، ربما لإصرارها على الترجمة الحرفية.

وقد يتعذر الحوار في أمر ما، لسبب أو لآخر من الظروف الاجتماعية أو السياسية أو غيرها، ولذا كان لزاماً على المحاور الفطن أن يقدر للأمر قدره، وأن يزن المصالح والمفاسد، وألا تغلبه شهوة الحديث عن تقدير العواقب..."

(طارق الحبيب: "لكل مقام مقال".

<http://www.asyeh.com>

٢٠٠٨ مايو، بتصرف

(يسر)

## ٧. النصومية، والتناص، والتضمين *intertextuality*:

ومن ذلك الترجمة، والإقتباس، وإعادة النشر، والمعالجة، والأسلبة، أي تقليد أسلوب نص سابق، والسرقعة الأدبية وغير الأدبية، والتلخيص، والتعقيب، والمراجعة. "ومن الإهداءات المثيرة إهداء كتبه الكاتب السياسي الراحل أحمد بهاء الدين" إلى: "الرفيق العزيز منير حافظ، الذي كان له فضل اختصار الكتاب ليظهر في هذا الحجم الرشيق". .. وذلك بتاريخ ١٤/٢/١٩٥٦، أي في مقتبل رئاسته لتحرير مجلة صباح الخير. وكان

الكتاب: شهر في روسيا صادراً عن دار النديم، ويعتبر هذا الكتاب من أجمل ما كتب بهاء، وفيه يتحدث عن روسيا من الداخل، ويطلق عدداً من الأفكار الجديدة أو المساندة التي كانت منتشرة آنذاك مثل قوله: 'إن روسيا لا تحكمها الوزارة التي يرأسها بولجاتين، ولا الجيش الذي يقوده زوكوف، ولا الحزب الشيوعي الذي يتولى خروتشوف منصب سكرتيره العام.. إن روسيا تحكمها نظرية!..' المهم هل كان بهاء صادقاً في إهدائه إلى الرقيب .. وأريد أن أتوه إلى أن منير حافظ، أصبح فيما بعد مديراً لمكتب شمس بدران" (شعبان يوسف: "إهداءات على الرصيف" جريدة أخبار الأوب، ٢٥ مايو ٢٠٠٨).

# 1

## التناس وما إليه

ذهب جيرار جينيت Genette (١٩٩٧) إلى أن علاقات النص بنفسه وبغيره من النصوص يمكن تصنيفها إلى ما يلي:

- § التناس Intertextuality (نظر المتن).
- § النص الموازي paratext – المقدمات، والهوامش، والشروحات، والعناوين الرئيسية والفرعية، والمراجع، والإهداءات، وما إليها مما يحيط بالنص.
- § المعاصر النصي، أو الجنس الخطابي architext الذي ينتمي إليه النص.
- § النص الشارح metatext – من ذلك ما نجد في الاختصاص من تقارير المسيدة راء.

§ النص اللاحق hyper، وعلاقته بنص سابق hypo، ربما على سبيل المحاكاة الساخرة أو النقص أو المعارضة.

§ النص الفائق hypertext، بمعنى الإلكتروني الذي نجده على صفحات "الشبكة العنكبوتية" أو الإنترنت.

إن حديث التناس وما يتصل به حديث بطول، من توظيف النصوص لأغراض إعلانية ترويجية - "عند جهينة الخبر اليقين" (إعلان حليب جهينة) - إلى توظيفها لتحقيق غايات سياسية، إلى "المسرفات الأدبية" - ولا بد من إعادة النظر في صفة "الأدبية"، لأن المسرفة لا يمكن أن تكون "أدبية"، ولأنها تقع في الألب وفي غيره من أجناس الخطاب. في البلاغة العربية تصنيف طريف لتلك المسرفات إلى "مسح"، و"مسح"، و"سلخ" - وتعني على الترتيب: سرقة اللفظ والفكرة معاً، وسرقة بعض اللفظ، وسرقة المعنى دون اللفظ. ويتصل بذلك ثمانية أمور هي "الاقتباس" - إعادة إنتاج جزء من نص سابق أو معاصر في نص آخر - و"التضمين" embedding - وهو اقتباس فيه تحوير أو اجتزاء وفق ظروف النص الجديد - و"العقد" versification - وهو نظم النثر - و"الحل" - وهو نثر النظم - و"التمويه" allusion - أي الإشارة إلى مكان أو شخص أو قصة معروفة - والابتداء - أو براعة الاستهلال - والنخلص - الخروج من المقدمة إلى الموضوع - والانتهاء - أو حسن الخاتمة (الهاشمي، ١٩٩٩، ص ص ٣٢٥-٣٢٣). إلى ما سبق، لا بد أن نضيف المحاكاة الساخرة، أو الباروديا parody - محاكاة نص سابق أو معاصر بغرض السخرية منه، أو من مؤلفه، أو من سياقه، أو من بعض ما يتناول النص الجديد، أو من هؤلاء جميعاً، كما نجد في الشعر "الحلمنتيشي" في مصر مثلاً - والمعارضات والنقائض.

## علاقات بين نصية

(١)

"كل قصة بطبيعة الحال مقدمة، فإذا كانت القصة "موباساتية" نسبة إلى الكاتب الفرنسي الشهير جي دو موباسان تطرح المقدمة عناصر حدث يتطور ويتعدى لينفجر في الختام. وإن كانت القصة تنحو منحى الحداثة أو ما بعدها فلا ضرر في أن تكون علاقة المقدمة بالخاتمة غير ظاهرة للعيان، ولا مانع من نهاية مغلقة ومفتوحة. وقصتي؟ لا مقدمة لها سوى خطبة للمؤلفة تفتح فيها باب الكلام، يعقبها سرد الواقعة التي تنتهي بنهاية يمكن ببعض التفاضل وشيء من الحكمة، اعتبارها نهاية سعيدة" (رضوى عاشور: تقارير السيدة راء، ٢٠٠١، ص ص ١٧-١٨).

(٢)

### الشاعر المعظم

إبراهيم طوقان (١٩٠٥-١٩٤١)

شوقى يقول وما نرى بمصيبتي	فم للمعظم وفيه التهجولا
لقد فديتك هل يكون منجلا	من كان للشهم الصغار خيلا
ويكاد يلقبني الأمير بقوله	كذ المعظم أن يكون رسولا
لو جرب التعليم شوقى ساعة	لقضى الحياة شقاوة وخمولا
حسب المعظم ضمة وكأبة	مرأى الفقير بكرة وأصيلا
مئة على مئة إذا هي صلحت	وجد القمى نحو القيون سيلا
ولو أن في التصحيح نقفا يرتجى	وأبيك لم كد بالقيون بخيلا

لكن أصلُ غلظة تحوُّلة	مثلاً واتخذ الكتاب دليلاً
مستشهداً بالفر من آتية	أو بالحديث مفصلاً تفصيلاً
وأغوص في الشعر القديم فانتقى	ما ليس مكثيفاً ولا مبثوثاً
وكاد أبعث سبيوتيه من البلى	وتويه من أهل القرون الأولى
قلزى (جملراً) بغد ذلك كله	رفع المضاف إليه والمفعول
لا تعجبوا إن صبحت يوماً صنخة	ووقعت ما بين البثوك قبيلاً
يا من يريد الاتيخار وجدكـة	إن المعلم لا يعيش طويلاً

النص الأول من قبيل الكتابة عن الكتابة، أو الكتابة الشارحة، يتناول المقدمة والنهاية بوصفهما من مكونات السرد، الأولى قد تكون تقليدية أو حديثة، والثانية مفتوحة أو سعيدة. يبقى الانشغال بالكتابة - إضافة إلى الانشغال بالعالم - سمة مهمة من سمات السرد العربي الحديث.

النص الثاني من قبيل الباروديا أو المحاكاة الساخرة - أو المعارضة الشعرية - وفيها ساخر (النص الراهن) ومسخور منه (النص السابق: نص شوقي وسلوك المجتمع المعاصر إزاء المعلم) وموضوع السخرية (قيمة المعلم). ليس المقصود هنا أن الشاعر يسخر من أحمد شوقي أو نصه المشهور عن المعلم، لكنه يرثي فيما بادت أو كانت، ويسخر من انهيار صورة المعلم وقيمه في المجتمع المعاصر. أما مفتاح شفرة المحاكاة فقريبة ميسورة، ومنها الاحتباس والإحالة إلى نص شوقي في "شوقي يقول ..."، وتشابه الوزن والقافية في النص الراهن والنص السابق.

## بين المُعلِّمِ والمُتعلِّمِ

من الأطروحات المؤسّسة في تحليل الخطاب ما طوّره سينكلير Sinclair وكولتهدارد Coulthard (1975) في دراستهما التفاعلات اللغوية بين المُعلِّمِ والمُتعلِّمِ في الفصول الدراسية. في هذه الدراسة المهمة تميّز بين التفاعل/ التبادل اللغوي/ الكلامي exchange والنقلّة أو الانقالة move والفعل اللغوي act، فمن الأعمال الكلامية - وهي الوحدات الصغرى ومن أمثلتها السؤال، والأمر، والنهي، والخبر، والنداء، وما إلى ذلك - تتشكّل النقلات - وهي النوبات في بعض كتب التراث، وهي في دراسة سينكلير وكولتهدارد استهلال initiation، أو ردّ response، أو تعقيباً على الرد feedback - ومن مجموع النقلات يتكوّن التبادل اللغوي. ويرد الاستهلال عادة في صورة سؤال أو طلب أو أمر، كما نجد فيما يلي:

- المدرس: يا مريم، ما هي عاصمة الصين؟
- التلميذة: بكين.
- المدرس: أحسنت.

هذا مثل غاية التبسيط لا الاختزال أو الحصر. في هذا المثل ثلاث نقلات تتكوّن أُولاهما من فطري كلام: (1) نداء وسؤال، ثمّ (2) إجابة، ثمّ (3) تعقيب على الإجابة.

ليس في الثقافة العربية - على قدر علمي - تناول الحوار بين المُعلِّمِ والمُتعلِّمِ بهذه الطريقة الوصفية البنائية، غير أنّ فيها ثروة من المقولات والمبادئ التي تندرج تحت أُنْب العالم والمُتعلِّمِ، ويغلب عليها النصح والإرشاد، لا الوصف، من قبيل ضرورة التعريض لا التصريح في مقام زجر العالم المُتعلِّمِ، إِمّا للتصريح من أُنْب نفسية وخيمة، ومن قبيل ما ورد في تذكّرة السامع والمُتكلِّمِ في أُنْب العالم والمُتعلِّمِ للشيخ بدر الدين أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن سعد الله الكنتقي المتوفى سنة 723هـ:



”جرت العادة أن يقول المدرّس عند ختم كل درس: والله أعلم، وكذلك يكتب المفتي بعد كتابة الجواب؛ نكن الأولى أن يقال قبل ذلك كلام يشعر بختم الدرس كقوله: وهذا آخره، أو ما بعده يأتي إن شاء الله تعالى، ونحو ذلك ليكون قوله: والله أعلم خالصاً لذكر الله تعالى، ولقصد معناه، ولهذا ينبغي أن يفتح كل درس بيسم الله الرحمن الرحيم ليكون ذكراً لله تعالى في بدايته وخاتمته“.

## التحليل النقدي للخطاب

"التحليل النقدي للخطاب" هو الفضل ما في الإمكان في ترجمة مصطلح **Critical Discourse Analysis**، وهو الترجمة الراجحة على كل حال. أما "تحليل الخطاب النقدي" فربما ينجم عنه التباس المصطلح بالنقد الأدبي، لأن المقصود ليس تحليل "خطاب النقد الأدبي" (وهو ما يفعله النقد الشارح والنظرية النقدية الشارحة). المقصود هنا هو تحليل الخطاب من وجهة نظر ناقدة، فيها تمحيص وتفنيد ومساءلة، على معنى أن التحليل النقدي للخطاب لا ينكفئ على السياقات اللغوية والنصية المحدودة بل يتجاوزها إلى السياقات الاجتماعية المهيمنة، ولا ينخدع بالمقولات الجاهزة، ولا بما تمارسه الأيديولوجيات من تعصية، وتعتيم، وخداع، ولا يتوقف عند ما هو كائن، بل يتجاوزها إلى ما يمكن وما ينبغي أن يكون، ويسعى إلى إحداث تغييرات اجتماعية تبدأ من الوعي ولا تنتهي به (هامرسلي **Hammersley**، ١٩٩٧، ص ٢٣٨).

إذا كان تحليل الخطاب ولغويات النص يضيفان إلى التداولية بعداً نصياً كثيفاً ويخلصانها من انكفائها على المفردات والعبارات والجمل والحوارات المجتثّة من نصوصها أو المفتعلة، فإن التحليل النقدي للخطاب **Critical Discourse Analysis (CDA)** - وهو ينتمي إلى نفس الاتجاهات الوظيفية في تناول اللغة والخطاب ويتفق معها في رفض السلوكية والنبوية المجردة، وفي الاهتمام بالسياق والمقام وبالوظيفة والغاية - يخلص هؤلاء جميعاً من "البراءة"، ومن تجاهل السياقات الاجتماعية والسياسية، ويضيف انشغالا بما لا بدّ من الانشغال به، وهو صراع القوى والإرادات والمعتقدات، وبالتحايل، والاحتيال، والقمع والقهر، والتمييز، والدعاية والترويح، و"غسيل المخ"، والتشويه والتجميل في اللغة وباللغة. إلى ما سبق، يتسم التحليل النقدي للخطاب بالوعي بالذات وتوجهاتها وتحولاتها، لأنّ من يمارسونه هم بشر كالبشر.

أما أسس ومنطلقات التحليل النقدي للخطاب فتشمل اهتمامه بالقضايا الاجتماعية، لأن الخطاب ظاهرة اجتماعية، وتسليمه بأن القوة والهيمنة يتم إنتاجهما وتداولهما أو مناهضتهما باللغة وفي اللغة، وأن اللغة تشكل المجتمع والثقافة كما تتشكل بهما، وأن اللغة أو الخطاب حقيقة تاريخية متغيرة وفعل اجتماعي مؤثر، وأن اللغة تحقق غايات أيديولوجية، وأن هناك ما يتوسط العلاقة بين النص والمجتمع/العالم ألا وهو الوعي أو الإدراك، وأن مهمة تحليل الخطاب لا تقتصر على الشرح والوصف بل تتجاوزهما إلى التفسير والتأويل (فيركلوف ووداك Fairclough and Wodak، ١٩٩٧، ص ٢٧١-٢٨٠، وقد يكتب الاسم الأول في العربية هكذا "فيركلوف" أو "فيركلانغ" والثاني هكذا "وداك").

من الواضح أن القوة power (ومرافقاتها وبنات عموماتها السلطة authority والهيمنة hegemony والمسيطرة أو التحكم control) والأيديولوجيا ideology (أو المعتقد، أي كل ما نؤمن به، وندافع عنه من أفكار، وتوجهات، وميول، وامتعاءات نحتفظ بها لأنفسنا أحيانا، ونحاول فرضها على الآخرين أحيانا) هما في صدارة اهتمام التحليل النقدي للخطاب. درجات ومرافقات القوة التي سبقت مردؤها امتلاك ما لا يمتلك الآخرون، وكلها تشير إلى القدرة على التأثير في سلوك الآخرين وأفعالهم، أو أفكارهم، أو مواقفهم (فان دايك van Dijk، ٢٠٠٧، ص ١١٢)، وهي قدرة تتيحها التباينات الاجتماعية، أو الاقتصادية، ودرجة القرب من مصادر المعرفة والمعلومات، والخبرات المكتسبة، والفروق الجسدية أو الجنسية أو العرقية، وإجادة بعض اللغات المهمة. وكما أن اللغة قوتها وتأثيرها، فلقوة لغتها، على معنى أن اللغة بوسعها أن تؤثر في سلوك البشر، وتوجهاتهم، وأفكارهم - انظر كيف ينساق البشر وراء الشائعات، والإعلانات، والحملات الدعائية والترويجية، والشعارات، كيف تؤذي الآخرين باللغة، وربما تثبط همهم، وكيف تسعدهم أو تخرجهم من عزلتهم، وكيف نرفع من أقدارهم أو نحط منها، وكيف نشوهم أو نجعلهم، كيف نقلل باللغة، بالوشاية، أو التحريض، أو إيغاز الصدور، كيف نجذب الآخرين أو نفلتهم، نرغبهم أو نرهبهم. هذه بعض قوة اللغة. وللقوة لغتها كذلك -

لأصحاب النفوذ، والعلماء، والخبراء، والمسؤولين، والقادة والرؤساء، وأرباب الأعمال، والمشاهير والنجوم، وغيرهم. وإذا كانت قوة اللغة **power of language** من انشغالات نظرية أفعال اللغة والبلاغة الكلاسيكية من قبلها، كما يعتقد بول تشيلتون Chilton وكريستينا شيفتر Schaffner (٢٠٠٢، ص ١)، فإن لغة القوة **language of power** من انشغالات التحليل النقدي للخطاب وتحليل الخطاب السياسي من بعده، كما يرد فيما بعد. هذه ليست نهاية قصة القوة، بل مجرد إيجاز يغلج جذور المفهوم عند فوكو وغيره، وتطور المفهوم في الدراسات التداولية من براون وجيلمان (١٩٧٢) حتى بلغت التحليل النقدي للخطاب.

لما الأيديولوجيا فهي كل ما نؤمن به، وقد أسهب فلان دايك (١٩٩٥، ص ٢٤٤ - ٢٤٧) في الكلام عنها، وتحديد سماتها، ومنها أنها تتعلق بالإمراك والوعي، لأنها مجموعة من المعتقدات والأفكار تتوسط، كما ورد من قبل، وكما ورد في تحليل الحيل اللغوية العربية وانتهائاتها المبدأ التعاوني، بين اللغة والعالم المحيط بها، بين ما نقول وما يقال لنا، وما نفعل وما يفعل بنا. وهي إلى ذلك اجتماعية، حيث تميز جماعة عن غيرها، أو فرداً عن غيره في محيط اجتماعي، وربما تتحدد مكانة بعض الأفراد أو الجماعات في مجتمع على أساس ما يؤمنون به، وما ينتسبون إليه من اتجاهات فكرية، أو دينية، أو سياسية. وربما يُفسد الخلاف في العقيدة أو الأختصار أو أسلوب الحياة - رغم أنف القول المأثور - كل قضايا الود بين الأفراد أو الجماعات، وربما تنجم عنه حروب، وثورات، وعداوات، وربما لا يتجاوز بعض المشاحنات والنكات. هكذا تتباين الأيديولوجيات والمعتقدات والخلافات التي تنشأ فيما بينها في سطوتها وحدتها. ومن سمات ما نؤمن به من أفكار أو معتقدات أن معايير الصواب والخطأ لا تنطبق عليها بنفس الطريقة التي نجد في حقائق العلوم الطبيعية، وليست كلها من الحقائق على كل حال، فكل جماعة ترى فيما تؤمن به عين الصواب: (كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ) "سورة الروم: ٣٢". تتباين المعتقدات والأيديولوجيات كذلك في عمقها وتعقدها، من مجرد تفضيل طعام على غيره، أو لون على غيره، أو فريق

كرة قدم على منافسه، إلى الانتماء إلى اتجاه سياسي، أو شيعة، أو ملة. وتتباين مواقف البشر مما يؤمنون به، من تمسكك ببلع حد التطرف، إلى مجرد انتماء بالاسم أو بالثنية.

لا انفصام بين القوة ومرادفاتها وبين الأيديولوجيا، لأن بعض الأفكار والمعتقدات تكتسب نفوذاً وقوة لمجرد ذبوعها وانتشارها وربما لقوة من يؤمنون بها. على معنى أن بعض المعتقدات تمنح من يؤمنون بها القوة والسلطة، وبعض ذوي النفوذ والسلطة يمنحون ما يؤمنون به من معتقدات سلطة ونفوذاً. ومن يملكون القوة والنفوذ هم بحكم العادة الأكثر على تكريس معتقداتهم، ونشرها والدفاع عنها، وإضفاء الشرعية والعقلانية عليها، وإقناع الآخرين بها، والأكثر على تشويه ما لا يؤمنون به من معتقدات، وما لا ينتمون إليه من توجهات أو أحزاب، وأسلحتهم في ذلك شتى، ومن أكثرها نجاعة وتأثيراً اللغة. وباللغة يستطيع المقيهورون أن يقاوموا القهر والمهيشون أن يقتربوا من المتن، ولو بمجرد الخروج عن الصمت. وسوف تعود إلى أنوات ترسيخ المعتقدات والأفكار وترويجها وإضفاء الشرعية والعقلانية عليها أو مقاومة كل ذلك لاحقاً.

لا حصر لموضوعات التحليل النقدي للخطاب أو مجالاته، فطالما كانت هناك قوة أو سلطة (تفرضها أو تكرسها أو تقاومها)، أو أيديولوجيا (فكرة، أو عقيدة، أو ميل، أو نوق، أو موقف، أو توجه، أو انتماء، أو هوى)، كان التحليل النقدي للخطاب صالحاً للتطبيق، وطالما كانت هناك لغة أو خطاب (حوار، أو مناخاة، أو قصة، أو قصيدة، أو مسرحية، أو تقرير إخباري، أو خطاب سياسي، أو إعلان تجاري، أو أغنية، إلى ما لا نهاية)، فهناك قوة وأيديولوجيا أو عقيدة. غير أن بعض الموضوعات والمجالات حظيت باهتمام خاص من ممارسي التحليل النقدي للخطاب، وهي الصراع والتوتر بين الجنسين gender encounters، والخطاب الإعلامي media discourse، الخطاب السياسي political discourse، وخطاب العنصرية racism (ومناهضتها أو إنكارها)، ولغة البرلمانات parliamentary discourse.

أما أدوات التحليل  
النقدي للخطاب فلا  
تختلف كثيراً عن  
أدوات تحليل الخطاب  
التقليدي ومسائر  
الاتجاهات الوظيفية،  
لأن ما يميز التحليل  
النقدي للخطاب من  
غيره من طرائق  
التحليل ليس ما  
يستخدم من أدوات،  
ولا حتى ما يقارب  
من موضوعات أو  
مجالات، بل الزاوية  
التي يتناول من  
خلالها تلك الأنواع  
والموضوعات.  
نقرأ مثلاً (والأمثلة  
من العراق بعد  
احتلالها وبعد سقوط  
صدام حسين على يد  
الولايات المتحدة  
وحلفائها في العقد  
الأول من الألفية  
الميلادية الثالثة):

### في نقد التحليل النقدي للخطاب

هناك الكثير مما يأخذه نقد التحليل النقدي للخطاب عليه، من منطلق اختلافات أساسية بين المدارس النوقية المختلفة - السلوكية والتوليدية وغيرهما - أو تأسيساً على بعض الممارسات غير الناضجة في هذا الاتجاه. مما يؤخذ على بعض ممارسات التحليل النقدي للخطاب الانحياز إلى الجوانب اللغوية من الخطاب على حساب ما يحيط به من سياقات ثقافية، واجتماعية، وسياسية. يؤخذ على تلك الممارسات كذلك إهمالها الأبعاد التاريخية، وتغير اللغة، ودلالاتها، ووظائفها من عصر إلى عصر. في كتابات الراسخين من أصحاب هذا الاتجاه، من أمثال فن دايك وبول تشيلتون وفيركلسف وروث ووداك Wodak، ما يدحض هذه الاتهامات، وفيها ما يدحض الاتهام بأن التحليل النقدي للخطاب ينطلق من انحيازات أيديولوجية، ويعمد إلى ما يثبت تلك الانحيازات، على معنى أنه يبدأ بفروض وأفكار جاهزة، ولا يرى في النصوص إلا ما يثبت تلك الأفكار والفروض. عدد لا بأس به من دراسات تحليل الخطاب التي لم تبلغ مرحلة النضج هنا وهناك يقع في مثل هذه المزالق، لكن تحليل الخطاب لا ينبغي أن يحكم على أساس هذه الدراسات. ولعلنا نضيف إلى ما سبق، عند تطبيق التحليل النقدي للخطاب في بيئة عربية، مزالق اليقين غير المبرر، والجزم، وتراكم الدراسات والمراجع دون رابط، أو تفسير، أو تبرير، أو تفنيد، تحت عنوان "الدراسات السابقة"، والتكرار، والتسليم بالنظريات والمقولات الكبرى دون مراجعة، ودون وعي بالفروق الجوهرية بين السياقات الاجتماعية والثقافية التي تطورت فيها تلك النظريات، والسياقات الجديدة التي تنتقل إليها، و"التطبيق" على حساب التفسير، ناهيك عن التفسير، والبحث عن مصطلحات عربية أو تحتها إذا لزم الأمر. إضافة إلى كل ذلك، لا ننسى التعميم، وتجنب الموضوعات التي من شأنها أن تستفز الرقابة، والرقباء - وما أكثرها. من الدراسات والمراجع في نقد التحليل النقدي للخطاب، على سبيل التمثيل لا الحصر: ويدوسون Widdowson (1995)، وهامرسلي Hammersley (1997)، وبلومايرت Blommaert وبولكاين Bulcaen (2000).

"عشرات العراقيين قُتلوا أمس"، أو "قُتل عشرات العراقيين بالأمس"، أو "لقي عشرات العراقيين مصرعهم أمس". يهتم النحو التقليدي (نحو الكلمة والعبارة والجملة) بإزاء هذه الجمل بصيغ الجمع - جمع التكسير وجمع المنكر السالم - والإعراب - "ين"، لا "ون"، لأن "العراقيين" مضاف إليه - والفعل حين يُبنى للمجهول، والضمير المستتر، وما إلى ذلك. وربما يتناول تحليل الخطاب، إضافة إلى ذلك أو تأسيساً على ذلك، السياق الذي حدث فيه ما حدث، والمشاركين، والصيغة الإخبارية أو التقريرية، والسبب والحك - "هم" المتصلة تعود على "العراقيين" - والإشارة إلى "أمس" الخبر، لا أمسنا نحن اليوم، ومقدار ما تشتمل عليه الجمل من صدق، وما تعطي من معلومات، ربما لا تكون شافية أو واقية، وغير ذلك. أما التحليل النقدي للخطاب فيضيف إلى كل ذلك الكلام عن صراع القوى في العراق، وحول العراق، وبسبب العراق، و"التغطية" الإعلامية التي تتجاهل الفاعل ولا تلقي باللائمة على أحد، وربما تحوّل الفعل، فعل القتل العمد، إلى مجرد حدث - "لقي ... مصرعهم".

هذا على سبيل التبسيط، لكن لعلّه تبسيط مفيد. يفكر من التسامح ومزيد من التبسيط نستطيع أن نرى في هذه الأمثال استعادة لما ورد من قبل من تصنيف أوستن مكونات أفعال اللغة إلى صيغة لغوية، ومعنى مقصود، وتأثير مرغوب.

وبقدر من التسامح والتصرف نستطيع أن نتخذ من هذا التبسيط مدخلاً إلى أبعاد التحليل النقدي للخطاب الثلاثة التي حددها فيركلف (١٩٩٥، ص ٢) وهي:

§ الخطاب بوصفه لغة - مكتوبة، أو منظومة: حروف، وأصوات، ومفردات، وعبارات، وجمل، وتراكيب، وقواعد نحوية.

§ الخطاب بوصفه ممارسة بلاغية - ظروف إنتاج الخطاب، وظروف تلقيه، وسياقاته، وغاياته البلاغية، وطرائق تنظيمه وتداوله.

§ الخطاب بوصفه فعلاً اجتماعياً - علاقة الخطاب بما يحيط به من قوى فاعلة، وأيديولوجيات مؤثرة، وتأثيرها فيه وتأثيره فيها.

في التنقل بين هذه المستويات يستعين التحليل النقدي للخطاب بنفس الأدوات والآليات التي يستعين بها تحليل الخطاب التقليدي، وغيره من الاتجاهات الوظيفية، مع تكيده على استكشاف تجليات القوة والسلطة والأيدولوجيا في النصوص - تحريرية وشفهية.

من الأدوات التي يستخدمها التحليل النقدي للخطاب والجوانب التي يركز عليها:

#### § التعدي / التعدية transitivity :

من الفاعل؟ ومن يقع عليه فعل الفاعل؟ من الجاني؟ ومن الضحية؟ وهل يختلف أي من هؤلاء جرأء خوف الكاتب أو المتكلم، أو تحيزه؟

#### § درجات اليقين certainty :

اليقين قرين السلطة، وقرين المطلق، وربما يكون قرين الجهل، وضيق الاثيق، أو غلبة الهوى على العقل، والشك - doubt - الشك أول العلم، والطريق إلى اليقين، وهو قرين التواضع، أو الضعف والقمع، وربما يكون قرين الحكمة والنضج الفكري، والإلزام obligation - من الذي يقول "ينبغي"، و"يجب"، و"لا بد"، و"المطلوب"، و"من الضرورة"، و"عليكم أن تفعلوا كذا وكذا"؟ وهل من صلاحياته أن يقول ما يقول؟ وغير ذلك من كليات modalities.

#### § الإثبات والنفي Affirmative-Negative :

"الجو صحو"، "أظن الجو صحو"، "ليس الجو صحو" والتساؤل Interrogative: "هل الباب مفتوح؟"، "أليكون الباب مفتوحاً؟"، "ليس الباب مفتوحاً" والأمر والنهي Imperative: "افتح الباب"، "ينبغي أن تفتح الباب"، "لا تفتح الباب" (فيركلنف، ٢٠٠٣، ص ١٦٧-١٦٨، بتصرف).

#### § اختيار المفردات lexicalization :

من مفردات دارجة أو فصحي، بسيطة أو معقدة، إيجابية أو سلبية، وما بين المفردات من ترادف أو تعارض، وما فيها من تكرار وإسهاب أو إيجاز.



§ الصيغ الاسمية nominalizations والمصدرية :

"مقتل العتات في... أمس"، بدلا من "لقي منات من .... مصرعهم على يد .... في .... أمس". الرسالة واضحة. وما أكثر ما نقرأ من أسماء وصيغ مصدرية توهي بالتحقق في الحديث عن أشياء لا تتحقق، أو لم تتحقق بعد - "زراعة ألف فدان..."، و"زيادة المرتبات والأجور"، و"تحرير العراق"، و"إقامة الدولة الفلسطينية"، و"حل مشكلة الشرق الأوسط".

§ الألقاب والصفات labels, adjectives and epithets :

"هجوم انتحاري"، أم "هجوم استشهادي"؟ "المجاهدون" أم "الإرهابيون"؟ "المسلمون" أم "المحمديون"؟ الاختيار ليس عفوياً، ولا بريئاً من الهوى أو الاحتيال.

§ الاستعارة metaphor :

استعارة "العصا والجزرة" في معرض وصف علاقة الإدارة الأمريكية ببقية دول العالم مجرد مثل لما يفعل الخطاب، والتشبيه simile، والتشخيص personification، والمجاز المرسل metonymy، والمفارقة والسخرية irony، والمبالغة hyperbole.

§ الافتراض المسبق presupposition، والتضمين implicature، والمعطوم من اللفظ بالضرورة entailment.

§ الإشارة deixis - إلى الأشخاص، والأرمنة، والأمكنة، والوظائف، والأنوار، والتلاحم أو التنافر، والقرب أو البعد، وصيغ المخاطبة address forms، والنداء vocative - "يا بني"، "يا بعد عمري" - والانتفات deictic-shift.

§ التجميل euphemism :

في الكلام عما لا يستحب الكلام عنه، من مرض، أو موت، أو وظائف بيولوجية - والتفحيع dysphemism - في تسمية الأشياء القبيحة بأسمائها، وفي المسب، والشتم، واللعن، وما إلى ذلك.

## § البناء للمجهول : passivization :

ليست "ضرب عمرو زيدا" كـ "ضرب زيداً" أو "ضرب أحدهم زيدا"، و"قتلنا" ليست كـ "من تقتلون من أبنائنا"، وفي "هذا العالم الكبير المعقد بصراعاته الدامية، المضطرب بتناقضاته الحادة، المهتد بين الحين والحين بالحروب المنمرة" (من خطاب الرئيس المصري الراحل أنور السادات أمام الكنيست الإسرائيلي، ١٩٧٧) هروباً من تسمية الفاعلين والمسؤولين عن معاناة العالم إلى أسماء مفعول ثقيد الجرائم ضد مجهول. وهذا ما يفعله الفعل "حل" بمعنى "وقع" أو "حدث"، والمعنى للمجهول "أسدلت" في "يوم حلت عليها غارات الغزو العثماني، وأسدلت من حولها أستار الجهل تعوق تقدمها وتمنعها من الوصول إلى عصر النهضة في نفس الوقت الذي بدأ فيه عصر النهضة في أوروبا" (من خطاب الرئيس المصري الراحل جمال عبد الناصر، بمناسبة الوحدة بين مصر وسوريا، ١٩٥٨).

## § ما ورد من قبل من أفعال اللغة :

من يخبر؟ ومن يأمر؟ ومن ينهى؟ ومن يحكم، ومن يهدد؟ على سبيل التمثيل، وقواعد المبدأ التعاوني، وقواعد الكياسة والتأدب.

بعض ما سبق مما لا ترد له أمثلة سبق الكلام عنه في هذا التبسيط، وبعضه سيرد لاحقاً. حتى حروف الجر تستطيع أن تحدث فروقاً جوهرية - هل "الحرب في العراق"، و"الحرب على العراق"، و"الحرب مع العراق" تحمل جميعها نفس الرسالة؟ الإجابة بالنفي على سبيل اليقين لا الظن، لأن الأولى لا تلقي باللائمة على أحد، والثانية تضع العراق موقع الضحية أو المذنب الذي يستحق العقوبة، والثالثة تبرى المعدي من العدوان، وتضع طرفي الصراع على قدم المساواة، وكأن كلا منهما يتحمل نفس القدر من المسؤولية عن الحرب، ويمتلك نفس القدرات والأسلحة والنفوذ، فلا داعي للتعاطف مع أي منهما.

## ترجمة المربع الأيديولوجي

"وبالرغم من كونها ليست بالمفصلة ولا العريضة، فإن هذه القائمة الموجزة للمستويات والبنى الخطائية توفر لنا تطباعا أوليًا حول الكيفية التي يرتبط من خلالها الخطاب وبناء المختلفة ببعض نواحي العنصرية. لاحظوا أيضا أن الأمثلة المعطاة تبين نوع الاستقطاب المجموعاتي الذي نعرفه نحن أيضا من خلال التحامل المنضوي تحته، أي ميل مجموعة الداخل العام للفضيل استراتيجية تمثيل النفس الأجنبي من جهة، وازدراء مجموعة الخارج أو تمثيل الآخر السلبى من الجهة الأخرى.

وبمعنى آخر، يؤكد الخطاب العنصري، مع بناء المعنوية الدقيقة بالإضافة إلى الصيغ والأفعال، على صفاتنا الحسنة وصفاتهم السيئة، ويتجاهل (أو يخلف أو يخفي) صفاتنا السيئة وصفاتهم الحسنة. إن المربع الأيديولوجي العام لا ينطبق على الهيمنة العنصرية فحسب، بل كذلك على استقطاب مجموعة الداخل-الخارج ضمن الممارسات الاجتماعية والخطاب والفكر" (توين أ. فإن دايك: الخطاب والقوة، ٢٠٠٧، ترجمة سهى مطلوب، غير منشورة، ص ٩٠).

وهذا مثل آخر لترجمات فيها كثير من الجهد والإخلاص، لكن فيها كذلك استسلام للنص الأصلي، ولها كثير من النقل الحرفي الذي لا يراعى الفروق البلاغية بين اللغتين العربية والإنجليزية، ولا يحقق الغاية التي من أجلها يجب أن تكون الترجمة وهي التوصيل - توصيل فكرة النص الأصلي إلى القارئ في اللغة التي يترجم إليها. ما الذي يعنيه "المربع الأيديولوجي" عند من لم يقرأ النص الأصلي ومن ليس له سابق عهد بكتابات فإن دايك؟ ولماذا لا تستخدم الترجمة تعبير عربية أصيلة من قبيل "التجميل والتكبيح"، و"التهويل والتهوين"، و"الممدح والذم"؟

ومن أدوات التحليل النقدي للخطاب التي شاع استخدامها وانتقلت إلى تحليل الخطاب السياسي ما أطلق عليه فإن دايك (٢٠٠٧ ب، ص ١٣٠) مصطلح "المربع الأيديولوجي" ideological square، أو التجميل والتشوويه، والتهويل والتهوين، ويشير ببساطة إلى استخدام كل ما سبق من أدوات في تجميل كل ما لنا ومن معنا، وتشويه كل ما لغيرنا ومن علينا أو ضدنا.

لتحقيق ذلك، يعد المتكلم أو الكاتب إلى التهويل والتهوين، بمعنى تضخيم حسناته وسينات غيره، وتهوين سيناته وحسنات غيره:

§ تعزيز صفاته وأفعاله الإيجابية وتكبيدها (أنا):  
تهويل (كل ما هو) إيجابى (عندى أنا أو عندنا نحن).

§ تعزيز صفات عدوه أو منافسه (الأخر) وأفعاله السلبية وتكبيدها: تهويل (كل ما هو) سلبى (عندك أنت أو عنده هو أو عندهم هم).

§ التهوين من صفاته وأفعاله السلبية (أنا): تهوين (كل ما هو) سلبى (عندي أنا أو عندنا نحن).

§ التهوين من صفات عدوه أو منافسه وأفعاله الإيجابية (الأخر): تهوين (كل ما هو) إيجابى (عندك أنت أو عنده هو أو عندهم هم).

# 1

## عن لغة الإعلام واستعارات شتى

يعود كثير من الفضل في تطور التحليل النقدي للخطاب، وتحليل الخطاب السياسي من بعده، إلى جورج أورويل Orwell، وما طرح من أفكار، وما تحت من مصطلحات، في مقالاته وروايات منها رواية ١٩٨٤.

من بين هذه المصطلحات يبرز مصطلح doublespeak، وهو الكلام ذو الوجهين، أو الزائف المضلل، ومن أمثله تجميل ما هو قبيح، أو ما ينظر الناس من الكلام الصريح عنه اشمزازاً أو خجلاً أو خوفاً - "يقضى حاجتنا"، و"توفاه الله"، و"بعافية"، و"وعىة"، و"معاشرة". أصبح هذا المصطلح مبرراً لعدد كبير من المصطلحات والمفاهيم التي تصف لغة السياسة والإعلام، ومنها مصطلح لغة الإعلام mediaspeak الذي تناوله فوكس Fox (٢٠٠٠) بالتفصيل، حيث صنّف هذه اللغة إلى لغة زائفة مُضللة، ولغة تخاطب الحواس sensationspeak، ولغة ترويجية salespeak (إعلانات، وعروض، وهدايا، وتزيينات). وتشمل لغة

الحواس بدورها الكلام عن النجوم والمشاهير (celebspeak) خصوصاً مشاهير ونجوم الرياضة، والفن، وحكاياتهم، وأخبارهم، وزيجاتهم، وموضاتهم، إلى ما لا نهاية - مع الاعتذار بضيق المكان لنون النسوة) والكلام عن الكائنات الفضائية والغريبة (alienspeak) (الحياة على الكواكب الأخرى، والسياحة الفضائية، والأطباق الطقيرة)، ولغة الكراهية (hatespeak) (وما أكثرها وما أوفرها في المنتديات، والمدونات، ومقالات الصحف، والرسوم الكاريكاتيرية، وفي الرسائل القصيرة على شاشات التلفزيون، وفي البرامج الحوارية التلفزيونية، خصوصاً بعد الحادي عشر من سبتمبر، وكاترينا، وغزو الكويت، واحتلال العراق، ومباريات الأهلي والزمالك، ونظيراتها في الدول العربية الشقيقة).

### حماسة وصقر

"على أن مقامكما هناك لن يستغرق إلا ريثما يبحث مختار له عن سكن خاص. وأظنك معي في أنه لا وجه لأن بقم بيننا بعد الآن، وفي البيت عزاء في جمال زينك. أجل، فيما مضى كنا فرحين لا خوف عليهما من الجوار، ولكن الحماسة نبت ريشها، كما برزت مخالب الصقر، وما أظن أن عشنا واحداً أصبح يصلح لإيوائهما".

(حصن عفيف: زينك، ١٩٣٩، ص ١٩ - ٢٠)

### الإسلام فضاء وصراط

"الإسلام فضاء ذو حدود: هذه الاستعارة إستراتيجية ليس في الخطاب الديني للإمام السالمي فقط، وإنما في الخطاب الديني الإسلامي على وجه العموم. وتقوم هذه الاستعارة على معرفتنا بالفضاءات المغلقة، كالغرفة، أو السيارة، أو قاعة الدرس، أو السينما. الإسلام طريق وصراط مستقيم: "صدرت مني إليهم إشارة بالنصيحة عن هذا الاعوجاج ومطالبة الرجوع إلى أقوم منهاج"، "قامنتم ببعض الكتاب وكفرتم

ببعض، واستبدلتهم بالرشد غيا، وبالهدى ضللا، وقوله تعالى: "ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل" (من كتاب بذل المجهود في مخالفة النصارى واليهود للإمام السالمى في دراسة الحراسى، ٢٠٠٠)

### استعارات منها ما ورد في القرآن الكريم

من (فقه اللغة للثعالبي)

"رأس الأمر"، و"رأس المال"، و"وجه النار"، و"عين الماء"، و"حاجب الشمس"، و"أنف الجبل"، و"أنف الباب"، و"لسان النار"، و"ريق العزن"، و"يد الدهر"، و"جناح الطريق"، و"جناح النمل من الرحمة"، و"كبد السماء"، و"ساق الشجرة"، و"انشقت عصاهم"، و"شانت نعمتهم"، و"مرؤا بين سمع الأرض وبصرها"، و"قسا بينهم القربان"، و"كشفت الحرب عن ساقها"، و"أبدى الشر عن ناجذية"، و"حمى السوطيس"، و"دارت رعى الحرب"، و"افتز الصبح عن نواجذة"، و"سل سف الصبح من عمد الظلام"، و"تعر الصبح في قفا الليل"، و"باح الصباح بسرة"، و"ارتفع النهار"، و"ترحكت الشمس"، و"رمت الشمس بجمرات الظهيرة"، و"خلفت رايات الظلام"، و"ساب رأس الليل"، و"كسبت الشمس جلبابها"، و"قام خطيب الرعد"، و"خفق قلب البرق"، و"انقطع شريان الغمام"، و"تنفس الربيع"، و"تعطر النسيم"، و"تبرجت الأرض"، و"قوى سلطان الحر"، و"احمر قناع الصيفا"، و"جاشت جيوش الخريف"، و"شابت مفارق الجبال"، و"اشتعل الرأس شيبا"، و"يوم عبوس"، و"الأدب غذاء الروح"، و"الشباب باكورة الحياة"، و"الشيب عنوان الموت"، و"العيل سوس المال"، و"النار فاكهة الشناة"، و"الوحدة قبر الحي"، و"الصبر مفتاح الفرج"، و"الشمس قطيفة المسكين"، و"لباس الجوع والخوف"، و"سوط عذاب"، و"لم الكتاب"، و"لم القرى" (الثعالبي، ٢٥٦- ٢٥٧).

## استعارات (سياسية واقتصادية ورياضية... إلخ) معاصرة

من الأهرام، والمصريون، والمصري اليوم، والخليج،  
والإمارات اليوم، والرياض (٢ يوليو ٢٠٠٨) وغيرها

(١)

دول "مارقة"، ودول "شفيفة"، ودول "صديفة"، ودول "معدية" (المجتمع الدولي أسرة)،  
و"محور" الشر، والحرب "على" الإزهاب، و"كبش فداء"، و"بطنة سوداء"، وحصان  
"أسود"، و"رغبة" متوحشة، و"الراعي" والنساء، و"غرام" الأقاعي، (البشر حيوانات  
عاقلة)، و"الحيتان" الكبيرة، و"الأسماك" الصغيرة، والعزاء و"العقرب"، و"إخطبوط"  
الفساد، وحكومة "الظل"، وأصوات "محروقة"، و"شراء" الأصوات، و"شاهيندر تجار"  
مصر، و"القيصر"، و"تفريغ" قانون حماية المنافسة (القانون وعاء)، و"لعة شد الحبل"  
بين طهران وواشنطن، و"اللعاب" بالنار، و"اللعاب" على العقول، و"لعة" الكرسي  
الموسيقية، و"لعة" السياسة، و"الدعارة" السياسية، والعهر السياسي (السياسة لعبة  
قذرة)، و"غسيل" المخ، و"هجرة" العقول، و"استنزاف" خزانة الدولة، ومواطنون "ضد  
الغلاء"، و"جحيم" الأسعار، و"تدني" الرواتب، والأسعار "تلتهم" الزيادة في الرواتب،  
و"خرق" القواعد، و"الخترق" الصلوف، وأسلحة "الخداع" الشامل، و"خرق" المبادرات  
الشابة، ويشدد "الخداع" على غزة، و"فجوة" مخصصات السديون، ودون تحميل  
الموازنة لية "أعباء"، و"حسني عبد ربه" من "حق" الإسماعيلي (البشر ممتلكات)،  
ودفع "عجلة" التنمية، ودفع "مسيرة" السلام، والصين قوة "صاعدة"، و"فشل" نربيع  
إسرائيل، و"تجاج" لحزب الله، و"شراكة" إستراتيجية، و"انفصال" بين شركتين، و"شد  
وجذب" بين الشركاء، و"تسونامي" الشائعات، و"عيد جلاء" المدرسين الخصوصيين  
عن بيته، و"موجة" من اللاجنين، و"غليان" في شوارع العاصمة، والدنمركيون "أسعد"  
شعوب العالم، وزيمبابوي الأكثر "تعاسة"، و"حقائب" وزارية جديدة، و"بنك"

المعلومات، و"صدام" الحضارات، وثقافة الاحتلال لم "تتجتر" بعد، و"يحيى" الأمل في الوصول إلى حل، و"بزوغ" فجر العسكرية المصرية، والفتاحين الأسبان الجدد (فريق كرة القدم الفاتز ببطولة أمم أوروبا ٢٠٠٨).

## (٢)

"مركة" الهبوط، و"شيخ" الحرب والانتفاضة (الامة جسد)، و"هيبه" النولة، و"راب الصدع، و"بلورة" رؤية إفريقية، و"فكوا قيده" (لاعب يريد ترك ناديه)، و"كيل" الاحتلال، و"تدشين" / إطلاق مشروع، و"شمس" الحرية، و"قيود" الاستعمار، والحقيقة "العارية"، و"شجرة" / "بلر" الحرمان، وبيت من "لحم"، والصحة "تفحص" الصلاة في بلادها، و"ترسيخ" العمل العربي المشترك، والحضارة "الفعل" الذي "يهاض" الهمجية، و"علل" المجتمع و"أفاته" (المشكلات الاجتماعية أمراض)، وكلام "حلو"، وكلام "لذيذ"، وكلام "مصول"، وكلام "جارخ" (الكلام طعام وشراب وسلاح)، ومنذبة "لامعة"، و"تجم" متألق، و"كوكبا" الشرق، و"يحيك" مؤامرة، و"ينسج" قصة من الخيال، و"حرب" كلامية (الجدل والمحاجة حرب)، و"أعدة" الحكمة، و"أسن" البلاغة، و"جذور" الاستبداد، والقضاء على الفتنة في "مهدها"، و"ملايح" أزمة الغذاء (الظواهر الاجتماعية والثقافية أبنية ونباتات وكنائت)، والوطن / اللغة "الأم"، و"حضن" الوطن (الوطن أم)، والأصدقاء "المقربون"، والقراء الزوار الكرام، والمحور "الضيف" (المواقع والمنشورات بيوت)، وأيام "سوداء" أو "بيضاء"، ومستقبل "مظلم" أو "مشرق"، و"بدير" لغة الأمور، و"زبان" سفينتنا (الحياة سفينة)، و"رحلة" النمسين، و"رحلة" الحب، والحياة "رحلة" (الحياة رحلة)، وفي "قلال" القرن / السنة، و"ظلام" الجهل، و"تور" المعرفة، ويوم "حلو" ويوم "مر"، وأيامنا "الحلوة"، وإجزة سريعة / قصيرة، والزمن "يجري"، والأيام "تمر"، و"توحة فنية" رائعة (مجموعة من البشر يعملون معا)، والعيون "توافذ" الروح، و"كلام" العيون، وله أيد "بيضاء" على تلاميذه،



ويعد "يد" العون، والأم "مدرسة"، و"سيمفونية" رائعة (عن أداء جماعي)، و"عزف" منفرد (عن مهمة فردية)، و"فيروسات" و"قراصنة" (في عالم الكمبيوتر والإنترنت)، والصفحة الرئيسية (في أصلها الغربي homepage)، و"تأكل" الطبقة الوسطى، و"تلز" الغيرة، و"بركان" الغضب (المشاعر نيران)، و"بحر" الحياة موجه عال، و"بر" الأمان (الحياة بحر)، و"الزواج" بين الولايات المتحدة وإيران وبين الولايات المتحدة ودول أخرى (العلاقات بين الدول كالعلاقة بين زوج زوجة، الدول بشر).

## تحليل الخطاب السياسي

إن السياسة بمعنى التأثير والتوجيه والتمويه والخداع والتفاوض ماثلة في كل زمان ومكان، من هنا يأتي تأكيد التحليل النقدي للخطاب على تناول علاقات القوة والهيمنة، وتجليات الأيديولوجيا في كل أنواع النصوص - في خطاب الآباء والأبناء، والقضاة والمتهمين، والأطباء والمرضى، والمدرسين والطلاب أو التلاميذ، ورجل الشرطة والمواطن "العادي"، والعالم والمتعلم، والشيخ والمريد، والمُستحق والمُستحق، والراعي الرعية، وأرباب الأعمال ومديريها بموظفيهم، من يمكن ومن لا يمكن، من يعلم ومن لا يعلمون - إذا كانوا يعلمون أنهم لا يعلمون.

وليس من بين أنواع الخطاب ما تتجلى فيه الهيمنة والقوة ومحاولات التأثير أكثر من الخطاب السياسي بمعناه الخاص المُحدّد الذي يتعلّق بأمر الحكم والسياسة، ولهذا السبب استأثر الخطاب السياسي دون غيره من مجالات التحليل النقدي للخطاب، وما زال يستأثر، باهتمام متزايد حتى تطور في دراسته اتجاه مهم هو تحليل الخطاب السياسي **Political Discourse Analysis**. الذي ينطلق من مقولات ومفاهيم التحليل النقدي للخطاب، ومن ثمّ ما تأسس عليه من اتجاهات ومفاهيم، ويرتكز على لغة السياسة والسياسة، في خطبهم وحواراتهم ومكتباتهم وقراراتهم ومؤتمراتهم وتصريحاتهم، وعلى وظائف الخطاب السياسي، وغاياته، وأدواته في تحقيق هذه الغايات.

في أدبيات تحليل الخطاب السياسي، التي تتراكم وتزداد نضجاً وتعقيداً يوماً بعد يوم - وتحديداً في دراسة تشيلتون وشيفنر (١٩٩٧) المهمة عن الخطاب والسياسة - أربع وظائف يسعى الخطاب السياسي إلى تحقيقها - ليست مقصورة عليه، لكنها تتجلى فيه بشكل لافت، وهي:

(أ) القمع والقهر **coercion** - من خلال فرض القوانين والأحكام والعقوبات والتنظيمات، وشنّ الحروب، والتهديد، وفرض الأوامر والتنظيمات وما إليها.

(ب) إضفاء الشرعية أو تجريد الآخرين - الأعداء، والخصوم، والمنافسين، ومن إليهم - منها **legitimation/ delegitimation** - من خلال تجميل الذات وتقبيح الآخر، كما يرد تفصيله في غير هذا الموضع، ومن خلال ادّعاء الانحياز إلى جانب الحق والخير والعدل في مواجهة من ينحازون إلى الباطل والشر والظلم.

(ج) المقاومة والمواجهة **resistance and opposition** - إزاء الخطاب المساند المهيمن، خصوصاً إذا كان خطاباً شمولياً لا يراعي إسماعية البشر ولا يعدل بينهم، وفي محاولات التغيير إلى ما هو أفضل. علينا أن نلاحظ هنا أن ما هو هامشي في لحظة تاريخية محددة ربما يحتل المتن في مرحلة لاحقة، وقد يمارس كل الرذائل التي كان ينتقدها في سابقه.

(د) التضليل **dissimulation** - من خلال إخفاء بعض التفاصيل أو الحقائق لحساب تفاصيل وحقائق أخرى، أو التركيز على بعض جوانب الواقع دون غيرها تحقيقاً لما سبق من غايات.

يستطيع الخطاب السياسي أن يحقق هذه الغايات من خلال اللغة، ومن آليات ذلك على سبيل التمثيل لا الحصر - وقد تقدّم تلخيص هذه الآليات في الحديث عن التحليل النقدي للخطاب:

(أ) الاستعارة :

من ذلك ما نجد في تعبير الإدارة الأمريكية "hunting down bin Laden" الذي يتحول فيه أسامة بن لادن إلى "حيوان" يطارده صيادو البنتاجون. وقد وردت أمثلة أخرى للاستعارة في متن التبسيط وهوامشه.

### (ب) التشبيه :

تشبيه صام حسين بهتلر، والقاعدة بالمافيا، على سبيل المثال. لا يبدو أن التشبيه نفس التأثيرات السياسية والبلاغية التي للاستعارة، ربما لأن أداة التشبيه تلت النظر وتستفز التساؤل عن حقيقة العلاقة بين طرفي التشبيه.

### (ج) الافتراض المسبق :

من ذلك سؤال بوش في خطابه عقب الحادي عشر من سبتمبر الشهير **Why do they hate us?** ("لماذا يكرهوننا؟" وواو الجماعة تشير إلى المسلمين والعرب و"أنا" إلى الأمريكان) الذي يفترض مسبقاً صحة الاعتقاد بأن العرب والمسلمين يكرهون الولايات المتحدة، وقوله **The enemy of America is not our many Muslim friends** الذي يفترض مسبقاً وجود عدوٍ يترىص بالأمريكا وأن أمريكا لها كثير من الأصدقاء في العالم الإسلامي.

### (د) التجميل :

من ذلك التعبير عن الاحتلال بالتحجير، وعن الحرب "على" العراق بالحرب "في" العراق، وعن الأخطاء الغيبة بالنيران الصديقة، ومن ذلك أيضاً ما امتعنا به "الصحاف" وزير الإعلام العراقي في عهد "صدام حسين من أخبائه المسلة عن "الانتصارات" العراقية المتعاقبة في "معركة الحواسم" الأخيرة التي ذهب بعدها صدام والصحاف إلى غير رجعة، ومن ذلك التعبير عن الهزيمة بالنكسة، والانسحاب بالترجع، والقتلى والضحايا بالخسائر في الأرواح.

### (هـ) التفتيح :

من ذلك سيل الشتائم التي سمعنا من "الصحاف" حين وصف الغزاة الأنجلوأمريكيين بـ "العوج" ومصاصي الذماء و"جحوش الاستعمار" و"عصابة الأوغاد الدولية". (بالإضافة إلى التنقل بين المبني للمعلوم والمبني للمجهول وتحويل الأفعال إلى مجرد أشياء تقع أو تحدث دون قصد أو دافعية إنسانية).

هكذا، ومن خلال متابعة لغة الحرب على العراق، نستطيع أن نتحقق من توظيف اللغة كسلاح مهمّ وفعال في تبرير الحرب أو مقاومتها من خلال تجميل الذات وتشويه الآخر، فقد عملت الإدارة الأمريكية على تشويه صورة صدام حسين الذي قدم لها كل المساعدات الضرورية من خلال تصرفاته "الطائشة"، من وجهة نظر تلك الإدارة، وعيّه بمفترقات شعبه، وقمعه إياه. في نفس الوقت، سعت الإدارة الأمريكية إلى تجميل صورتها، وتهميش كل أخطائها وخطاياها، وإخفاء دوافعها الحقيقية من وراء الحرب - صدام ليس الطاغية الوحيد، وهو ليس كذلك في نظر الجميع، ولم يكن في العراق أسلحة دمار شامل، كما أن صدام - من وجهة نظر كثيرين - كان لائن صناعة أمريكية. على الجانب الآخر، أبقى حزب البعث على خطابه الذي يغزل مشاعر المسلمين والعرب من خلال التعلّق بأستار الكعبة، وبقايا القومية العربية، وحدث الجهاد في سبيل الله، والعرض والشرف والكرامة. في نفس الوقت، بذل الصحاف جهدا خارقا في تشويه الغزاة المستعمرين. لكن لغة الحرب العراقية المنهكة أخفقت، وأخفقت كذلك لغة حربها اللغوية. ولعلّ من أكثر نتائج تلك الحرب أهمية أن العالم قد أصبح أكثر وعيا بتوظيف اللغة كسلاح خداع شامل. لم يكن الأمر من قبيل الاكتشاف، لأنّ توظيف اللغة كأداة للدعاية والحرب قديم قدم الإنسان نفسه، لكن المسألة لم تعد تحتل مزيدا من الانتظار للاهتمام بهذه الوظيفة على مستوى التداول الإعلامي والبحث الأكاديمي.

كذلك نستطيع أن نتحقق من خلال مراجعة لغة الحرب على الإرهاب ثم على العراق من توظيف وسائل الدعاية **propaganda** اللغوية لتحقيق غايات سياسية ورد نكرها أعلاه. من ذلك ما حفل به خطاب الحريين من ألفاظ رتابة، وتعابير برفافة **glittering generalities** كالديموقراطية، والحريّة، والعدالة. في صراعها مع الإرهاب، والديكتاتورية، والظلم، والخوف. حين ندقق النظر، نكتشف أنّ هذه الكلمات ليست لها نفس الدلالات عند المتحاربين، فما فعله صدام وابن لائن "جهاد في سبيل الله" تحوّل عند بوش إلى "إرهاب"، وما فعله بوش "حرب على الإرهاب" تتحوّل عند معسكر "الأعداء" إلى "إمبريالية"، و"غزو"، و"استعمار".

ومن ذلك خلط الأوراق card-stacking في سبيل التعيم على الدوافع الحقيقية، فبدلاً من مناقشة الأسباب الحقيقية "لكراهية العرب" أمريكا، رأينا الإدارة الأمريكية تنسب ذلك إلى ما تتمتع به الولايات المتحدة من حرية، وحضارة، وعدالة، وما يتقنل كاهل العرب من قمع، وقهر، ومحاكم تفتيش، وأحكام عرفية، وطقيان. لم نسمع بوش يتناول تحيزات إدارته، ومكاييلها المتباينة، وأقنعتها المتعددة.

ومن أساليب الدعاية السياسية كذلك الحديث بلسان حل العامة plain folks، والإيهام بأن موقف القيادة ليس إلا تعبيراً عن مشاعر الشعب ورغباته. ومن ذلك أيضاً التعيم والفتراض التعبير عن الأغلبية، ليس في الداخل فقط، بل في شتى أنحاء العالم، ويرتبط بهذه الوسيلة الدعائية التيقن من النصر band-wagon and inevitable victory - "أنا أعبر عن شعبي، والعالم المتحضّر كله معي، وسوف نتنصر؛ إما أن تكون معنا أو علينا، وإذا قرّرت ألا تكون معنا، فسوف تكون حتماً من الخاسرين". هكذا تكلم جورج بوش الابن.

ومن وسائل الدعاية التي تابعتها في الحربين كذلك التمايز بالألقاب، والمسب، أو الشتم name calling، وقد وردت فيما سبق أمثلة لذلك في معرض الحديث عن لغة "الصحاف". لم يقصّر جورج بوش من ناحيته، فقد أتم على صدّام وابن لادن بسبيل من الألقاب التي تحمل العامة على كراهيتهما. ولقد أصبح لقب "إرهابي" تهمة جاهزة لكل من تسول له نفسه معاداة الأقوياء؛ فالفلسطينيون "إرهابيون"، والعراقيون الذين يقاومون الاحتلال "إرهابيون"، و"محور الشرّ axis of evil محور إرهاب. وطالما وردت كلمة "الشر"، فقد انتقل الصراع من تنافس على الهيمنة وسعى إلى تحقيق غايات سياسية واقتصادية، إلى صراع بين "الخير" و "الشر". ونحن جميعاً نعرف إلى أي معسكر تتحاز السماء. هكذا أصبح الدين وسيلة دعوية، وآلة حرب. لم يكن بوش رائداً في توظيف الدين لتحقيق غايات سياسية فقد سبقه إلى ذلك عدد لا بأس به من القادة العرب. وسوف ترد إشارات أخرى إلى ذلك لاحقاً.

لم تنته القصة بعد، لكن المؤكد أن لغة الخطاب السياسي تحتاج إلى كثير من الاهتمام في عالمنا العربي. بوسع البلاغة العربية أن تستوعب ما يستجد من مفاهيم تتعلق بوظائف الخطاب السياسي والدعاية السياسية.

ليس المقصود الانحياز لأنّ أياً من الأطراف المعنية في الحروب التي نتحدث عنها لم يقدم للبشرية ما يستحق أن تحمده له أو أن تدافع به عنه (وهذه في ذاتها مقولة منحررة)، لكن المقصود هو الوعي والتوعية.

## 1

### خصائص الخطاب السياسي

#### تحسين القبيح وتقييح الحسن

من طريف ما تحفل به البلاغة العربية ما كتبه أبو منصور الفعالبي - وهو صاحب بتيمة الدهر وفقه اللغة كذلك - في كتابه تحسين القبيح وتقييح الحسن، وقد جمع فيه ما قيل في تحسين ما تمّ التعرف على تقييحه، وتقييح ما اتفق الناس على تحسينه. يذكر الفعالبي في المقايح تقييح العلم، والشجاعة، والأهب، والقسي، والحلم، والصبر، وغيره. ويذكر فصولاً في تحسين الكذب، والوقاحة، والذنوب، والمرض، والموت، والجن، والسجن. على أننا لا ينبغي أن نقع في فخه البلاغي، فهو لا يمدح الكذب إطلاقاً، بل يمدح من الكذب ما يوصل به الرحم ويتصلح المتناهرون. وهو لا يذم العلم في ذاته، بل يذم منه ما يورد صاحبه مولد النزق ويلبسه لباس الغرور. يقول الفعالبي في تحسين الفراق وتقييح التلاقي: "قل بعض الظرفاء: في الفراق مصافحة التسليم، ورجاء الأوبة، والسلامة من الملل، وعسارة القلب بالشوق، والأمن بالمكعبة! وكتب أبو عبد الله الزنجي الكاتب: جزى الله الفراق عنا خيراً! فإتما هو زفرة وعبرة، ثم اعتصام وتوكيل، ثم تأميل وتوقع.. وتقيح الله التلاقي! فإتما هو مسرة لحظة، ومساة أيام، وابتهاج ساعة، وكتتاب زمان' (من موقع الوراق).

في ختام تحليله  
نصوصاً سياسية مهمة  
لجورج بوش وأسماء  
بن لادن ومناقشته  
تاريخ العلاقة بين اللغة  
والمسيمة وغير ذلك  
من جوانب الخطاب  
السياسي.

يلخص بول تشيلتون  
Chilton (2004):

(2005-201) سمات هذا  
التوع من الخطاب فيما  
يلي - مع كثير من  
التصرف على سبيل  
التبسيط:

(١) يعتمد الخطاب السياسي

على الإشارة **deixis** -

بمعناها الواسع الذي سبق

توضيحه - إلى الزمان

والمكان والمكانة والعلاقة

والمساق.

(٢) يقوم الخطاب السياسي

على التفاعـل

**interaction** الذي تتبدى

من خلاله الحدود التي تفصل

والروابط التي تجمع، تفصل

الأنا عن الآخر وتجمعها

ومن يحالفها أو يشبهها أو

ينتمي إليها، وتتبدى من

خلاله كذلك المكانة السياسية

والاجتماعية والاقتصادية

والأنوار التي يلعبها كل

طرف في التفاعل أو حوله.

(٣) يشتمل التفاعل على

نوع من التفاوض والتداول،

تداول الواقع، ومراجعة

فرضياته المهمة، ومحاولة

فرض ما نفترض أو نسلّم به

نحن على الآخرين.

إضفاء الشرعية وتجريد الآخرين منها

(فان ليوين van Leeuwen، ٢٠٠٧: ٩٢، بتصرف)

في "المربع الأيديولوجي" وفي وظائف الخطاب السياسي تأكيد على ما يقوم به كل خطاب أيديولوجي من إضفاء الشرعية على نفسه وتجريد الآخرين - الخصوم والأعداء والمنافسين والصناد والنقاد - منها، ويستطيع منج الخطاب أن يخلق هذه الغاية - التي لا يخلو منها أو من بعض درجاتها أو ظلالها خطاب إسمي - من خلال:

§ إسباغ السلطة **Authorization** - من خلال استلهام الموروث والتقليد والعادات والقوانين والاستشهاد بأصحاب النفوذ والتأثير الثقافي أو الفكري أو السياسي، كرجال الدين والرموز التاريخية.

§ إصدار الأحكام الأخلاقية **Moral evaluation**: إصدار أحكام أخلاقية عن الخير والشر والفضيلة والريثة والقيم والصواب والخطأ والحلال والحرام والطم والجهل وغير ذلك من تنقيت.

§ العقلنة **Rationalization**: إضفاء العلامية على مقولة أو قضية أو موقف أو اتجاه، من خلال الأرقام والإحصائيات والتسلسل المنطقي والاستشهاد بالمختصين وذوي الخبرة والطم والمعرفة.

§ الأسطورة والمسرود **Mythopoesis**: حكايات وقصص - حقيقية أو مؤلفة - مفادها أن كل ما هو شرعي يحظى بالنهايات السعيدة وكل ما هو خارج عن الشرعية ينتهي نهايته الطبيعية - "إلى سلة مهملات التاريخ" بتعبير جورج بوش في خطابه عقب الحادي عشر من سبتمبر. لا بد أن يتزوج "البطل" من "البطلة" وأن يلقى القبض على المجرم الشرير.



(٤) يشتمل الخطاب السياسي على توقع ما يفكر فيه الآخرون والتنبؤ بما يدبر المنافسون وما يؤمن به "الأعداء" ومن ثم تفنيده أو إضعافه أو تشويبه وتقييده.  
(٥) يتحقق قدر كبير من التفاعل في الخطاب السياسي بفضل قدرة اللغة على الدلالة على مستويات مختلفة، وقدرتها على التعبير عن الواقع، ثم التعبير عن التعبير عن الواقع.

(٦) يتحقق قدر كبير من التفاعل في الخطاب السياسي بفضل ثراء تعابير اليقين والشك وتعابير الضرورة والالتزام الأخلاقي والديني والاجتماعي - تعابير "فعل" و"لا تفعل" و"يجب" و"ينبغي" و"لا بد" و"علينا".

(٧) يركز الخطاب السياسي إجمالاً على تصنيفات ثنائية متعارضة، وربما متصارعة، بين الحق والباطل، بين الخير والشر، بين العدل والظلم، بين الشرعية وعدم الشرعية، بين الوطنية والخيانة، بين الحرية والقمع. عادة ما يكون صاحب الخطاب في المعسكر الأول وأعداؤه في "محور الشر".

(٨) لمفهوم الأنوار roles أهمية خاصة في الخطاب السياسي، والمقصود هنا هو ما يؤدي المشاركون في الخطاب من وظائف وأدوار اجتماعية أو سياسية أو عسكرية، سواء كانت هذه الأدوار حقيقة أو مفترضة أو مرجوة أو مسلوية من الآخرين، والعلاقات التي تربط بين من يؤدون هذه الوظائف ويلعبون هذه الأدوار - "الحاكم" و"المحكوم" و"الراعي" و"الرعية" و"الرئيس" و"الشعب" و"الحكومة" و"المعارضة" و"الجمهوريون" و"الديمقراطيون" و"العمال" و"الفنات" و"أعضاء مجلس الأمة" و"الوزراء" وهكذا.

(٩) للنوع بالمكان والمكانة أهمية خاصة في الخطاب السياسي، ومن ذلك ما يتعلق بمفهوم "الحدود" و"المياه الإقليمية" و"نول الجوار" و"الشرق" و"الغرب" و"الاحتلال" و"الغزو" والهجرة و"الشمال" و"الجنوب" وما يرتبط بذلك من استعزات وتصورات وحقوق وواجبات.

(١٠) يشتمل الخطاب السياسي على قدر وفير من التفكير الاستعاري، على معنى أن للاستعارة وظيفة مهمة في صياغة التصورات وتجسيد المفاهيم والأطروحات السياسية. من ذلك ما نجد في استعارة "اصطياد أسامة بن لادن" في هذا الجزء من التبسيط. لا تكتفي الاستعارة هنا بتقبيح قائد تنظيم القاعدة بل تنتقل من ذلك إلى تجريده من الشرعية ووضعه في معسكر الشر الذي تصيح محاربه التزاماً أخلاقياً مشروعاً.

(١١) من خلال الوعي بالمكان والتصورات الاستعارية التي ترتبط به، تتشكل الجماعات والقوميات والشعوب والأقليات والدول والدويلات، ويتشكل كذلك وعيها بمن ينتمي إليها ومن لا ينتمي، وتتبلور الهوية identity السياسية والجغرافية والاقتصادية لتلك التجمعات، وتتبلور مفاهيم "نحن" و"هم"، من "منا" ومن "علينا". وقد يقع التبسيط المخل والالتباس بين الهوية الجغرافية وبين الهوية السياسية أو الدينية كما نجد في تصور هنتنغتون Huntington صراعاً بين غرب "مسيحي" وشرق أوسط "مسلم". ليس كل من في الغرب مسيحيين، وليس كل من الشرق الأوسط مسلمين.

(١٢) يبدو أن هناك ارتباطاً من نوع ما بين الخطاب السياسي وبعض المشاعر الإنسانية الفريزية كحب الوطن والغيرة على الدين والحفاظ على الحرمات والمعالم والأماكن المقدسة والنفور من الغريب والرغبة في الانتماء وحب "الأهل" والأسرة والانتماء إلى دين أو عشيرة. وكلها مشاعر بجيد الخطاب السياسي إثرتها والعزف على أوتارها بما يحقق غاياته وأهدافه.

(١٣) تكررنا لبعض ما سبق وتأسيساً عليه، تتجاوز الإشارة والتعبير الإشارية مجرد تحديد المكان إلى تحديد المكانة والدور والعلاقة بين المشاركين في الخطاب، من مجرد الإشارة إلى من أنا ومن أنت ومتى، إلى تأسيس علاقة بين "أنا" وكل ما هو حسن وخير - وبين "عدوي" أو "منافسي" وكل ما هو قبيح وشر - وتحقيق التسامح بين منتج الخطاب ومن يسعى إلى إرضائهم من ناخبين أو جماهير أو لجان أو هيئات. هكذا تبقى الإشارة بمعناها الرحب سلاحاً مؤثراً في جدل الهويات والانتماءات، درعاً يدفع وسيفاً يقتل، بدأ تضم "ذوي القربى" وأخرى تحجب الغريب.

## في العالم العربي

هناك وعي متزايد في الجامعات العربية بضرورة التحليل النقدي للخطاب، وتحليل الخطاب السياسي. نجد هذا في دراسة سهام القراح El-Kareh (١٩٨٥) التي تتناول عينة من خطابات جمال عبد الناصر، ودراسة ملك هاشم Hashem (١٩٩٠) التي تتناول صراع القوى في قصة قصيرة، ودراسة أبو خليل Abu Khalil (١٩٩٤) التي تتناول الجبرية في خطابات جمال عبد الناصر وصدام حسين، ودراسة الراشد Al-Rashid (١٩٩٤) التي تتناول بلاغة الخطاب السياسي في المملكة العربية السعودية في تسعينيات القرن الماضي، ودراسة وجيه Wageih (١٩٩٤، ١٩٩٦) وتتناولان التفاوض الاجتماعي والسياسي، ودراسة علا حافظ Hafez (١٩٩٩، ٢٠٠٠) وتتناول أولاهما العلاقة بين الخطاب والقوة، والثانية الخطاب الجماهيري وما فيه من الثغرات وتبادل أنوار، ودراسة الحراصي (٢٠٠٢) التي تتناول الاستعارة المفهومية وتعرّج على التحليل النقدي للخطاب، مع تطبيقات على بعض خطب الإمام عليّ كرم الله وجهه، ودراسة رشا خيرى Khairy (٢٠٠٠) التي تتناول التعدية وجوانب نحوية ودلالية وتداولية أخرى في لغة فضيحة ووترجيت، ودراسات مزيد Mazid (١٩٩٩، ٢٠٠٤، ٢٠٠٧، ٢٠٠٨) وتتناول الأولى التحليل النقدي للخطاب وتطبيقه في تحليل خطاب السادات أمام الكنيست الإسرائيلي وإعلان الاستقلال الأمريكي وأجناس خطابية أخرى، وتتناول الثانية الكلام الجميل والقبّيح في خطاب الحرب على العراق، والثالثة التحليل النقدي لخطاب الترجمة، والرابعة الافتراضات المسبقة في خطاب للرئيس بوش في أعقاب الحادي عشر من سبتمبر، وتتناول الخامسة صورة بوش وابن لائن في عينة من النصوص الكاريكاتيرية، ودراسة محمد Muhammad (٢٠٠٤) التي تتناول بالتحليل النقدي عينة من عناوين الصحف العربية والإنجليزية، ودراسة ميديا أحمد Ahmed (٢٠٠٧) التي تتناول بالتحليل النقدي لغة الصحف العربية والإنجليزية،

## في العالم العربي

هناك وعي متزايد في الجامعات العربية بضرورة التحليل النقدي للخطاب، وتحليل الخطاب السياسي. نجد هذا في دراسة سهام القارح El-Kareh (١٩٨٥) التي تتناول عينة من خطابات جمال عبد الناصر، ودراسة ملك هاشم Hashem (١٩٩٠) التي تتناول صراع القوى في قصة قصيرة، ودراسة أبو خليل Abu Khalil (١٩٩٤) التي تتناول الجبرية في خطابات جمال عبد الناصر وصدام حسين، ودراسة الراشد Al-Rashid (١٩٩٤) التي تتناول بلاغة الخطاب السياسي في المملكة العربية السعودية في تسعينيات القرن الماضي، ودراسة وجيه Wageih (١٩٩٤، ١٩٩٦) وتتناولان التفاوض الاجتماعي والسياسي، ودراسة علا حافظ Hafez (١٩٩٩، ٢٠٠٠) وتتناول أولاهما العلاقة بين الخطاب والقوة، والثانية الخطاب الجماهيري وما فيه من الثغرات وتبادل أنوار، ودراسة الحراصي (٢٠٠٢) التي تتناول الاستعارة المفهومية وتعرّج على التحليل النقدي للخطاب، مع تطبيقات على بعض خطب الإمام عليّ كرم الله وجهه، ودراسة رشا خيرى Khairy (٢٠٠٠) التي تتناول التعدية وجوانب نحوية ودلالية وتداولية أخرى في لغة فضيحة ووترجيت، ودراسات مزيد Mazid (١٩٩٩، ٢٠٠٤، ٢٠٠٧، ٢٠٠٨) وتتناول الأولى التحليل النقدي للخطاب وتطبيقه في تحليل خطاب السادات أمام الكنيست الإسرائيلي وإعلان الاستقلال الأمريكي وأجناس خطابية أخرى، وتتناول الثانية الكلام الجميل والقبّيح في خطاب الحرب على العراق، والثالثة التحليل النقدي لخطاب الترجمة، والرابعة الافتراضات المسبقة في خطاب للرئيس بوش في أعقاب الحادي عشر سبتمبر، وتتناول الخامسة صورة بوش وابن لائن في عينة من النصوص الكاريكاتيرية، ودراسة محمد Muhammad (٢٠٠٤) التي تتناول بالتحليل النقدي عينة من عناوين الصحف العربية والإنجليزية، ودراسة ميديا أحمد Ahmed (٢٠٠٧) التي تتناول بالتحليل النقدي لغة الصحف العربية والإنجليزية،

ودراسة أحلام الخطابي Khattabi (٢٠٠٨) التي تتناول التجميل والتقييح والكلام الزائف المضلل doublespeak في المؤتمرات الصحفية، ودراسة منى سعد Saad (٢٠٠٨) التي تتناول الاستجابات البرلمانية المصرية من جوانبها النحوية والدلالية وما يتعلق بتنظيم خطاب الاستجواب interpellation إجمالاً، ودراسة برهومة (٢٠٠٨) التي تتناول دور لغة السياسة في تكريس الصور النمطية بين الغرب والشرق، وصراع القيم الحضارية في زمن الثورات السياسية، وخطاب الاستعلاء الأمريكي وموقف الآخرين إزاءه.

هذا إضافة إلى دراسات مهمة تُعرف بالاتجاهات الوظيفية والتداولية كما نجد في كتاب فضل (١٩٩٢) عن بلاغة الخطاب وعلم النص. أما المقالات الصحفية والإلكترونية - على ما فيها مما يعوق الفهم، ناهيك عن الاستساغة - ففيها ترجمة بعض أفكار النحو الوظيفي، وأفعال اللغة، والمبدأ التعاوني، والكميعة والتأنيب، لكنها لم تقارب بعد التحليل النقدي للخطاب، أو تحليل الخطاب السياسي إلا فيما ندر. وتبقى الدراسات الأكاديمية المشار إليها محدودة بحدود أرفف مكنتها، وحدود من يقبلون على مطالعتها باللغة الإنجليزية.

ليس ضعف الاتجاه النقدي والسياسي في الدراسات اللغوية العربية بمستغرب، بالنظر إلى طبيعة الثقافة العربية التي تؤثر السلامة على الصدام و"الصداع"، وبالنظر إلى مساحة الحرية الأكاديمية المتاحة للباحثين العرب، هذا بالإضافة إلى سوء فهم "النقد" إجمالاً، بحيث يصبح مرادفاً للتفتيش عن العيوب، وإلى ضعف الاتجاه النقدي التحليلي في المنظومة التعليمية العربية. هذا إلى ما يسوّر على كثير من "الدوائر" الأكاديمية العربية من قصر "الدراسات اللغوية" على النحو، والصرف، والأصوات، والدلالة، وما إليها، على مستوى المفردات، والعبارات، والجمل، لا النصوص، وكمّل الذين يدرسون تحليل الخطاب، والتداولية، والتحليل النقدي للخطاب يهربون من صرامة النحو والصرف والأصوات وعلم المعنى. حقيقة الأمر أنّ الاتجاهات الوظيفية تنطلق من كلّ ما سبق من مستويات التحليل اللغوي، ولا تتوقف عنده، بل تتجاوزّه إلى البنى الكبرى، والغايات، والمقاصد، والنصوص في سياقاتها، واللغة كما "تداولها" البشر وكما "تداولهم".

## نصوص وتطبيقات

بعض ما يرد فيما يلي تحليل، وبعضه هو أمش على نصوص، وبعضه مسودات تحليل. ولا بد أن نعود فنقول مرة أخرى، قبل النصوص والتطبيقات، إن ما يصدق على النصوص اللغوية يصدق كذلك على النصوص البصرية، ففي الصور استعارات، وتشبيهات، وتكرار، وحذف، وجناس، وطباق، وهكذا.

(١)

### دعاء الفرج

"اللهم احرمني بعينك التي لا تنام، واكفني بركتك الذي لا يرام، وارحمني بقدرتك علي، فلا أهلك وأنت رجائي: كم من نعمة أنعمت بها علي قل لك بها شكري، وكم من بلية ابتليتني بها قل لها عندك صبري. فإيا من قل عند نعمته شكري فلم يحرمني، وإيا من قل عند ابتلائه صبري فلم يخذلني، وإيا من رأي علي الخطايا فلم يفضحني، وإيا ذا النعم التي لا تحصى أبدا وإيا ذا المعروف الذي لا ينقطع أبدا أعني علي ديني بدنياي وعلي آخرتي بنقواي، واحفظني فيما غبت عنه، ولا تكنني إلي نفسي فيما حضرت. يا من لا تضره الذنوب ولا تنقصه المغفرة، اغفر لي ما لا يضرك وأعطني ما لا ينقصك. يا وهاب أسالك فرجا قريبا وصبرا جميلا والعافية من جميع البلايا وشكر العافية".

### على سبيل التحليل

الدعاء نوع خطابي ديني يتوجه فيه العبد إلى ربه بطلب المغفرة، أو العون، أو الرزق، أو هؤلاء جميعا، أو ما عداهم. ولكل دعاء سياقاته المختلفة التي تفتقر

بمناسبة دينية، أو حاجة إنسانية، أو لحظة حرجة في حياة من يتوجّه بالدعاء. يتأسس الدعاء على عقيدة وإيمان بالله أولاً وبقدرته على تحقيق ما يرد في الدعاء. وللدعاء آداب وشروط - هي بمثابة مبررات نجاعته في نظرية أفعال اللغة كما تقدم - ومنها الشعور بالافتقار والحاجة إلى الله، والدعاء بما يتفَع لا ما يضر. غير أن شروط وآداب الدعاء في الإسلام تتجاوز ما نجد من شروط ومقنمات أفعال اللغة كما ورد من قبل.

من هذه الشروط والآداب ما هو اعتقادي روعي، كالإخلاص لله تعالى، واليقين بالإجابة، وحضور القلب، ومنها ما هو سلوكي أو شعائري، كاستقبال القبلة، والتضرع، والخشوع، والرغبة، والرغبة، وعدم الاستعجال، والدعاء في الرخاء والشدة، وتحري أوقات الإجابة، والمبادرة باغتنام الأحوال والأمكن التي هي من مظان إجابة الدعاء، وكثرة الأعمال الصالحة، وردّ المظالم مع التوبة، ورفع الأيدي في الدعاء، والوضوء قبل الدعاء إن تيسر، والتقرب إلى الله بكثرة التواقل، والبعد عن المعاصي، وأن يكون المأكل والمشرب والملبس وغيرهم من حلال. ومنها ما هو لفظي، كأن يبدأ من يدعو بحمد الله والثناء عليه، ثم الصلاة على النبي - صلى الله عليه وسلم - ويختم بذلك، والجزم، والإحاح في الدعاء، وألا يسأل إلا الله وحده، وعدم الدعاء على الأهل والوالد والنفس، وخفض الصوت بالدعاء بين المخافتة والجهر، والاعتراف بالذنب، والاستغفار منه، والاعتراف بالنعمة، وشكر الله عليها، وعدم تكلف السجع في الدعاء، والدعاء ثلاثاً، وألا يعتدي في الدعاء، وأن يبدأ الداعي بنفسه إذا دعا لغيره، وأن يتوسل إلى الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، أو بعمل صالح قام به الداعي نفسه، أو بدعاء رجل صالح له (بعض ما ورد في تلخيص: الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين: "الدعاء". من موقع <http://www.elafco.com>، بتصريف).

هذه الشروط والآداب، ومعظمها يرقى إلى مرتبة السنن، لأنها وردت عن الرسول صلى الله عليه وسلم، تفسر كثيراً من خصائص النص الذي بين أيدينا، وتحقق له

المسك، ومنها تكرار المفردات: "صبري" و"شكري"، والبنى التحوية: "أحرسني بعينك التي لا تنام"، و"أكنفتي بركنك الذي لا يرام"، و"فرجا قريباً"، و"صبراً جميلاً"، و"على ديني بدنياي" و"على آخرتي بتقواي"، وتكرار صيغة "فعل" التي لا تفيد الأمر، بل الرجاء والتوسل والاستعطاف، وصيغة لا تفعل التي لا تفيد النهي، بل الدعاء والانتعاش، وترد مرة واحدة: "لا تكني". ويحفل الدعاء كذلك بالطباق، والتقابل، والجناس، والسجع: "نعمة" و"بليّة"، و"غبت" و"حضرت"، و"قل شكري" "قلم بحرمني"، و"قل صبري" "قلم يخذلني"، و"تضر" و"بضر"، و"تنقص" و"ينقص".

ومن كمال الخضوع لله أن المتكلم لا يرد في الدعاء إلا مفعولاً به أو لأجله: "أحرسني" و"أكنفتي" و"أرحمني" و"أنعت بها علي" و"ابتليتني" و"أبحرمني" و"أخذلني" و"رأيتي" و"ألفضحتني" و"أعنتي" و"أحفظني" و"لا تكني". في المواضع التي يرد فيها ضمير المخاطب الذي يعود على لفظ الجلالة في موقع المفعول به (لا تضره الذنوب" و"لا تنقصه المغفرة" و"لا يضرك" و"لا ينقصك") تنتفي الأفعال جميعاً. ولا يرد المتكلم في موقع الفاعل إلا في مقام التوسل (أسألك)، أو مجرد التواجد الذي لا يقع قطعه على مفعول به (غبت" و"حضرت"). أما الأدب مع الله فيتجلى في نكر بعض نعمة، ومغفرته، وتجاوزة عن المعصية: "قلم بحرمني" و"قلم يخذلني"، والثناء عليه عز وجل والإقرار بقدرته: "بعينك التي لا تنام" و"بركنك الذي لا يرام"، ورحمته وكرمه: "يا ذا النعم التي لا تحصى أبداً". هذا بالإضافة إلى ما تقدم من صيغ نحوية بلاغية تتسجم مع طبيعة العلاقة بين العبد وربّه.



(٢)

## بلاغة إسلامية

### خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع

تنبيه: لا بد أن يؤكد هنا أن التعامل مع خطبة الرسول صلى الله عليه وسلم ليس كالتعامل مع سائر النصوص البشرية - وهذا جزء من عقيدة المسلم. لا ينبغي أن نتعامل مع النص بهدف تقليده أو نقده، بل للوقوف على ما فيه من سبك وحبك واستعرات وإشارات وغير ذلك مما ورد في متن هذا التبسيط. وليس مطلوباً ممن لا يؤمنون بما يؤمن به المسلمون أن يتلقوا مع هذا الموقف.

”إن الحمد لله نحمده ونستغفره ونتوب إليه؛ ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهّد الله فلا مضلّ له، ومن يضلّ فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله. أوصيكم عباد الله بتقوى الله، ولحُكم على طاعته، واستئْتِج بالذي هو خير. أما بعد،

أيها الناس، اسمعوا مني أبيعن لكم، فإني لا أدري لعليّ لا ألقاكم بعد عاصي هذا في موقلي هذا. أيها الناس، إن نماعكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا. ألا هل بلغت، اللهم اشهد. فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى الذي أتمنه عليها، وإن ربا الجاهلية موضوع، وإن أوك ربا أبدأ به ربا عني العباس بن عبد المطلب، وإن نماء الجاهلية موضوعة، وإن أول نم أبدأ به نم عامر بن زبيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وإن مائر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية. والعمد قود، وشبهه العمد ما قتل بالعصا والحجر، ففيه مائة بعير، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية.

أيها الناس، إن الشيطان قد ينس أن يُعبد في أرضكم هذه ولكنه رضي أن يُطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم. أيها الناس، إنما التسيء زيادة في الكفر، يُضلّ به الذين كفروا، يُحلونه عاماً ويُحرمونه عاماً، ليؤاظنوا عداة ما حرم الله، وإن

الزمان قد استدار كهينته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق، السموات والأرض، منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات، وواحد فرد، ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب الذي بين جمادى وشعبان، ألا هل بلغت، اللهم أشهد.

أيها الناس، إن نسانكم عليكم حقاً، وإن لكم عليهن حقاً، لكم عليهن أن لا يُوطئن فرشكم غيركم، ولا يدخلن أحداً تكرهونه بيوتكم إلا بأنكم، ولا يأتين بفاحشة، فإن فعن فإن الله قد أنن لكم أن تفضلوهن وتهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وإنا النساء عنكم عوار لا يمكن لأفسيهن شيئاً، أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيراً. أيها الناس، إنا المؤمنون إخوة فلا يحل لامرئٍ مال أخيه إلا عن طيب نفسه، ألا هل بلغت، اللهم أشهد.

فلا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم أعناق بعض، قبلي قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تضلوا: كتاب الله، ألا هل بلغت، اللهم أشهد.

أيها الناس: إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب، فكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى، ألا هل بلغت؟ قالوا: نعم. قال: فليبلغ الشاهد منكم الغائب.

أيها الناس، إن الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث، ولا يجوز لوارث وصية ولا تجوز وصية، في أكثر من الثلث، والولد للفراش وللعاهر الحجر، من ادعى إلى غير أبيه، أو تولى غير مواليه، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صزقاً ولا عدلاً.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته'

( العقد الفرید لابن عبد ربه الأندلسی، نسخة موقع الوراق، ص ص ٤٨٧- ٤٨٨).

الزمان قد استدار كهينته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق، السموات والأرض، منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات، وواحد فرد، ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب الذي بين جمادى وشعبان، ألا هل بلغت، اللهم أشهد.

أيها الناس، إن نسانكم عليكم حقاً، وإن لكم عليهن حقاً، لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم غيركم، ولا يدخلن أحداً تكرهونه بيوتكم إلا بأنكم، ولا يأتين بفاحشة، فإن فعن فإن الله قد أنن لكم أن تفضلوهن وتهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وإنا النساء عنكم عوار لا يملكن لأنفسهن شيئاً، أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيراً. أيها الناس، إنا المؤمنون إخوة فلا يحل لامرئٍ مال أخيه إلا عن طيب نفسه، ألا هل بلغت، اللهم أشهد.

فلا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم أعناق بعض، قبلي قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تضلوا: كتاب الله، ألا هل بلغت، اللهم أشهد.

أيها الناس: إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب، فكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى، ألا هل بلغت؟ قالوا: نعم. قال: فليبلغ الشاهد منكم الغائب.

أيها الناس، إن الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث، ولا يجوز لوارث وصية ولا تجوز وصية، في أكثر من الثلث، والولد للفراش وللعاهر الحجر، من ادعى إلى غير أبيه، أو تولى غير مواليه، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صزقاً ولا عدلاً.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته'

( العقد الفرید لابن عبد ربه الأندلسی، نسخة موقع الوراق، ص ص ٤٨٧-٤٨٨).

الزمان قد استدار كهينته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق، السموات والأرض، منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات، وواحد فرد، ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب الذي بين جمادى وشعبان، ألا هل بلغت، اللهم أشهد.

أيها الناس، إن نسانكم عليكم حقاً، وإن لكم عليهن حقاً، لكم عليهن أن لا يُوطئن فرشكم غيركم، ولا يدخلن أحداً تكرهونه بيوتكم إلا بأنكم، ولا يأتين بفاحشة، فإن فعن فإن الله قد أنن لكم أن تفضلوهن وتهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وإنا النساء عنكم عوار لا يمكن لأفسيهن شيئاً، أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيراً. أيها الناس، إنا المؤمنون إخوة فلا يحل لامرئٍ مال أخيه إلا عن طيب نفسه، ألا هل بلغت، اللهم أشهد.

فلا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم بعضاً، قبلي قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تضلوا: كتاب الله، ألا هل بلغت، اللهم أشهد.

أيها الناس: إن ربكم واحد، وإن أبابكم واحد، كلكم لأنم، وأنم من تراب، فكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى، ألا هل بلغت؟ قالوا: نعم. قال: فليبلغ الشاهد منكم الغائب.

أيها الناس، إن الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث، ولا يجوز لوارث وصية ولا تجوز وصية، في أكثر من الثلث، والولد للفراش وللعاهر الحجر، من ادعى إلى غير أبيه، أو تولى غير مواليه، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صزقاً ولا عدلاً.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته'

( العقد الفرید لابن عبد ربه الأندلسی، نسخة موقع الوراق، ص ص ٤٨٧-٤٨٨).

## على سبيل التحليل

هذا نصٌ من النصوص المحورية في الثقافة الإسلامية - خطبة الرسول صلى الله عليه وسلم في آخر عام حج فيه قبل انتقاله إلى ربه عز وجل. في النص ما في جنس الخطبة من فاتحة دينية، واستغفار، وشهادة، ودعاء، وحلال وحرام، وترغيب وترهيب، وشيء من سرد قليل في الحديث عن ربا الجاهلية، وفيها مفردات دينية تتعلق بالمعتقدات، والعبادات، والفتنسات من القرآن الكريم، وفيها أحكام وتعاليم تتناول حرمة الدماء والأشهر الحرم، والوصية بالنساء، والموارث، والنسب، والتقوى كعلامة فارقة، والحقوق والواجبات المتبادلة بين الزوج والزوجة، وبين المؤمنين كافة، وتأكيد على المساواة بين البشر إلا فيما يميز بعضهم من بعض من تقوى.

سياق النص هو مكانه في مكة المكرمة، وزمانه حجة الوداع، والعلاقة بين المتكلم والمتلقي هي علاقة سمع وطاعة والتداء، ولعل هذا يفسر ما ترى في النص من سلطة التقرير، والتعليم، والأمر والنهي، وهي سلطة إيجابية، ليست من قبيل القمع، أو القهر، أو التلاعب بالعقول، لأن غايتها هي صلاح أمر المسلمين من خلال طاعة الله عز وجل، وتزكية النفس، وتحقيق العدل، وعصاة الأرض.

لما أتوت النص لتحقيق غاياته البلاغية والتبليغية فسترد الإشارة إلى بعضها فيما يلي، وقد تقدم الكلام عن جنس النص وموضوعاته، غير أن من العسير الوقوف على نغمة الخطبة أو إيقاعها إلا من خلال ما نجد من نص مكتوب، وما نعرف عن الرسول صلى الله عليه وسلم، وعن سياق الخطبة كما ترى فيما يلي من ملاحظات عبارة على نص مهم.

تشتمل الخطبة فاتحة دينية تقليدية توارثها الخطباء والدعاة المسلمون عن الرسول صلى الله عليه وسلم، حتى أصبحت قالباً خطابياً أثيراً، وفيها الحمد والاستغفار، بما يرسخ الانتماء إلى الله، وفيها القسمة الخالدة بين المهتدين والضالين، والشهادتان

بما يرسخ الانتماء إلى الإسلام، ثم النصيحة بتقوى الله وطاعته. يلي ذلك لفت انتباه المتلقي من خلال النداء "أيها الناس"، والأمر "اسمعوا مني"، وتحديد غاية غايات الخطاب - "أبين لكم" - وتبرير أهميته - "لعلني لا ألقاكم". ثم ترد مجموعة من التعبيرات الإشارية المهمة يتكرر فيها اسم الإشارة "هذا" للقريب، فيحيل إلى وقت حج الرسول صلى الله عليه وسلم، وإشارة إلى المستقبل على سبيل الظن "لعلني لا ألقاكم...". تكتسب التعبيرات الإشارية دلالتها هنا من معرفة المتلقي ما تشير إليه والأرضية الاعتقادية التي يقف عليها خلف الرسول صلى الله عليه وسلم، وهي حرمة ما ورد في الخطبة، حرمة الزمان والمكان المشار إليهما.

وفي النص من التوازي التركيبي ما يوحى بتبادل الحقوق والواجبات في "لكم عليهن" و"لهن عليكم"، وكثير من التكرار كما في "ألا هل بلغت...، للتحقق من بلوغ الرسالة، و"أيها الناس" للتبنيه، وفيه اقتباسات من القرآن الكريم منها "إنما التسمي زيادة في الكفر" و"إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض". تحتشد في الخطبة كذلك الجمل التقريرية اليقينية وكيفيات الإلزام من أوامر وفروض وتعاليم وتحليل وتحريم، بما يناسب المقام ويناسب علاقة الرسول صلى الله عليه وسلم بالمسلمين ويناسب أغراض الخطاب وغاياته.

في الخطبة ما يبرز الإلحاح على تحقيق غاياتها من حيث زمتها قبل وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وموضوعاتها التي لا يصلح بغيرها أمر المسلمين. من هنا كان التكرار وحشد الأحكام والتعاليم والوصايا والاستشهاد بالله وإشهاد عز وجل على أداء المهمة في العلاقة التواصلية - علاقة الوحي ثم التبليغ - التي ينطلق منها النص بين المسلمين وخالفهم ورسوله صلى الله عليه وسلم.

## عن الإقناع في البلاغة الإسلامية

"لماذا لم تتطور في البلاغة الإسلامية نظرية متكاملة في الإقناع؟  
ربما لأنّ الوحي هو مدار الإقناع وهو معيار ما للكلام أو الخطاب من تأثير في تلك البلاغة. إنّ الرسالة السماوية، وهي كلام الله المعجز، تُحقّق الإقناع، لا من خلال بنية بلاغية إقناعية، أو من خلال بلاغة خطيب متمرس، بل من خلال ما فيها من كمال التوحد والانسجام بين الحقّ والجمال. وإذا لم يتحقّق الإقناع، فليس الخلل في تلك الرسالة، بل في أداة تلقيها، ألا وهي القلب، فالرسالة قد نزلت في أكثر أشكال البلاغة كمالاً واكتمالاً، ونعى بها القرآن، وهو ما يشير بوضوح إلى أنّ التقصير عن إدراك كلام الله مردّه إلى عجز الفرد أو المجتمع عن السمع أو زهدهما فيه.

إنّ العجز عن سماع كلام الله من العلامات التي تميز الشياطين وأهل النار من البشر: "... لهم قلوبٌ لا يفقهون بها ولهم أعينٌ لا يبصرون بها ولهم آذانٌ لا يسمعون بها..." (الأعراف، الآية ١٧٩).

وعندما يستجيب البشر لكلام غيرهم أو لكلام الله، دون سلبية أو تقصير، فإنّ فعل الاستجابة يختصّ به السامع، على معنى أنّ السمع أو الاستماع ليس مجرد استقبال سالب تلقائي، بل هو نوع من الفعل: أنا أسمع أو أستمع، إنّنا أفعال. لهذا السبب، لا تتطلب الرسالة السماوية في العقيدة الإسلامية خطيباً بليغاً، بل مستمعاً واعياً يستطيع أن يسمع ما يصل إليه من كلام الله، فيلاغة الرسالة وكمالها وإعجازها بما يستعصي على الترجمة تكمن في ذاتها لا في بلاغة من ينقلها أو يبلغها..." (هيرشكيند Hirschkind، ٢٠٠٦، ص ٥٠).

يؤكد هذا الاقتباس على حقيقة مهمة، وهي أنّ الاستماع فعلٌ كالكلام، وربما يتجاوزها في الأهمية في بعض المواضع. وهو هكذا خصوصاً في ثقافة صوتية في كثير من تجلّياتها. ويشير الاقتباس كذلك عدداً من القضايا تتعلق بالفروق الجوهرية بين الإقناع الذي يقوم على الاستشهاد والاقتباس، والإقناع الأرسطي الذي يقوم على المحاجة واستثارة مشاعر من قبيل الخوف أو الشفقة **pathos** وتقديم الدليل العقلي **logos** والتأسييس لمصادقية المتكلم **ethos**. لا ينبغي أن نقع في أشارك القولبة التي تصنف الثقافات إلى عقلية مادية وروحانية عقلية، وتنحاز إلى بعضها دون بعض، فنُقصي الوحي لحساب العقل - وكأنّه يعجز عن مخاطبته - أو نُسفه العقل لحساب النقل. وهذا مقالٌ لا قيل لمقام التبسيط الراهن بالإحاطة به من جميع جوانبه.

(٣)

## خطابة سياسية إسلامية

من خطبة لأبي العباس السفاح بالشام

"خطب أبو العباس عبد الله بن محمد علي، لما قتل مروان بن محمد، فقال: ألم نر إلى الذين بنكوا نعمة الله كفرا وأخلوا قومهم دار البوار، جهنم يصلونها ويمنن القرار، تكصن بكم يا أهل الشام آل حرب، وآل مروان، يتمسكون بكم الظلم، ويتهورون بكم مداحض الزلق، يطؤون بكم حرم الله وحرم رسوله، ماذا يقول زعماؤكم غدا؟ يقولون: ربنا هؤلاء أضلونا فاتهم عذابا ضيقا من النار. إذا يقول الله عز وجل لكل ضعف ولكن لا تعلمون. أما أمير المؤمنين، فقد انتسف بكم التوبة، واغتفر لكم الزكاة، وبسط لكم الإقالة، وعاد بفضله على نقصكم، وبجله على جهلكم، فليرح روعكم، ولتظمنن به داركم، ولتعظكم مصارع أوتانكم، فلك بيوتهم خاوية بما ظلموا" (العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي، نسخة موقع الوراق، ص ٥٠٨).

### على سبيل التحليل

لا بد أن يتأسس تحليل خطاب كهذا على وصف متصل للسياق بما يشمل المتكلم، أول الخلفاء العباسيين، والقتيل - مروان بن محمد، آخر خلفاء بني أمية - وأهل الشام وآل حرب وآل مروان، وما كان يجمع أو يفرق بين هؤلاء جميعا، وكذا الحضور الذين توجه إليهم المتكلم بالخطاب، والظروف السياسية والاجتماعية التي أحاطت به. أما غايات الخطاب فتشمل التوبيخ - "بنكوا نعمة الله كفرا" - ثم الإبلاغ بالعمو - "أما أمير المؤمنين ... اغتفر لكم الذلة ..." - والدعوة إلى الاعتبار - "ولتعظكم مصارع أوتانكم". وفي الإبلاغ بالعمو جملة أفعال كلامية: قيل تسويتكم وغفر زلتكم وأقل عثرتكم وتفضل عليكم وقابل جهلكم بحلمه. وفي الانتفا والاعتذار مجاهدة ربما لأن الذنب كان عظيما.



في النص ثلاثة احتمالات من القرآن الكريم، لا ترد ناتئة أو مقحمة، بل جزءاً من نسيجه، وكان المتكلم يريد أن يقول إن الآيات المعتبسة قد نزلت في أهل الشام ومن "تكص بهم" من آل حرب وآل مروان: "لم تر إلى الذين ينكوا نعمة الله كفراً..."، و"ربنا هؤلاء أضلونا فاتهم عذاباً شديداً من النار"، و"فتك بيوتهم خاوية بما ظلموا". إذا كانت القاعدة التفسيرية الإسلامية تقول إن العبرة بعموم اللفظ وليست بخصوص السبب، فإن ما أراد المتكلم لجمهوره في ذلك السياق هو التسليم بأن ما وقع منهم ومن آل حرب وآل مروان يندرج تحت تبديل "نعمة الله كفراً"، وغير ذلك مما يرد في بقية الاحتمالات. (ويبدو أن هذه الوسيلة من سمات كثير من الخطب السياسية، فقد شبه بوش صدام بهتلر، وشبه حسن نصر الله إسرائيل بفرعون وحاشيته، كما نجد في خطابه في تطبيق لاحق في هذا التبسيط)

ليس هذا الخطاب الموجز فريداً في باب توظيف المناسبة والحكام القرآن الكريم لتحقيق غايات بلاغية سياسية في العالم العربي والإسلامي. حتى الذين لا يطبقون ما فيه من أحكام يلونون به ليضمنوا تعاطف عامة المسلمين. أليست الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة وسيلة من أكثر وسائل الدعاية الانتخابية نجاعة في العالم الإسلامي؟ لقد ظلّ الدين سلاحاً مؤثراً فعلاً في يد المناسبة والحكام بطول العالم العربي الإسلامي وعرضه، في ماضيه وحاضره، يستعملون به القلوب، وربما يتلاعبون بالعقول، ويضمنون تأييد الرعية، ويجيشون به الجيوش، ويستزلون به نصر الله، حتى وهم يتقاتلون فيما بينهم.

وفي نصّ أبي العباس ثناتيات لافتة تميز معسكر أمير المؤمنين - حيث الحكمة، والإيمان، والاحتيال إلى جانب الله، والعلو، والكرم، والفضل، والحلم - من معسكر الخارجين من أهل الشام ومن ضلّهم من آل حرب وآل مروان - حيث تكص العهد، والتسمير، والتسكع، والتهور، والاجترار على حرّامات الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، والتضليل، والضلال، والنقص، والجهل. تتحقق القطبية أو التنافية في الخطاب من خلال الترادف والسجع بين مفردات الانحراف عن جادة الطريق والخروج على

الحكم في "يتسكعون" و"يتهورون" و"يطؤون" و"اضلون"، ومفردات العفو والفضل والحلم في مصكر أمير المؤمنين، وما بين هاتين المجموعتين من المفردات من تقابل، بين "الزلة" و"غفر"، وبين "فضلة" و"نقصكم"، وبين "حلمة" و"جهلكم"، وهكذا. ويبقى على من ضلوا وجهلوا أن تعظهم مصارع أوائلهم - وفي هذا استعارة فعل بشرية هو الوعظ والتعليم للكلام عن المصارع - فما أشبه الليلة بالبارحة!

سوف تظلّ تلك الثنائيات سمة جوهرية من سمات الخطاب السياسي، وليس من غايات تحليل هذا النوع من الخطاب استخلاص أحكام تتحرز إلى طرف على حساب غيره. من حق من يدرس الخطاب السياسي أن تكون له تحيزاته وميوله، فهو في نهاية الأمر بشر، لكن ليس من وظائفه أن يقضي بين أطراف الصراع. إن غاية التحليل والدراسة في هذا الصدد هي الوقوف على ما في الخطاب من صراع وجدليات، وطرائق التعبير عنها، ووسائل تبريرها، وما يمارس الخطاب من تجميل وتقييح، وإسباغ شرعية على النفس وتجريد المناوئين منها.

### الدعاية في التراث الإسلامي

بلغت برنارد لويس Lewis (٢٠٠٤) النظر إلى العلاقة الاشتقاقية بين مفردات "الدعاء" و"الدعوة" و"الدعاية" و"الإذاعة" و"المذعي" و"الذعي" و"الداعية"، حيث ترد جميعها من أصل واحد هو الفعل الثلاثي "د ع و"، غير أنه - وهو المستشرق المشهور - يعرف أن بعض هذه المفردات سالب مستهجن، وبعضها مقبول وإيجابي، على أساس ما يتحقق للمتلقى من خير أو شر، وما يعد إليه المتكلم أو الكاتب من صدق أو تحايل في الوصول إلى غايته البلاغية. بعد هذا التأسيس، يعرّج المستشرق على مراحل شتى في تاريخ الدعاية في الثقافة الإسلامية، فيتوقف عند الدعاية لبني العباس في مواجهة بني أمية، وأغراض الفخر والهجاء والمدح في الشعر العربي، وفيها ما فيها من دعاية للشاعر وقبيلته، وتشويه للخصوم والمناوئين والمنافسين، وتمجيد من يحظون بالمدح. وهذه فصول مهمة في البلاغة الغربية تستلزم وقفات تداولية عميقة مستفيضة.

(٤)

### من أصداء السيرة الذاتية لنجيب محفوظ

"في صباي مرضت مرضاً لازمني بضعة أشهر. تغير الجو من حولي بصورة مذهلة وتغيرت المعاملة. ولت دنيا الإرهاب، وتلفتني أحضان الرعاية والحنان. أمسي لا تغرقني وأبي يمر عليّ في الذهاب والإياب. وأخوتي يقبلون بالهدايا لا زجر ولا تعبير بالسقوط في الامتحانات. ولما تماثلت للشفاء خفت أشد الخوف الرجوع إلى الجحيم. عند ذاك خلق بين جوانحي شخص جديد، صممت على الاحتفاظ بجو الحنان والكرامة، إذا كان الاجتهاد مفتاح السعادة فلأجتهد مهما كلفني ذلك من عناء، وجعلت أقب من نجاح إلى نجاح، وأصبح الجميع أصدقائي وأحبائي. هيهات أن يفوز مرضى بجميل الذكر مثل مرضي" (نجيب محفوظ: دين قديم من أصداء السيرة الذاتية، ٢٠٠٦).

### ظروف وأحوال

هذه شذرة محكمة بليغة من شذرات أصداء سيرة نجيب محفوظ الذاتية. تتكى الشذرة على الطباق بين حالين والتراصف بين عناصر كل من الحالين، بين "الإرهاب" و"الزجر" و"التعبير بالسقوط في الامتحانات" و"الجحيم"، من ناحية، و"الرعاية" و"الحنان" و"لا تغرقني" و"يمر عليّ" و"الهدايا" و"السعادة" و"النجاح"، من الناحية الأخرى. إشارتان زمنيّتان تلتفتان القارئ إلى لحظتين فارقتين في حياة المستكلم في النص - "في صباي" و"عند ذلك". أما الحدث فهو المرض الذي لازمه شهوراً - "مرضت". ما تزامن مع المرض من سلوك ودود رحيم ورعاية وعناية - "تغير الجو من حولي" - أنتجت وعياً وإدراكاً - "خلق بين جوانحي شخص جديد" - وعزماً -

"صنمت على الاحتفاظ بجو الحنان والكرامة" - وخبرة تصبح منهج حياة - "إذا كان الاجتهاد مفتاح السعادة فلأجتهد مهما كلفني ذلك من عناء" - ثم فعلا إيجابيا يتكرّر حتى يصبح عادة - " وجعلت أثب من نجاح إلى نجاح".

لقي الصبي صداقة ومحبة هذه المرة أيضاً لكن لأسباب مختلفة. فسي المرض كان الصبي موضع عطف وشفقة، ولم تكن له يد أو اختيار - بل كان مجرد مريض متابع يقع عليه فعل الرعاية ويحظى بصنوف العطف - "تلقفتني"، "لا يفارقتي"، "يمرّ علي"، "يقبلون بالهدايا (عليه)". حين يتحقق الوعي، يصبح الصبي فاعلاً على اتخاذ القرار، بل على تحقيق النجاح مرة إثر أخرى، في نشاط وحيوية وإرادة - "أثب". وفي "الوثب" استعارة السلم الذي يرقى إلى أعلى، أو الطريق الذي يحفل بالصعاب والعقبات، وكناية عن القوة والحيوية. فلماذا لا ينكر المرض بكل الخير إذا كان قد حقق الوعي وامتلك القدرة على الفعل بسببه؟ غير أن المرض لم يكن هو العامل الفاعل، بل كانت الرعاية والاهتمام وقد حلا محل "الإرهاب".

لا بد أن اختيار نجيب محفوظ "الشنرة" نواة لأصداء سيرته الذاتية كان مقصوداً. والحال هكذا في عوم الخطاب الإنساني حيث يصبح الإطار frame الذي ينقل التجربة والخبرة الإنسانية جزءاً مهماً منها وأداة مؤثرة في نقلها. لعل محفوظ أراد لخبراته وخلصه تجربته أن تنتقل إلى المتلقي في نصوص مركزة مكثفة تحفل بالرمز والمجاز وتعدد فيها طبقات المعنى. ومن اللافت كذلك تحوّل العلاقات في هذا النص القصير المحكم من إرهاب وقهر إلى رعاية وعناية. ليس هذا كل ما يمكن أن يقال عن الناظير framing أو تحوّل العلاقات والاحييزات والمواقف خلال التفاعل اللغوي footing - وهما مفهومان بالغ الأهمية من ميراث إرفنج جوفمان في التحليل النقدي للخطاب، إذ يشير الأول إلى الزاوية التي ينطلق منها الخطاب والإطار الذي يختاره منتجه من جذ أو هزل أو سخرية أو غير ذلك، ويشير الثاني إلى تبديل الأحوال والعلاقات أثناء التفاعل اللغوي وما ينجم عن ذلك من تحولات في المفردات والأسلوب وغير ذلك، بل وما تلعب اللغة من دور في تجسيد هذه التبدلات والتحولات.

(٥)

## خطاب الكرة

### إعلام المسير ومتعب والزمالك!!

عبدالعزيز أبو حمر، المصريون، ٢ يونيو ٢٠٠٨

لم يكن مسئولوا الإسماعيلي فقط هم الذين اخترقوا حرمة معسكر المنتخب الوطني قبل المباراة الهامة أمام الكونغو، بل فعل ذلك أيضا عبر الهاتف فتاة تكتب في أحد المواقع الجماهيرية الإلكترونية، لتجري عشية اللقاء حواراً قل فيه عبد متعب مهاجم الأهلي كلاماً في حق نادي كبير لا يجوز من لاعب بنادي كبير وبالتبعية يفترض أنه لاعب كبير. وإذا صدق ما كتب على لسان متعب من أن الحالة الوحيدة التي يمكن أن ينتقل فيها الزمالك هي أن يصاب بمس من الجنون وفقدان الوعي، فإن ذلك يشكل إساءة مباشرة للزمالك تضاف لإساءات كل من هب ودب للقلعة البيضاء في العهد الميمون للضارب بالذنب. ولا أدري ما ذنب الزمالك، وما فائدة هكذا تصريح وماذا سيضيف كلام ينضح بالغباء للاعب ينتمي للنادي الكبير الذي يجب أن يعاقب لاعبه صغير العقل مثلما يجب على المسؤولين بالمنتخب اتخاذ إجراء ضد متعب على أساس أن هذا الحوار - إن صدق - تم ليلة مباراة الكونغو. وإجمالاً فإن دخول الجنس اللطيف من المشجعات إلى غمار الإعلام الرياضي الإلكتروني الجماهيري يطرح علامات استفهام عديدة. وذكرني حوار المتعب باشا بتصريح كان الوحيد والأوحد لشوقي باشا عندما كان يجري الاختبارات في نادي ميدلزبره الإنجليزي الصيف الماضي، وهو التصريح الذي نشر هو الآخر في موقع من المواقع الجماهيرية، وكتبته أيضاً فتاة بدرجة مشجعة.. والمعنى أن الباشيين لم يردوا إلا على فتاتين!!.. وحتى لا يتهم أحد العبد لله بأنه معادي للأثوية، فما أضع تحته خطأ هو

التداعيات السلبية المحتملة لتحول المشجعات إلى إعلاميات مسيار كحل مؤقت لضمان رد لاعب (روش) في زمن النجومية المطلقة مثل متعب على الهاتف.. والعدو لله بطالب حسام البدرى مدير الكرة بالأهلي بالتحقيق في الواقعة أو حتى الاستفسار من لاعبه عن صحة هذه التصريحات الغبية.. والعدو لله بطالب حسن شحاته بتفسيره حول إلقاء لاعب في المنتخب بتصريحات ضد نادي منافس (لمشجعة) عشية لقاء دولي هام ظل فيه اللاعب طيلة ٩٠ دقيقة تائه يبحث عن الكرة بعيداً عن المكان الذي تتواجد فيه الكرة!!.. والحقيقة أن الإعلام الإلكتروني الجماهيري المحسوب على الأندية ليس فقط الذي يفتح أبوابه للمشجعات المسيار، فالكثير من أصحاب الأقلام الكبيرة تحولوا كذلك إلى (إعلاميين بدرجة مشجعين) يروجون للتعصب والتغيب، ويقت لا ترى أعينهم إلا لون واحد، فلا كلمة حق ولا منطق ولا بصيرة تحكم ما يقولون، وأصبح الوسط الكروي يغص بمثل هذا النوع الرديء من أصحاب الأقلام الحزورية التي لم تفلح أساليبهم الرخيصة إلا مع حفنة من المغيبين.. كفاتنا الله وإياكم شر أصحاب أقلام المشجعين.. المسيار والكبار!!

كلمة أخيرة: الخجل فضيلة.. بجهلها أصحاب الأوجه المكشوفة..

### على سبيل التحليل

في هذه المقالة، عدد لا بأس به من الأخطاء النحوية والإملائية، والتركييب التركيبية التي يجد القارئ تحت بعضها خطوطاً، وفيها لبس بين "الخجل" و"الحياة"، لأن الخجل ليس فضيلة على الإطلاق، بل هو تأخر في النمو الاجتماعي والنفسى. لكن الغاية هنا ليست التصيد، بل التعليق على بعض جوانب "خطاب الكرة" football discourse وما يتصل به من خطاب إعلامي وجماهيري في ضوء بعض ما ورد في التبسيط من مفاهيم ونظريات.

سياق المقالة - التي تأتي في أعقاب مباراة مصر ضد الكونغو في التصفيات المؤهلة إلى كأس العالم في جنوب إفريقيا عام ٢٠١٠ - هو "الوسط الكروي" في مصر، وما يحفل به من صراعات، وتصريحات، وتصريحات مضادة بين نقاد الفرق المتصارعة، ولاعبها، وجماهيرها.

من المناسب، ونحن نتناول هذا النص الذي ينتمي إلى خطاب الكرة وما يتصل به من خطابات، أن نتناول السبك والحبك وطرائقهما، والاستعارات المبهمة، والتجميل والتقييح والمربع الأيديولوجي، وتعابير الكياسة والتأنب وتقلضهما.

أما السبك فيتحقق باستخدام أدوات الربط وتكرار عدد من المفردات والعبارة - "العدو" وتكرار "الكرة" على ثقله في "بيحث عن الكرة بعيداً عن المكان الذي تتواجد فيه الكرة"، و"كبير" (مقاماً ومنزلة لا سناً) - والجناس - "المغييبين" و"التقييب"، و"باشا" و"الباشيين" - والطباق - "الخجل" و"المكشوفة" - والحقول الدلالية - "أنثوية" و"روشن" و"مسيل"، إضافة إلى المفردات الكروية. والمقالة لا يعوزها الحبك، على ما فيها مما يمكن أن نتحفظ عليه، فهي تمهد الطريق بلفت الانتباه إلى "اختراق" - اختراق "حرمة" معسكر المنتخب قبل لقاء دولي مهم، واختراق أعراف رياضية أخلاقية. ثم تروي المقالة ما حدث، وتلجأ إلى التناص بالتقياض بعض ما قال اللاعب تحقيقاً لقاعدة الصدق وتجنباً لمتاعب الاتهامات غير المبررة. بعد السرد يأتي التقييم، أو توضيح موقف الكاتب مما حدث، وهو موقف معارض كاره. وحتى لا يبدو الموقف "شخصياً"، يسوق الكاتب تبريره خطورة ما حدث بينما كان الفريق القومي في "حرمة" يتأهب للقاء دولي مهم في تصفيات كأس العالم، حلم "الأمة" وغايتها الكبرى - وكأنها "فتنة" في زمن "حرب". الاختراق وإثارة الفتنة في مثل هذه الظروف جريمة لا ينبغي السكوت عليها - وهي ليست الحالة الوحيدة الفريدة فقد سبقتها فتن أخرى مماثلة. من هذا المنطلق، تصبح "مطالب" الكاتب الصحفي منطقية، وهكذا نتحقق لفعل المطالبة مشروعيتها وربما نجاعته. في النهاية يلاحظ الكاتب أن الوسط الكروي "إجمالاً" يشكو من التعصب والاحتياز وما ينجم عنهما من تقييب وعمالة وقلغم، ثم الدعاء إلى الله أن يكفي الكاتب ومن أزره من القراء شر الأقلام المنحرفة الداعرة

# 1

## عن خطاب الكرة

من تداعيات الحداثة وما بعدها، وربما من مُبرراتهما، انهيار الحدود بين "النخبوي" و"الشعبي" أو الجماهيري، بين المتون والهوامش، بين المركز والأطراف أو "الضواحي" الثقافية واللغوية - بين اللهجات المحلية واللغات الرسمية، بين الإكليات والأغليات، في غناء "شعبان عبد الرحيم" عن القضية الفلسطينية وأزمة "الرسوم المسينة" وغيرها، وفي "استلهم" إحدى أغنيات "أم كلثوم" في فيلم لـ"محمد سعد"، وهكذا، وفي تداخل الأنواع الأدبية وتشربها بالحياة المعيشة. غير أن الأمر لم يقف عند هذا الحد، فقد حلت الهوامش محل المتون، وأصبح "الجماهيري" يحظى بالاهتمام والحفاوة والتغطية والمنابعة والتحليل والتعليق، واتزوى "النخبوي" إلى أركان الحياة وهوامشها. قارن مثلا بين التغطية الإعلامية، والتحليل، والتعليق، والقراءات، والمؤتمرات الصحفية، والأغنيات، والشعارات، والمسيرات التي تصاحب مباراة مهمة في كرة القدم أو "حفلة" لمطرب أو مطربة، وبين ما يصاحب مؤتمرا علميا أو مناقشة رسالة أكاديمية.

لم يعد هناك بدٌ لدراسات الخطاب من أن تعترف بالتحول دون أن تتخلى عن اشغالاتها التي تراها مهمة، لأن التحليل النقدي للخطاب ليس نخبويا بطبعه. وفي الاعتراف لا بد أن تبقى تلك الدراسات بعيدة عن أشراك التعصب والتصنيف والاتهام، لأن من يهرولون وراء الرياضة والفن بشر كالبشر، ميولهم ليست كميوننا، ولا أولوياتهم كأولوياتنا، ولا قيمهم كقيمنا. إذا جاز لمن يشتغل بالثقافة والفكر أن يحتقر من يشتغل أو يشتغل بالفن أو الرياضة وما يتصل بهما، فمن حق أهل الفن والرياضة وما يتصل بهما أن يتهموا على أهل الفكر والثقافة، ولكن لأسبابه وأنواته وأسلحته، وفي الحرب كل شيء مباح.



الموتورة، ثم الحكمة الختامية عن فضيلة "الخجل" التي لا يعرفها أصحاب "الوجوه المكشوفة".

ها هو الكاتب يقف إلى جانب الفضيلة والخجل، وينحز إلى القيم الدينية، يدافع عن "حرمة" المنتخب قبل اللقاء المهم، ويتحدث بلسان "الحق" و"المنطق" و"البصيرة" وهو يطالب بمحاسبة من أثار الفتنة. من هذا المكان، يكتب ضد "كل من هب ودب" في "العهد الميمون" "للضارب" "بالدفا"، ضد كلام "ينضح بالغباء"، ولاعب "صغير العقل" - "المتعب باشا" الذي "تأذ" طوال المباراة المذكورة - و"شوقي باشا"، وهما لا يجيبان إلا الفتيات، وضد "تصريحات غبية"، و"إعلاميات مسيلز" و"مشجعات مسيلز"، و"إعلاميين بدرجة مشجعين"،

لا يعرفون "الحق" ولا "البصيرة" ولا "المنطق"، لا تصلح أساليبهم إلا مع "المُغيبين". لا يتوقف الكاتب الصحفي عند ثنائية الخير والشر، الحق والباطل، الزواج الشرعي وزواج المسيلز، وتجميل "الأنا" مع تقبيح "الأخر"، بل يتجاوز ذلك إلى تكريس خطاب الكرة بوصفه "كلاما كبيرا" يليق أن تستعير له "الحرمة" و"المسيلز" و"التغيب"، وأن تعبر من خلاله عن معتقداتك ومواقفك الفقهية من زواج المسيلز - ومن الواضح أن الكاتب لا يعتبره زواجا شرعيا، بل مجرد زواج مؤقت لتحقيق غايات دنيوية مؤقتة، تشبه استخدام فتيات لجذب نجوم الكرة المعروفين "بالروشنة" - مع الاعتذار لمجامع اللغة العربية - وإقناعهم بإجراء حوار.

ومن نفس المكان، وحتى يتحقق التجميل والتقبيح يعدد الكاتب - "العهد لله"، على سبيل التواضع - إضافة إلى ما سبق، إلى تأكيد براجمته من معاداة الأنثوية - ولعله يقصد feminism - وتأكيد أن ما يقول هو "الحق" و"الحقيقة" إذا "صدق" ما ورد عن اللاعب، في الاتجاه المعاكس، يعدد الكاتب إلى تشويه اللاعب، وإعلام المسيلز، ونقد التغيب، و"الأقلام الحنجورية"، على سبيل الاستعارة، فلا نجد إلا الحد الأدنى من الكياسة على سبيل السخرية في "العهد الميمون" و"باشا"، والتعظيم وتقادي الصدام في "الضارب بالدفا"، والتكريم في "القلعة البيضاء"، التي تشير على سبيل الاستعارة إلى نادي الزمالك، خصم النادي الأهلي الذي ينتمي إليه اللاعب "متعب".

لقد أصبحت الهوامش والفروع، بل فروع الفروع، تشغل الناس عن الأصول والقضايا التي تستمر بها حياتهم. لن نقارن بين استقبال رسمي لفريق كرة قدم فاز ببطولة وبين استقبال عالم كبير حصل على جائزة علمية عالمية مرموقة، لأن المقارنة تُفسر عادة على أنها نوع من الحسد والغيرة من قبل المشتغلين بالثقافة. فما معنى أن ينشغل الناس بالفن وبالكرة عن مشكلاتهم الأسرية، وعن أعضائهم ودراساتهم، وتطوير مهاراتهم وقدراتهم، وتنمية ملكاتهم، وعن مشكلات أبنائهم وبناتهم، و"رغيف الخبز" الذي عَزَّ ونَدَرَ، وانهيار التعليم، وانتشار الفساد، وتراجع الجامعات العربية في وجه غيرها من جامعات، شرقا وغربا وشمالا وجنوبا؟ من اليسر أن نقع في شرك الخطابة هنا، لكن السؤال مشروع ومطلوب.

ومن اللافت أن "الفن" و"الكرة" - وقد أصبحت لهما مؤسساتهما، ومنظمتاهما، وقوانينهما، وشراحيهما، ومحلوها، ومؤرخوها، ومنظروها - قد تجاوزا مرحلة الهزل أو الهواية والتساية إلى مرحلة الاحتراف والمهنية. ولعلنا نلاحظ التحول المنتظم في كل الثقافات على نطاقات محلية وعالمية في التعامل مع الفن والرياضة بوصفهما "عبا" لا يرضاه الأسر "العريقة" أو "احترافا" أو "مضيعة للوقت"، إلى أمر واقع على الأسرة والمحيطين التكيف معه، ثم إلى مصدر سعادة وأموال وشهرة، وفي النهاية إلى نماذج يحتذىها الصغار ويحلمون بها، إلى "طريق إلى المجد" وسما من "النجوم" و"الكوكبا" وأرض تحفل بما لا حصر له من "أصنام" - والكلمة ليست لسي، بل من البرنامج الأمريكي الشهير American Idol - تتفوق في شهرتها ونفوذها وتأثيرها وبريقها وثروتها على "اللاتا" و"العزى" و"هيل" و"مناة"، و"يغوت" و"يعوق" و"سمر"، و"فروديت"، وغيرها ممن سكن جبال الأولمب، فكيف لا تتفوق على مفكر أو باحث أو مدرس؟

هناك محاولات للتوفيق أو التوافق ولتنضيق المسافات والتقريب بين المتشوق والهوامش، وأخرى لرد الاعتبار إلى الهوامش التي كانت متوترا وخسرت البشرية كثيرا جراء تهميشها. نجد ذلك في المبادرات المهمة لتقديم الثقافة "الرفيعة" من نقد

شعر ورواية وقصة ومسرحية وغيرها عبر قنوات فضائية ومواقع إلكترونية، وفي الجوائز التي أصبحت تمنح للمفكرين والكتاب والمثقفين. وهناك محاولات توفيق، أو تفتيق، نجدها في استخدام بعض - "بعض" - الدعاة أساليب فنية وتمثيلية، وربما غنائية، في خطابهم الديني، ونجدها في تقربهم وارتباطهم بأهل الفن والرياضة والإعلام. وهناك محاولات جادة - غير أنها نادرة وليست راجحة - لاستخدام الفن والرياضة لتحقيق غايات "نبيلة" كانت منوطة بغير أهل الفن والرياضة - كجمع التبرعات والدعوة إلى التعاطف مع "المفهورين" و"المظلومين" في الأرض.

لقد أصبحت كرة القدم محور انشغال الملايين، وتشجيعهم، وصخبهم، ولعهم، وجنونهم أحياناً، وأصبحت لها صحف ومجلات، ومواقع إلكترونية، وطوّرت خطابها الخاص - "خطاب الكرة" أو "خطاب كرة القدم". في هذا الخطاب استعارات تنتقل من مجال الحرب والصراع والقتال إلى مباريات كرة القدم، وغيرها من أنواع الرياضة، كما نجد في "معسكر"، و"خط الدفاع"، و"الهجوم"، و"التغطية"، و"الاختراق"، و"التسلل"، و"خطة هجوم"، و"خطة دفاع"، و"دك حصون الخصم"، و"قذيفة مدوية"، و"الهدف"، و"المرمى"، و"الحارس"، و"ضربات" "الزاوية" و"الجزاء"، وغيرها، والهجوم "الشرس"، و"الدفاع المحكم"، و"الحائط الدفاعي"، و"هجوم خاطف"، و"هجمة مرتدة"، و"النصر"، و"الهزيمة"، وهكذا. كما أصبحت كرة القدم تغذي غيرها من الخطابات باستعاراتها المحورية، كما نجد في "البطاقات الصفراء" و"الحمراء" التي تشهرها الزوجات في جوه أزواجهن في الرسوم الكاريكاتيرية، وغير ذلك من تعبير تتسلل من الكرة إلى العلاقة الزوجية في "مختلفاً" جوانبها.

كذلك أصبحت الرياضة - خصوصاً كرة القدم - ساحة صراع، وتناطح هويات، وتتافس بين عرقيات وجنسيات. وقد رأينا "الكرة" تحمل أحلام شعوبها من خلال فريق "قومي" "وطني"، في الاستقلال والانفصال عن الكيانات الكبرى كالاتحاد السوفيتي الذي تحللت أوصاله إلى دول ودويلات. ورأينا أنّ المباريات بين دول بعينها تظنّ ملتبهة شرسة تحفل بالتوتر على خلفية الانتماءات والصراعات السياسية، بين

الولايات المتحدة وإيران، وبين عدد لا بأس به من الدول العربية وجزائرها. ورأينا ونرى كيف يعجز اللاعبون عن انتماءاتهم السياسية والدينية والقومية بما يقولون وبما يحملون من رسوم وشعارات على ملابسهم الرياضية - هذا إضافة إلى الانتماءات "المؤقتة"، "مدفوعة الثمن"، إلى بعض المنتجات والأسماء التجارية. الرياضة اليوم "حياة موازية" تلقى بظلالها الكثيفة على حياتنا، بل تحركها أو توقفها، كما نجد في شوارع مدينة كالقاهرة أثناء مباراة مهمة بين فريقين كبيرين أو بين مصر ودولة أخرى في مسابقة مهمة، أو في ظروف "كروية" حرجة. بل أصبح الرياضيون والمولعون بالرياضة يطلبون منا أن نتعلم منها لصالح حياتنا، فلماذا لا نلعب في حياتنا بروح الفريق؟ ولماذا لا نتعاون؟ ولماذا لا نتحلى بالروح الرياضية؟ ولماذا يجب أن نخسر بسبب الأتانية أو فقدان الحماس؟ في اتجاه معاكس، يطلب الحكماء من الرياضيين أن يتعلموا من أمجادهم، وبطولاتهم القومية، وإنجازاتهم الحضارية، وأن "يعدوا" لمنافسيهم ما استطاعوا "من قوة"، وأن "يجاهدوا" لرفع راية بلادهم، وأن يكونوا في جهادهم "أسرة" واحدة، وسوف "ينصرهم الله" حتماً.

## نافذة على النافذة

"ويأمرها السيد بأن تكنس الغرفة مرة أخرى فتحتج صامتة لأن الغرفة نظيفة ولأن هذا مجرد عذر لكي يتطلع إلى جسمها الجميل. تفتح النافذة، بعد أن يخرج السيد، تصفح الهواء الذي يستقبلها بضحكة عذبة. "تطيرين؟" "أطير". يأخذها إلى مكان تزهو فيه الأسوان وتومض تحدث انعكاسات في الجدول حيث الماء نقي وشفاف. النساء تستحم والرجال يقطلون ثمار الأشجار والأطفال يمرحون على العشب. تسأل طفلاً: "تلهو منذ وقت طويل ألا تشعر بجوع؟" يضحك الطفل: "عم تتحدثين؟" فنقول له: "سوف تمرض إذا لم تاكل". بهز الطفل رأسه: "كنت جائعا ولم أمرض قط". نقول: "ولكن الموت". يضحك عاليا. تسأله: "لماذا تفتح فكبك هكذا وتطلق هذا الصوت الغريب؟" يجيبها بدهشة: "أنا أضحك". ثم يجري بعيدا عنها. تحاول أن تفل مثلها. تفتح فكبها وتدفع صوتا مزقفا من صدرها. "ماذا تفعلين؟" تنطق النافذة بسرعة. كان السيد يتأمل ظهرها. "تنبحين كالكلية" (أمين صالح: النافذة، ١٩٧٥).

للقوف على بعض ما يشتمل عليه التحليل الوظيفي من إشكاليات وما يتيح من أفاق دلالية وبلاغية، نطالع جزءاً من قصة قصيرة جداً هي النافذة لأمين صالح، وتحديدًا ما فيها من أفعال وأحداث وحالات. مجرد مسودة تحليل، وخطوط عريضة تفتقر إلى الشمول والعق:

§ "يأمرها السيد": فعل لفظي، يقع (ثبوت) ويشي بسلطة السيد عليها ويؤسس علاقة قهر تمتد إلى النهاية.

§ "تكنس الغرفة": فعل مادي، لم يقع بعد. غير أنه لا بد أن يحدث تأسيساً على العلاقة بين الطرفين.

§ "فتحتج صامتة": فعل مادي، لا يقع. الاحتجاج فعل مؤثر، إذا وقع، لكنه يبقى هنا مجرد صوت داخلي غير مسموع.

- § "الغرفة نظيفة": كينونة، حالة، تقرير. هكذا ترى الخادمة الغرفة، وعلى هذا الأساس تستنتج ما يلي.
- § "هذا مجرد عذر": كينونة، استنتاج. لما سبق، وربما لسبق عهدها بسيدتها، وإلا فلماذا اليقين والقصر؟
- § "يتطلع إلى جسمها": فعل ذهني، إدراك، استنتاج أو ملاحظة. لما سبق، وربما لسبق عهدها بسيدتها.
- § "تفتح النافذة": فعل مادي، يقع (ثبوت). هذه لحظة مهمة، وفعل مادي مؤثر إيجابي مثبت.
- § "يخرج السيد": فعل مادي، يقع (ثبوت). فعل آخر مادي إيجابي يتيح الفرصة لشي من الحرية.
- § "تصافح الهواء": فعل مادي، يقع (ثبوت). لحظة انطلاق إيجابية. هي التي تصافح الهواء، على معنى أنها تملك زمام الفعل.
- § "يستقبلها بضحكة عذبة": سلوكي، يقع (ثبوت). رد فعل إيجابي إزاء انطلاقها وتواصلها.
- § "تطيرين": فعل مادي، لا يقع. هذه دعوة من الطفل تقبلها الخادمة على الفور.
- § "تطير": فعل مادي، لا يقع. قبول الدعوة لا يعني أنها الآن تطير.
- § "ياخذها إلى مكان": فعل مادي، يقع (ثبوت). فعل مادي مؤثر وإيجابي يقع على الخادمة بمحض إرادتها.
- § "ترهو فيه الأكلون": كينونة، حقيقة؛ "نومض": مادي، يقع (ثبوت)؛ "تحدث انعكاسات": مادي، يقع (ثبوت)؛ "الماء نقي وشفافاً": كينونة، حقيقة. تتلقى الطبيعة في حالاتها وحركاتها تعبيراً عن لحظة الانعقاد والتحرر.
- § "النساء تستحم": مادي، يقع (ثبوت)؛ "الرجال يقطفون ثمار الأشجار": مادي، يقع (ثبوت). ويتناغم البشر مع الطبيعة. ربما يوحى الفعلان "تستحم" و"يقطفون" بتلبية

نداء الشهوة ومن ثم التجدد؛ "الأطفال يمرحون على العشب": مادي وذهني، يقع (ثبوت).

§ "تسأل طفلاً": لفظي، يقع (ثبوت). المرح غريب عليها، من هنا يجب التساؤل. إنها طفلة أكثر من الأطفال في وعيها بالمرح والانطلاق.

§ "تلهو منذ وقت طويل": مادي وسلوكي، يقع (ثبوت)؛ ألا تشعر بجوع؟ ذهني، استفهام، افتراض. هذه هي حسبتها؛ إذا طال وقت اللهو، لا بد من الجوع. لكن حصة الطفل مختلفة، لأن اللهو والمرح إشباع من نوع غير الذي ألفته هي.

§ "يضحك الطفل": سلوكي، يقع (ثبوت)؛ "عم تتحدثين": لفظي، يقع (ثبوت). الاختلاف في الوعي بالجوع والتعب هو الذي يثير الغرابة والسؤال.

§ "فتقول له": لفظي، يقع (ثبوت)؛ "سوف تعرض": صيرورة؛ "إذا لم تكل": مادي، سلوكي.

§ "يهز الطفل رأسه": مادي، يقع (ثبوت).

§ "كنت جاعاً": كينونة، ذهني، حقيقة. "لم أمرض قط": صيرورة، حقيقة.

§ "تقول": لفظي، يقع (ثبوت).

§ "يضحك عالياً": سلوكي، يقع (ثبوت).

§ "تسأل": لفظي، يقع (ثبوت). في لحظة الاعتاق يصبح التساؤل نوعاً من التعرف إلى العالم الذي لم تألفه الخادمة.

§ "لماذا تفتح فكوك هكذا": مادي، يقع (ثبوت). السؤال عن أشياء ربما تبدو في نظر غيرها بديهيات وأموراً غريزية.

§ "تطلق هذا الصوت الغريباً": لفظي، يقع (ثبوت). ليس هذا الصوت مألوفاً لدى الخادمة.

§ "يجيبها بدهشة": لفظي، يقع (ثبوت). لكن الطفل يبقى على تواصله، ويجب عن سؤاليها.

§ "أنا أضحك": سلوكي، يقع (ثبوت). ربّما لم يجب الطفل عن سؤال كهذا من قبل، ومن هنا تأتي الدهشة.

§ "ثم يجري بعيدا عنها": مادي، يقع (ثبوت). يعود الطفل إلى عالمه، لأنّ عالم الخادمة يبدو ضيقا عليه، أو لأنّ لكلّ منهما خطته وحياته.

§ "تحاول أن تفعل مثله": مادي، لا يقع. المحاولة لا تعني الفعل، ولكنها أفضل من عمه.

§ "تفتح فمها": مادي، يقع (ثبوت). يبدو أنها لم تعرف الضحك من قبل. وها هي تحاول أن تتعلمه.

§ "تفجع صوتا ممزقا من صدرها": مادي، يقع. فعل إيجابي، مع ما في الصوت من ألم ومعتادة.

§ "ماذا تفعلين": مادي، يقع (ثبوت). حذف واستنكار، لا استفهام.

§ "تطلق النافذة بسرعة": مادي، يقع (ثبوت). عودة إلى سجن القهر، ونهاية لحظة التحرر. فعل الإغلاق ينهي ما بدأ عندما فُتحت النافذة.

§ "كان السيد يتأمل ظهرها": ذهني، يقع (ثبوت). يتأمل جسدها، لا يتأملها هي، أي يتأملها شيئا أو موضوعا، لا بشرا.

§ "تتبعين كالكلبة": لفظي، يقع، (ثبوت) إبرك. هكذا يراها سيدها وهذا هو ردّ فعله تجاه لحظة انطلاقها، وهو يختلف تماما عن ردّ فعل الطفل والطبيعة، وكانّ الطفولة والطبيعة هما ما تبقى لها من لحظات بهجة وانطلاق.

لم تكن غاية هالدياي مجرد تصنيف الأفعال وما يرتبط بها من أدوار، بل الانتقال من ذلك إلى فهم ما تفعل اللغة وهي تصور الواقع وتؤسّس علاقات مع الآخرين ومع نفسها. حين نتتبع الأفعال وما يحيط بها من ظروف وأحوال في قصة النافذة، نقف على علاقات القوة والقهر التي تصل، بل تفصل، بين السيد والخادمة التي حوكتها القهر كأننا بدائيا لم يعرف الضحك بعد.



تتجلى علاقة القهر في هذه القصة القصيرة من بدايتها - "وأمرها السيد" ... "يتطلع إلى جسمها" - ولا تكتفي البداية بالإخبار عن محتوى الفعل، بل تشير كذلك إلى الفنة التي ينتمي إليها، وهي فنة الأمر Directives. والأمر في أصل دلالاته يقصد به طلب فعل الشيء على جهة الاستعلاء، كما أورد رجب (٢٠٠٩) في تناوله لفنة طففاة آخرين، وهو في السياق الراهن استعلاء السيد على الخادمة. أما ردُّ الفعل أو أثره، فطاعة مُرغمة، واحتجاجٌ "صامت".

هكذا تقع الخادمة تحت قهر السيد من خلال أمره إياها، دونما حاجة حقيقية لِمَا يأمرها به، ومن خلال استلاب عينيه جسمها. لا تستطيع الخادمة المغلوبة على أمرها أن تفعل شيئا من تلقاء نفسها - "تفتح النافذة" - أو أن تخرج من حيز قهرها إلا عند خروج السيد. ما يتبع ذلك مساحة مؤقتة من الحرية - "تصافح الهواء"، "يستقبلها بضحكة عذبة". يدعوها الطفل إلى الطيران، فتقبل، ويأخذها إلى مكان "ترهو فيه الألوان"، فتذهب، لتشاهد تآلق الطبيعة في حالاتها وحركاتها تعبيراً عن لحظة الانعقاد والتحرر. في فضاء التحرر "النساء تستحم"، و"الرجال يقطفون ثمار الأشجار"، و"الأطفال يمرحون على العشب"، فيما يشي بالتجدد والبهجة. تنتقل الخادمة إلى فضاء وجودي ودلالي جديد تستطيع فيه التساؤل، وتعرف معنى الضحك، تلك السلوك الغريب عليها، وتكتشف أن البهجة تُشبع، وتقي المرض.

حين تحاول البهجة، لا تجد إلا قيود سيدها من جديد، يستنكر محاولتها الضحك ويختزل لحظة الحرية، بين فتحها النافذة من تلقاء نفسها وإغلاقها إياها تحت سطوة الخوف، ويعود بها إلى الاستلاب: "كان السيد يتأمل ظهرها" - يتأملها شيئا لا يقرأ - ولا يجد في الصوت الذي تخرجه إلا نباحاً كنباح "كلية". هكذا يصف السيد صوت الخادمة في صيغة تقريرية مُستهجنة وتشبيه بجردها من أميتها - "تبحن كالكلية". وهكذا تُعيد اللغّة إنتاج الواقع، وأقع القهر والسلطة، وهي سلطة مُركبة مُعقدة، تجمع بين السلطة الذكورية وسلطة السيد على الخادمة، من خلال أنواع الأفعال وثبوتها ونفيها، وبنية الجملة من حيث من يفعل ومن يقع عليه الفعل.

ولعلنا نلاحظ فيما سبق بعض ما يقترن بالتحليل الوظيفي، وفق نسق هاليداي، في سياق عربيّ من صعوبات وإشكاليات، فليس كلّ ما يُعدّ فعلاً في اللغة الإنجليزية فعلاً في لغة كالعربية. على سبيل المثال، في جملة "الغرفة نظيفة" في نسختها الإنجليزية، هناك فعل هو "تكون" IS، أمّا في اللغة العربية فهي مسند إليه ومسند، موضوع ومحمول، أو مبتدأ وخبر. ما يندرج تحت أفعال القلوب، والتصيير، والمقاربة، والشروع، واليقين، والرجحان، هو من قبيل الأفعال الناسخة. أمّا الأفعال الأساسية في الجملة العربية، فلا يبدو أنّ لها تصنيفاً يشبه تصنيف هاليداي إلى أفعال مادية، وذهنية، وسلوكية، وهكذا. من ناحية أخرى لا يتيسر تصنيف كلّ فعل إلى فئة واحدة من الأفعال حتى في اللغة الإنجليزية.

(٧)

## هوامش وتعقيب على مقتطفات من خطاب سياسي

من خطاب الأمين العام لحزب الله سماحة السيد حسن نصرالله<sup>(١)</sup>

مهرجان النصر والتحرير، بنت جبيل

الجمعة، ٢٦ مايو ٢٠٠٠

باسمه تعالى

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

بسم الله الرحمن الرحيم. والحمد لله رب العالمين. والصلاة والسلام على سيدنا  
ونبيّنا، حبيب قلوبنا وشفيع ذنوبنا، أبي القاسم محمد ابن عبد الله، وعلى آله  
الطيبين الطاهرين وصحبه المنتجبين وعلى جميع أنبياء الله المرسلين وعلى جميع  
الشهداء والمجاهدين في سبيل الله، منذ آدم إلى قيام يوم الدين.

السلام عليكم جميعاً ورحمة الله وبركاته.<sup>(٢)</sup>

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ<sup>(٣)</sup>

(١) إشارة إلى المتكلم بوصفه رمزاً دينياً لا مجرد زعيم سياسي. من الواضح أن الموقع الذي نشر الخطاب يلق في صف "حزب الله"، ولو أن الخطاب تُرجم على موقع غربي أو نُشر على موقع عربي لا يدعى "حزب الله" لاختلقت الإشارة.

(٢) فتحة دينية تليق بخطبة جمعة، وتؤسس انتماء واعتقاداً، وتشير إلى هوية إسلامية، وتضفي على ما يلي من خطاب سمات القداسة التي تليق بخطاب ديني. من هنا يكتب الخطاب قرأ كثيراً من شريعته في بيئة إسلامية.

(٣) اقتباس من القرآن الكريم يرمخ مشروعية الخطاب وتشابه دار الإسلام ودار الحرب، ويستعير صورة فرعون في مواجهته مع ضحاياه ومع المستضعفين في الأرض للتعبير عن علاقة إسرائيل بضحاياها من العرب والمسلمين. وفي الاقتباس تأسيس مربع أيديولوجي يتبذ في الآخر بوصفه "مفسداً"، والأما بوصفه من "الأئمة" "الوارثين"

## أيها الإخوة والأخوات،<sup>(١)</sup>

في يوم المقاومة والتحرير، في يوم الانتصار التاريخي العظيم والكبير، نلتقي هنا في عبق المنطقة التي استعادت الوطن واستعادها الوطن، في أجواء أربعين أبي عبد الله سيد الشهداء الإمام الحسين بن علي عليهما السلام، لنؤكد من جديد مقولته وخطبه، لنثبت من جديد أن الدم هنا ينتصر على السيف، وأن الدم هنا قهر السيف وهزمه، وأن الدم هنا حطم كل قيد، وأن الدم هنا أنزل كل طاغية ومستكبر.<sup>(٢)</sup>

نلتقي هنا لنحتفل بالنصر الذي صنعه الشهادة، وصنعه النماء. عندما نتحدث عن هذا النصر، عن تحرير الأرض، عن حرية الإنسان، عن كرامة الوطن، عن عزة الأمة.. يجب أن نتذكر كل أولئك الذين ساهموا في صنع هذا النصر. قبل كل شيء وبعد كل شيء، نحن عباد الله نعلن أمام العالم كله أن هذا النصر من الله سبحانه وتعالى، هو الذي هدانا إلى طريق المقاومة، هو الذي دلنا سواء المسيل، هو الذي ثبت قلوبنا منذ سنوات طويلة، هو الذي ملأ قلوبنا طمأنينة وأطمنا عشقا للشهادة وهو الذي ألقى في قلوب أعدائنا الرعب. هو الذي رمى وهو الذي أصاب، هو الذي دمر المواقع، هو الذي هدم الحصون، هو الذي قتل الجبابرة، وهو الذي صنع هذا النصر. الله، سبحانه وتعالى، الذي نشكره ونحمده ونسبحه ونستغفره ونتوب إليه ونخضع له وتدعوه أن يتم لنا نصرنا بأن يحرر كل الأرض وكل الأخوة وكل هذه الأمة المعذبة والمظلومة.<sup>(٣)</sup>

أنتم فرضتم على العدو شكل الانسحاب ووقته، وأسقطتم لغم العدو في ميليشيا أنطون لحد، هو كان يراهن على أن تتمرس هذه الميليشيا في مواقعها وتطلق النار، ثم يدخل موفد الأمم المتحدة للتفاوض مع الدولة، وفي مقابل إخلاء المواقع يحصل

(١) الجماعة في مواجهة عدو مشترك، وتأكيد انتماء المتكلم إلى جمهور السامعين.

(٢) صراع الدم والسيف، صراع من يشعر ومن لا يشعر، الإنسان والجماد. الأنا قرين القداء والتضحية والأخر قرين البطش والاعتداء.

(٣) النصر من عند الله. انقباس النص القرآني من خلال الأسلية والمفردات. لا تقتصر وظيفة استدعاء النص القرآني على التبرك، بل تتجاوزها إلى استدعاء زمانه وأحداثه، بحيث تصبح الحرب بين حزب الله وعدوه غزوة بدر جديدة.

العلاء المجرمون والخونة على العفو. هذا الأمر انتهى أيضاً، انتهى بأكثر صورة ممكنة لهؤلاء العلاء الذين شاهدتم صورهم، صور إذلالهم عند بوابات فلسطين المحتلة، وشاهدتم كيف تخلى عنهم هذا العدو. (٧)

أما التهديد والوعيد الإسرائيلي فلا نخاف منه اليوم... هم الخائفون على امتداد هذه الحدود وهذا الشريط. لقد خافوا من بعض النساء والأطفال الذين يقفون على الحاجز الحديدي... يخافون من حجر يرمى عليهم (٨) ... أنتم الآن هنا بنت جبيل آمنون سعداء، وهم على امتداد مستعمرات شمال فلسطين المحتلة خائفون ومرتعبون أمام المستقبل المجهول... لقد انتهى الزمن الذي كنا نخاف فيه من التهويل والتهديد الإسرائيلي، وهو يعرف أن الزمن الذي كانت فيه تستبيح طائراته سماضاً قد ولى، وأن الزمن الذي كانت تستبيح دباباته أرضنا قد ولى، وأن الزمن الذي كانت تستبيح فيه زوارقه مياها الإقليمية قد ولى، وإن أي اعتداء على لبنان لن يقابل بشكوى إلى مجلس الأمن (من مجلس الأمن هذا؟! ولا بالدموع... لن يقابل إلا بالمقاومة.. "إسرائيل" إذا اعتدت على لبنان ستدفع إثمها غالية. (٩)

أقول لكم يا شعبنا في فلسطين: إن إسرائيل هذه التي تملك أسلحة نووية وأقوى سلاح جو في المنطقة، والله هي أوهن من بيت العنكبوت! لكن إذا كنتم تريدون الاعتماد على الاتحاد السوفياتي كما كان في السابق فلن تصلوا إلى نتيجة، إذا كنتم تنتظرون المجتمع الدولي فلن تصلوا إلى نتيجة، إذا كنتم تراهنون على المعادلات فلن تصلوا إلى نتيجة. (١٠)

(٧) "لنتم"، لا "نحن" ولا "أنا". المُخاطب هو الفاعل الذي يستحق الشاء. تواضع حسن نصر الله وربما تكسؤه في إظهار هذا التواضع من خلال الاحتفاء بالمستمع، لا بالذات، والتهوين من قدر العدو الآخر. أنتم المنتصرون الأمنون، وهم الخائفون.

(٨) الآخر الخائف.

(٩) أنتم وهم، الأمن والخوف؛ من الماضي إلى الحاضر - من التهديد إلى الخوف (إسرائيل). ومن الخوف إلى الثقة (حزب الله) - إلى المستقبل - حزب الله يتوعد ويهدد.

(١٠) الآخر الضعيف، والآخر الذي لا يرحى منه خير أو عون.

يا شعب فلسطين: إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم، يا شعب فلسطين: إن ينصركم الله فلا غالب لكم. (11)

وأقول لشعبنا العربية والإسلامية: أيتها الأمة العربية، يا عالمنا العربي والإسلامي، الخزي والهزيمة والنذل والعار من الماضي. هذا الانتصار يؤسس لحقبة تاريخية جديدة وبثقل الباب على حقبة تاريخية ماضية (12).. ضعوا اليأس جانباً وتسلحوا بالأمل، ضعوا الوهن جانباً واشحنوا الهمم والعزائم (13). إنسى اليوم، باسم كل الشهداء في لبنان، باسم كل المظلومين في لبنان، أطالب الحكومات العربية، بالحد الأدنى، أن توقف التطبيع مع إسرائيل، أن تقطع علاقاتها بـ"إسرائيل"، أن ترفض موقفها وقررها على إسرائيل. وأطالب الشعوب العربية بأن تغف إلى جانب فلسطين وشعب فلسطين، وأن ترفض أي شكل من أشكال التطبيع مع هذا العدو (14).. إسرائيل الكبرى هزمتها المقاومة، إسرائيل العظمى تهزمها المقاومة، وأحد أشكالها المهمة مقاومة التطبيع. (15)

وكل نصر وكل عيد وأنتم بخير  
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

---

(11) آية من القرآن الكريم، وإسقاط الموقف الذي نزلت فيه الآية على التحفة الراحلة، بما في ذلك من تصنيف ضمنياً إلى فئة تقتل في سبيل الله وأخرى كاهنة.

(12) لحظة فارقة بين حقبتين.

(13) استعارات دالة تجعل من المجردات أردية تلغى وأسلحة تحمل أو تُسحق.

(14) الوقوع في شرك التعريف المستورد من الغرب.

(15) إعادة تعريف المقاومة.

## تعقيب

هذا خطاب يتكى على النص القرآني والتراث الإسلامي، لتحقيق قدر كبير من بلاغته وتوصيل رسالته، من خلال الاقتباس الصريح، والأسلية، أي استلهام أسلوب القرن الكريم، وتركيبه، ومفرداته، واستلهام المشاهد القرآنية التي تصف مواجهات المؤمنين مع غير المؤمنين، وكذا استلهام الشخصيات التي تنتمي إلى هذين المعسكرين، من وجهة نظر المتكلم - الإمام الحسين في مواجهة فرعون وهامان. ليس من الضرورة اقتفاء كل طرائق السبك والحبك في الخطاب، فهما من مقوماته التي لا تستعصى على متكلم بارع مثل نصر الله، أصبح حضوره "البلاغي" بارزاً، وحقق شعبية جارفة من مبرراتها قدراته الخطابية ووعيه اللغوي. على سبيل التمثيل لا الحصر ما نجد من توازٍ تركيبى وتكرار في: "أن الزمن الذي كانت فيه تستبجح طائراته سماعنا قد ولي"، و"أن الزمن الذي كانت تستبجح دباباته أرضنا قد ولي"، و"أن الزمن الذي كانت تستبجح فيه زوارقه مياهنا الإقليمية قد ولي". في هذه التركيب اغتصاب واحتلال وانتهاك يقع على "سماعنا" (سماع المتكلم ومن ينتمي إليه) و"أرضنا" و"مياهنا" على يد "طائراته" (طائرات العدو) و"دباباته" و"زوارقه".

وفي الخطاب ما في جملة الخطابة السياسية من توظيف الاستعارة. على سبيل التمثيل ترد استعارات "الدم ... ينتصر على السيف"، و"الدم ... حطم كل قيّد"، و"صنعت الشهادة"، و"صنعت الدماء"، و"تحرير الأرض"، و"كرامة الوطن"، و"عزة الأمة"، و"ضعوا اليأس جانباً وتسألحوا بالأمل"، و"ضعوا الوهن جانباً واشحنوا الهمم والعزائم". يبدو أن الاستعارة المحورية هنا هي استعارة الذم والسيف، ويرد التفريق بينهما في هامش على الخطاب. ولا بد أن يقع التعاطف، على الأقل تعاطف الأخيار الطيبين، مع الدماء التي تسيل، لا مع السيوف التي تقتل.

وفي الخطاب مواجهة بين معسكرين - هما بلغة جورج بوش معسكر "الخير" ومعسكر "الشر"، غير أن أشرار بوش ليسوا هم أشرار نصر الله، ولا أخياره أخياره

- بين المتكلم، وأخوته وأخواته المستمعين، والمناصرين، والشهداء، والمستضعفين، وأبناء فلسطين، والإمام الحسين، وما يرتبط به من قيمة الاستشهاد والتضحية والنماء ("نحن" في المربع الأيديولوجي للخطاب)، من ناحية، وبين فرعون، وهامان، وإسرائيل، ومن يساندها، وعمامة المفسدين، والطغاة، والمتكبرين، وما يحملون في وجه المؤمنين من سيوف، ومعهم الغملاء المجرمون والخونة ("هم/ الآخر العدو" في المربع الأيديولوجي للخطاب)، من الناحية الأخرى.

تتحدث بؤرة الخطاب من حيث زمانه ومكانه في "تلتقي هنا" (مكان) "في يوم المقاومة والتحرير، في يوم الانتصار التاريخي العظيم والكبير" (زمان)، و"تلتقي هنا في عسق المنطقة التي استعادت الوطن واستعادت الوطن" (مكان)، و"في أجواء أربعين أبي عبد الله سيد الشهداء الإمام الحسين بن علي عليهما السلام" (زمان). من هذه البؤرة يشير الخطاب إلى ماض قريب، ماض من التهديد والعدوان والاحتلال الإسرائيلي - "الزمن الذي كانت تستبجح دباباته أرضنا قد ولى، و... الزمن الذي كانت تستبجح فيه زورقه مياها الإقليمية قد ولى"، و"الخزي والهزيمة والنذل والعر من الماضي. هذا الانتصار يؤسس لحقبة تاريخية جديدة ويقفل الباب على حقبة تاريخية ماضية" - و"ماض بعيد، ماضي الغزوات الإسلامية الكبرى والإمام الحسين. كما يشير الخطاب إلى أماكن أخرى - "وأسقطتم لغم العدو في ميليشيا أنطوان لحذا"، و"صور إذلالهم عند بوابات فلسطين المحتلة"، و"هم الخائفون على امتداد هذه الحدود"، و"هم على امتداد مستعمرات شمال فلسطين المحتلة خانقون"، وإلى المجتمع الدولي والاتحاد السوفيتي الذي لا يثق المتكلم في قدرة أي منهما على مساعدة فلسطين، وإلى الأمتين العربية والإسلامية، وما ينبغي عليهما، من وجهة نظر المتكلم، من ضرورة مقاومة التطبيع مع إسرائيل.

تتجاوز الإشارة معناها القريب هنا لتؤسس، من خلال الاستلهام والانتباس، وربما الانتداء كما في "لنؤكد من جديد مقولته وخطة"، انتماءات وتكتلات تمتد عبر الزمان - من فرعون وهامان إلى إسرائيل، ومن غزوة بدر والإمام الحسين إلى حزب الله -



والمكان - لبنان وفلسطين والأمم العربية والإسلامية في مواجهة إسرائيل وأعدائها.

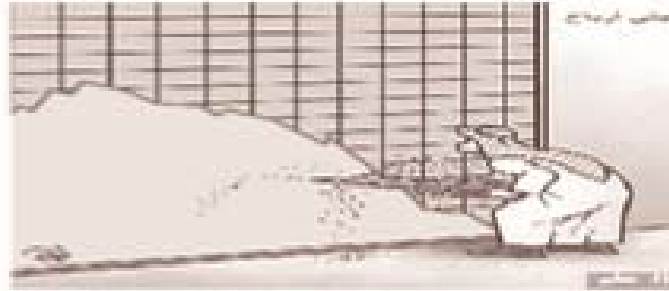
وفي الخطاب إيمانٌ بقضاء الله وقدره - قد يقول من لا يحب حسن نصر الله إنه إيهاً بالإيمان، أو وسيلة بلاغية لتحقيق غايات تواصلية سياسية - يتسجم مع انتماء المتكلم وعقيدته، ويتسجم مع جملة الاقتباسات القرآنية والإحالات إلى التراث الإسلامي، ويتبدى، إضافة إلى ما سبق، في نسبة فعل النصر وما يرتبط به إلى الله تعالى، من خلال أفعال ذهنية، وتعبير مجازية يرد فيها ضمير يشير إلى لفظ الجلالة - "هو" - متبوعاً بجملة موصولة، الفاعل فيها هو هذا الضمير، وقد صار مستتراً، ومن يقع عليهم الفعل بالسلب هم الأعداء، وعلى معسكر الإيمان بالإيجاب: "هذا النصر من الله سبحانه وتعالى، هو الذي هدانا إلى طريق المقاومة، هو الذي يُلْهِمنا سواء السبيل، هو الذي ثَبَّت قلوبنا منذ سنوات طويلة، هو الذي مَلَأ قلوبنا طمأنينة وأُتْمِننا عشقاً للشهادة وهو الذي أَلْقَى في قلوب أعدائنا الرعب. هو الذي رَمَى وهو الذي أَصَاب، هو الذي نَمَر المواقف، هو الذي هَدَم الحصون، هو الذي قَتَلَ الجبابرة، وهو الذي صَنَعَ هذا النصر".

حين ينسب المتكلم أفعالاً إيجابية إلى البشر، فإنه ينسبها إلى الحضور: "أنتم فرضتم على العدو شكل الانسحاب ووقته، وأسقطتم لغم العدو"، أما هو فيطالب، ويشعر، ويعتقد، وفي هذا تكريم لمن شاركوا، من "فرضوا" ومن "أسقطوا"، واستجاب لمزيد من ولائهم وانتمائهم، وفيه كذلك إنكار للذات من جانب المتكلم. أما الآخرون فمنهم الصلاء والخونة (من يتواطؤون مع إسرائيل)، ومنهم من يحتاج نصيحة نصر الله (الأمم العربية والإسلامية وأبناء فلسطين)، ومنهم من يحتمى بترسانته العسكرية، وبينه أو هن من بيت العنكبوت (إسرائيل)، ومنهم من لا يجب الاعتماد على دعمه أو عونه (الاتحاد السوفيتي والمجتمع الدولي)، ومنهم من يستحق السخرية (مجلس الأمن - "من مجلس الأمن هذا؟!"). هذه اللفظة الأخيرة تشير على استحياء إلى سمة من سمات المتكلم الخطابية، وهي توظيف الفكاهة والسخرية.

وهكذا، يُبقى المتكلم على حضوره وتأثيره من خلال أفعاله اللغوية البلاغية، أي من خلال ما يفعل بالكلمات والافتباسات والإحالات، فيؤسس قسمة بين مصكرين عبر الزمان والمكان، مصكرنا (الخير والدم والشهادة والإيمان والانتفاء إلى الله)، ومصكرهم (الشرّ والسيف والعدوان والظفیان ومُعَاداة الله عزّ وجلّ)، ويوظف الانتصار الذي تحقق للتمييز بين حقتين - من حقبة الخوف إلى حقبة الأمن والثقة عند حزب الله، ومن حقبة التهديد والاعتداء إلى حقبة الخوف في إسرائيل.

(٨)

## نصوص بصرية



تجريد (المعلومات في رسم بياني) ثم تجسيد (الرسم البياني إلى جسم قابل لللمس)  
(من الوطن السعودية، ٣ يوليو ٢٠٠٨).



إعلان على شبكة الإنترنت تتضالفر فيه الاستعارة اللغوية ("الحواجز" اللغوية)  
مع الاستعارة البصرية ("الجدار" الذي يتهدم).



في كل استعارة اندماج fusion بين عالمين أو فضائين دلاليين. الاندماج في هذا النص بين  
عالم البشر - "موجابي" - وعالم الكائنات البحرية - الإخطبوط. ما ينتج عن الاندماج هو "رجل  
إخطبوط" أو "إخطبوط بشري" (الخليج، ٥ يوليو ٢٠٠٨)